التفسير العصري

للقـــرآن الـكـريـــم

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾

الجزء الأول

تفسير سورتي الفاتحة والبقرة

أستاذ دكتور/ محمد السيد أرناؤوط

- حاصل على جائزتي الدولة التشجيعية في التربية البيئية والبحوث البيئية عامي ١٩٩٨، ٢٠٠٥م
- حاصل على الجائزة التقديرية في الإعجاز العلمي في القرآن الكريم من مشيخة الأزهر عام ٢٠١٣م
- حاصل على جائزة تبسيط العلوم من أكاديمية البحث العلمي عام ٢٠١٤م
- صدر له ستون كتاباً حتى الآن في مجالات الإعجاز العلمي في القرآن، والطب البديل والعلاج بالأعشاب، والبيئة والزراعة وغيرها.
- أختير كتابه الإعجاز الإلهي في أجهزة المناعة والمقاومة في جسم الإنسان كأفضل كتاب على مستوى العالم العربي عام ٢٠٠٠م، كما اختاره وزارة الثقافة المصرية من ضمن أفضل مائة كتاب صدر خلال القرن العشرين.

مقدمة

الحمد لله العلي العظيم الذي بهر بعظمته العقول، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أصفى البشرية عقلاً وأكملهم خلقاً، المبعوث من لدن الله رحمة للعالمين، وعلى جميع إخوانه المرسلين والنبيين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

لا شك أن دعوة القرآن الكريم دعوة قائمة على تحرير العقل البشري وحثه على النظر في كتاب الكون... ذلك لأنه ليس كتاب هداية وإرشاد فحسب... بل إن معانيه الدقيقة تنطوي على أصول عامة من العلم لكل ما يهم الإنسان معرفته والعمل به ليبلغ درجة الكمال جسداً وروحاً، وقد ترك الباب مفتوحاً لأهل الذكر (من المشتغلين بالعلوم المختلفة) ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمن الذي هم عائشون فيه.

وإن القارئ المؤمن ليجد لذة روحية عندما يتدبر آيات القرآن الكريم، وإنه ليحس بمتعة نفسية في البحث وراء مكنوناته الباهرة والمعجزة لكل عصر من العصور إلى قيام الساعة.

ولقد تضمن القرآن الكريم آيات من الحكمة، وتشريعات جامعة، وأحكاماً متنوعة، وقد جاء داعياً للمساواة والعدالة، ومعلماً يتحدث لذوي العقول فيبهرهم، ولمن دونهم فيثقفهم ويزكيهم، ولمن هم أقل منهم فيطمئن نفوسهم ويقوي إيمانهم، كما جاء بالكثير من قصص الأولين وبشر بالنعيم المقيم، وأنذر الكافرين المنكرين، وأشار في كثير من آياته الكريمة إلى سنن طبيعية ترجع إلى كثير من العلوم الفلكية والطبية والطبيعية (مثل العلوم الزراعية والهندسية وغيرهما).

ومن المعروف أن العلوم مهما تقدمت، فهي عرضة للزلل، لذلك يجب أن لا يطبق على آياته الكريمة إلا ما يكون قد ثبت منها قطعياً، وأصبح حقيقة علمية ثابتة معروفة وليس مجرد نظرية علمية قابلة للتغيير والتبديل بمرور الزمن، وكل نظرية علمية تختلف مع آية من آيات الذكر الحكيم فلابد أنها لم تصل إلى سبر غور الحقيقة، أو لعدم الفهم الجيد والتفسير الواضح لآيات القرآن الكريم... فلا زالت معجزات القرآن الكريم يكشفها العلم كل حين، ولازالت العلوم كلما تقدمت تجلو

الغشاوات التي تحجب النور عن عيون الغافلين، وسيأتي اليوم (بمشيئة الله تعالى) الذي يحاول فيه العالم استخراج كنوز العلوم والفنون من بين كلمات القرآن الكريم ومعانيه.

ولئن لم يبرز من رجالنا (من الأمة العربية والإسلامية)، العدد الوافر الذي يجمع بين تقوى الله، وفقه الدين، والعلوم المختلفة، فسيظل ذلك الشطر الكبير من القرآن الكريم بغير تفسير يليق به، وستظل الدعوة إلى الله تعالى في هذا العصر العلمي (عصر العلم والمكتشفات الحديثة) محرومة من أمضى أسلحتها، وإذا كان البعض يعتقد وجود تعارض بين رجال الدين ورجال العلم في كشف أسرار القرآن... فإن رجال الدين يستوحون الحقيقة من كلام الله (سبحانه وتعالى) وأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ورجال العلم يستوحون الحقيقة من صنع الله وصنع مخلوقاته في الطبيعة والكون وما فيها من دقة في الصنع وإبداع،... وكلاهما في الحقيقة سواء مرجعه إلى الله، فإذا ما أخلص رجال العلم في البحث وتوصلوا إلى الحقيقة الثابتة تلاقوا مع رجال الدين عند الحقيقة العظمى.

ولقد راعيت (بقدر ما أستطيع) وبقدر ما وصل إليه علمي واجتهادي أن أبين ما اشتمل عليه القرآن الكريم من آيات القدرة مسترشداً في ذلك بمن سبقوني في هذا المضمار، ولقد استعنت في هذا التفسير بأفكار بعض علمائنا الأجلاء، واقتبست كلام أفاضل الباحثين المسلمين وغيرهم، فلهم فيه جميعاً فضل كبير، أرجو الله العلي القدير أن يثيبهم عني أحسن الجزاء، وأن يتولى عني ما قصرت عن أدائه نحوهم من شكر وإشادة بمجهودهم العظيم.

فما أجدر أن ينشر المعنى العلمي الحديث، وما أخلقه أن يذاع في كل مكان ليحبب إلى أهل العقول الدرس والتعمق، ويثبت لهم أن كتاب الله تعالى رسول الدهر الخالد لتنوير الأذهان في أي زمان ومكان (فهو صالح لكل عصر وأوان).

نرجو أن ينتفع به كل من قرأه وعلى الله قصد السبيل.

المؤلف

أستاذ دكتور/ محمد السيد أرناؤوط

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير العصري للقرآن الكريم

تمهيـــد

اجتهد العلماء في وضع تعريف شامل جامع ودقيق للقرآن الكريم لتمييزه عن غيره، فكان تعريفهم كما يلي: "القرآن كلام الله، المنزل على محمد (ﷺ) يخرج ما أنزل على الأنبياء قبله (كالتوراة والإنجيل وغيرهما)، والمتعبد بتلاوته يخرج قراءات الأحاديث والأحاديث القدسية (إن قلنا من عند الله بألفاظها)، لأن التعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة، وليست قراءة الأحاديث القدسية كذلك[١].

ولقد جاء في بعض الآثار عن عدد الصحف السماوية المنزلة ما روي عن أبي ذر الغفاري قال: قلت يا رسول الله كم كتاباً أنزل على أنبيائه؟ قال الرسول الأمين "**مائة صحيفة وأربعة كتب،** فقد أنزل على آدم عشر صحائف، وعلى شيت خمسون صحيفة، وعلى إدريس ثلاثون صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان (وهو القرآن الكريم)، وقد نزلت الكتب المقدسة جميعها دفعة واحدة إلا القرآن الكريم فقد نزل منجما أي مفرقا..."[٢].

وعن أبي ذر (رضي الله تعالى عنه) قال: قلت يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالا كلها... "أيها الملك المسلط المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها وإن كانت من كافر وعلى العاقل أن يكون له ساعات... فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب، وعلى العاقل ألا يكون طاعناً إلا لثلاث: تزود لمعاد (أي اعمل الصالحات زادا للآخرة)، أو مرمة لمعاش (أي إصلاح

---

(١) مباحث علوم القرآن، للشيخ مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٨٥، ص: ٢١.
(٢) القرآن وإعجازه العلمي، لمحمد إسماعيل إبراهيم.

معاش)، أو لذلة في غير محرم (أي الزواج المشروع)، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

قال أبو ذر "قلت يا رسول الله فما كانت صحف موسى عليه السلام؟ قال: كانت عبرا كلها... "عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم هو اطمأن إليها، عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل"، قلت: يا رسول الله أوصني، قال "**أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله**"، قلت زدني يا رسول الله، قال "**عليك بتلاوة القرآن وذكر الله عز وجل فإنه نور لك في الأرض وذخر لك في السماء**"، قلت زدني يا رسول الله، قال "**إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب نور الوجه**"، قلت زدني، قال "**عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتي**"، قلت زدني، قال "**وأحب المساكين وجالسهم وانظر إلى ما هو تحتك ولا تنظر إلى ما هو فوقك**"، قلت زدني، قال "**قل الحق وإن كان مراً** ثم ضرب على صدري وقال: **يا أبا ذر لا عقل كالتدبير، ولا درع كالكف عن الأذى، ولا حسن كحسن الخلق**"(١).

هذا وقد أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، والتوراة ليست من رمضان، والإنجيل لثلاث عشر منه، والقرآن لأربع وعشرون من رمضان (حيث أنزل القرآن كله من اللوح المحفوظ في ليلة القدر إلى سماء الدنيا، ثم نزل إلى الملائكة من اللوح المحفوظ في عشرين شهرا، ثم أنزل به جبريل على الرسول في عشرين سنة).

١ـ مفهوم القرآن:

القرآن الكريم هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أنزله الله (تعالى) من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا منجما (مرة واحدة)

---

(١) مجالات الإعجاز في القرآن الكريم، جزء أول من سلسلة الإعجاز في القرآن الكريم، للدكتور/ محمد السيد أرناؤوط، دار الأندلس الجديدة، ٢٠٠٩م.

في ليلة القدر، ثم أنزله على رسوله محمد (ﷺ) على لسان جبريل (عليه السلام) مفرقاً (على حسب الأحداث والمواقف) في ثلاث وعشرين سنة (منها ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر وإثنا عشر يوماً في مكة وضواحيها ويسمى بالسور المكيّة وهي ٨٥ سورة، ومنها تسعة أيام وتسعة أشهر وتسع سنوات بالمدينة ويسمى بالسور المدنية وعددها ٢٩ سورة.

ولكل من التنزيل المكي والمدني مميزات:

أ – فمن مميزات المكي أنه نزل لبيان أسس الدين (من الإيمان بالله واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، وعمل الصالحات). ويتضح ذلك في قصار السور مع إيجاز في التعبير لأن المخاطبين به أبلغ العرب، ومعظمه تنبيهات وزواجر، وبيان لأصول الدين (مثل سور الحاقة – القارعة – الواقعة وغيره).

ب – ومن مميزات المدني أنه جاء بأحكام العبادات والمعاملات المدنية، والشخصية، والسياسية والحربية، وأصول التشريع مع إسهاب في الأسلوب.

وقد بدأ نزول القرآن على الرسول في ليلة السابع عشر من رمضان وعدد سور القرآن ١١٤ سورة، وعدد أجزائه ثلاثون جزءاً، وعدد أحزابه ٦٠ حزباً (الجزء حزبان)، وعدد أرباعه ٢٤٠ ربعاً (الحزب ٤ أرباع)، وعدد آيات القرآن ٦٢٣٦ آية (منها ٤٤٧٥ آية مكيّة و ١٧٦١ آية مدنية)، وعدد كلماته ٧٧٩٣٤ كلمة، وعدد حروفه ١٠٢٧٠٠٠ حرف، وقد أخرج الطبراني عن عمر بن الخطاب مرفوعاً "القرآن ألف ألف وسبع وعشرون ألف حرف، فمن قرأها صابراً محتسباً كان له بكل حرف زوجة من حور العين".

والسورة: جزء من القرآن يشمل على عدة آيات تفصل البسملة بينه وبين جزء آخر، وأول سورة نزولاً هي "اقرأ" وآخر سورة نزلت هي سورة "التوبة"، وأطول سورة هي سورة البقرة (٢٨٦ آية)، وأقصر سورة هي سورة "الكوثر" (٣ آيات).

وعدد السور التي بدأت بالحمد ٥ سور، والتي بدأت بالتسبيح ٦ سور، والتي بدأت بالحروف المقطعة ١٩ سورة، وعدد السجدات ١٥ سجدة.

والآيـة: جزء من القرآن ذو مبدأ ومقطع يندرج تحت سورة، وأطول الآيات هي الآية رقم ٢٨٢ من سورة البقرة في كتابة الديون والشهادة عليها (١٢٨ كلمة)، وأقصر الآيات آية "حم، يس" تتكون من حرفين.

ولقد سميت الآية آية لأنها جماعة من حروف القرآن، وآيات الله أي عجائبه، والآية هي علامة لانقطاع كلام من كلام، وقد تكون الآية بمعنى العبرة كما في قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ يوسف: ٧، أي أمور وعبر مختلفة.

كما قد تكون الآية بمعنى المعجزة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ النمل: ١٢.

وعموماً فإن الآيات القرآنية هي الوحي المنزل على خاتم المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهي علامات دالة على صدق رسالته بما تنطوي عليه من الإعجاز، هذا وأطول كلمة في القرآن هي ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ (الحجر:٢٢) وعدد حروفها ١١ حرفاً، وأشهر طرق قراءة القرآن قراءة حفص عن عاصم.

هذا وفي تنجيم القرآن ما يساير الحوادث ويثبت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وييسر على الأمة حفظه وفهمه.. نزل آية وآيتين.. وأحياناً أكثر من ذلك.

وقد رتبت السور والآيات بتوقيف من النبي كلما نزل جزء من القرآن حفظه الصحابة أو كتبوه.. وللوحي كتاب يكتبونه (أمثال زيد بن ثابت)، وكانوا يكتبون (كالعادة العرب) على الجلود والأخشاب، والعظام والأحجار والجريد والنسيج وكل واحدة منها تسمى صحيفة.. وقد بقى القرآن محفوظاً على هذه الصورة في تلك الصحف، حتى ندب أبو بكر (بناء على اقتراح عمر بن الخطاب) زيد بن ثابت بجمع القرآن كتابة، وذلك بعد موقعة اليمامة التي قتل فيها كثير من الحفاظ. ولما اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في الأمصار والدول يقرءون القرآن بقراءات مختلفة، جمع

عثمان بن عفان الصحابة واستنسخوا منه عدة مصاحف، وبعثوا إلى كل قطر ودولة مصحفاً سمي باسم قطره.. فقيل: المصحف البصري والمصحف الكوفي والمصحف الشامي، وسمي المصحف الذي احتفظ به عثمان بن عفان المصحف الإمام.

٢ ـ لماذا سمي القرآن بهذا الاسم؟

توجد تفسيرات لذلك منها:

أ – القرآن جاء من كلمة "قرن" فتقول قرنت الشيء بالشيء إذا جمعت أحدها إلى الآخر.. وسمي بذلك قرآنا لاقتران السور والآيات والحروف منه.

ب – مشتق من القرائن، لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضاً ويشابه بعضها البعض الآخر.

جـ – أن القرآن في الأصل مصدر على وزن (فُعلان) بالضم وذلك كالغفران والشكران فتقول قرأت قرءاً وقراءة وقرآناً بمعنى واحد أي تلوته تلاوة..

وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ القيامة: ١٧–١٨.

أي قراءة، ثم نقل هذا اللفظ من معناه المصدري وصار علما شخصيا على ذلك الكتاب الكريم ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء:٩.

أي سمى الله – جل وعلا – معجزة خاتم أنبيائه محمد بالقرآن لأنه جاء من البداية بكلمة "اقرأ"، وعندما نسمع كلمة القرآن فإننا نفهم أنه كلام مقروء، وأصبحت كلمة القرآن علماً على الكمية الكلامية النازلة من الله – عز وجل – على محمد صلى الله عليه وسلم بقصد التحدي من بلغت ملكاتهم ومواهبهم في اللغة العربية أرقى مكانة.. ويسمى القرآن كتاباً حيث يقول تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ص:٢٩.

فإن لاحظ الإنسان القراءة فلابد أن يتذكر كلمة القرآن.

وإن لاحظ الإنسان الكتابة القدسية التي نزلت على محمد بالوحي فهو كتاب... والقراءة كما نعرف تستلزم حافظاً يقرأ.. أما الكتابة فهي لا تتطلب حافظاً إنما تتطلب من له قدرة على الاستقبال لكتاب مسجل فيه الكلمات ويقرأها القارئ... فالقرآن بتسميته قرآنا، وبتسميته كتاباً هو إرادة من الله أن يكون لكتابه وسيلتان من وسائل الفهم والإدراك والحفظ.. فالقرآن يحفظ في الصدور.. والقرآن يسجل في السطور.

٣ـ أسماء القرآن :

لقد تعددت أسماء القرآن الكريم وصفاته (كما ورد في محكم التنزيل الكريم والسنة النبوية المطهرة)، ومن هذه الأسماء:

أ – **الكتاب:** وهو من أشهر أسماء القرآن الكريم بعد كلمة (القرآن)، وقد وردت في التنزيل الكريم في نحو ثمان وتسعين مرة محلاة (بأل)، وفي نحو أربع مرات مجردة منها، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة: ١، ٢.

والكتاب لغة الجمع، وكأن الله سماه كتاباً لأنه ضم وجمع أنواع المعارف والحكم في شتى نواحي الحياة حيث يقول تعالى ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الأنعام:٣٨.

ولقد سمى الله (سبحانه وتعالى) التنزيل العزيز (قرآنا وكتابا) ليجمع بذلك بين الحفظ في الصدور والقيد في السطور، وبهذه العناية المزدوجة من الله بقى القرآن محفوظاً في حرز حريز تحقيقاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر: ٩، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل.

ب – الفرقان: ولقد وردت كلمة "الفرقان" محلاة "بأل" في ستة مواضع من القرآن بمعنى القرآن الكريم، ومرة واحدة مجردة من "أل" في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الأنفال: ٢٩.

وقوله تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ... ﴾ البقرة: ١٨٥.

ولقد ذهب العلماء في تعليلهم لتسمية القرآن فرقانا إلى ثلاثة تفاسير هي:

الأول: أن الله تعالى بين فيه وفصل بين الحلال والحرام.

الثاني: لأن الله فرق به بين الحق والباطل.

الثالث: لأن الله (تعالى) أحكمه تنزيلاً وتشريعا.

جـ – التنزيل: وردت كلمة التنزيل إشارة إلى القرآن الكريم باعتباره وحياً منزلاً من عند الله تبارك وتعالى كما في قوله تعالى ﴿ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْض وَالسَّمَوَات الْعُلَى ﴾ طه: ٤.

د – الذكر: وردت كلمة "الذكر" إشارة للقرآن الكريم واسما له في نحو سبعة وأربعين موضعاً في القرآن منها قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر: ٩.

كما أن الذكر (في مقابل النسيان) تشريف ومحبة، ولذا أمر الله عباده أن يذكروه كثيراً عبادة وتضرعاً وحباً.

٤ـ فضل القرآن الكريم على اللغة العربية:

لقد ساعد القرآن الكريم على تطور فن الخط العربي، فالخط: هو فن الكتابة الجميلة التي تزين النص، وتضيف إليه قيمة تأويلية مميزة، ولقد كان للقرآن الكريم دور أساسي في تطور الكتابة العربية، ومن ثم فن الخط العربي، فسرعان ما انتشر وتطور استعمال الخط العربي في العالم العربي والإسلامي ليشمل الدواوين والمعمار والخزف وغيره، وأخذ بذلك أهمية متزايدة وصلت إلى درجة الرقي إلى جانب فن

الزخرفة، فصار رمزاً للحضارة العربية والإسلامية، وتبدو عبقرية الفنان المسلم في العناق الرائع بين كلمات الله المباركة والحرف العربي من خلال المصحف الشريف الذي شهدت رحلته حروفاً من نور تحتضنها وحدات زخرفيه وزينة بداية من غلافه وتجليده، وحتى صفحاته الافتتاحية والداخلية.

ولقد بدأت رحلة المصحف بعد معركة اليمامة عام ١١ هجرية بعد وفاة الرسول الكريم بعام (والتي استشهد فيها عدد غير قليل من الصحابة من حفظة القرآن الكريم) فأشار عمر بن الخطاب على الخليفة (أبو بكر الصديق) بأن يجمع القرآن حتى لا يذهب بذهاب القراء، فأوكل أبو بكر المهمة لزيد بن ثابت، ومن هنا بدأت الرحلة، وكان القرآن يكتب على جريد النخل والحجارة البيضاء الرقيقة والجلود الحمراء المدبوغة، وقد بدأ جمع القرآن وكتابته بالخط المجازي الذي تميز بفخامته وسهولته في نفس الوقت، ثم تطور إلى خط النسخ، وتطور الخط العربي مرتبطاً بتطور كتابة المصحف الشريف (الذي كان حافزاً لهذا التطور)، كما ارتبط أيضاً بجهود مجموعة من الخطاطين الكبار الموهوبين (أمثال خالد بن أبي الهياج، ومالك بن دينار، وقطبة المحرر في العصر الأموي) ومن مدرسة بغداد جاء (الضحاك بن عجلان، وإسحق بن حماد، وابن مقلة، وابن البواب، وياقوت المستعصمي وغيرهم).

كذلك أحال القرآن الكريم اللغة العربية من لغة بسيطة (تهتم بالماديات)، إلى لغة متحضرة ذات دين سماوي بكل ما يرتبط بها من عقيدة وعبادات (من صلاة وزكاة وصوم وحج)، وقد أحدث ذلك نهضة كبرى في اللغة العربية لا عهد لها من قبل (حيث جعلها لغة حضارة) وهي لغة صحبها وضع مصطلحات جديدة لمعان دينية لم يكن يعرفها العرب من قبل ومن أمثلة ذلك:

أ – **الصلاة:** في اللغة معناها الدعاء، وقد جعلها القرآن مصطلحا لعبادة معروفة محددة (بما فيها من ركوع وسجود وخلافه).

ب – **الزكاة:** أصلها اللغوي النماء والزيادة، واصطلح به القرآن محل أداء المسلم جزء من ماله سنوياً للفقراء والمساكين براً بهم ومعونة لهم.

جـ - الصيام: أصله في اللغة الإمساك عن الشيء، واصطلح به القرآن عن الإمساك عن الطعام والشراب من طلوع الفجر إلى غروب الشمس... وهكذا... فكل المصطلحات القرآنية وغيرها لها أصل لغوي، وقد لا يكون للمصطلح القرآني أصل في اللغة، ومع ذلك ذكرها القرآن.

إضافة لذلك فقد حافظ القرآن على اللغة العربية من الاندثار (مثل بعض اللغات السابقة ومنها الهيروغليفية) وساعد على انتشارها في العديد من الأماكن... فاللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي انتشرت قديماً في العالم العربي (من إيران والهند إلى أسبانيا) دون دوافع سياسية أو غير سياسية... وبعد نحو نصف قرن من فتح العرب لمصر أخذت مصر اللغة العربية وأصبحت لغة لها (وهو ما لم يحدث بأي صورة للغتين اليونانية والرومانية في مصر وإفريقيا مع أنهما ظلتا نحو ألف سنة لغتين للحكام).

٥- اللغة العربية مصدر جميع لغات العالم:

من خلال البحوث المشتركة للعلماء المهتمون بقضية اللغة العربية الخاصة بالجنس البشري وجدوا الحقائق التالية:

١- أن مخ الطفل حديث الولادة يحتوي على مراكز للسمع والبصر جاهزة للاستخدام، ولكن تحتاج لاستكمال وظيفي يتمثل في اتصال خلاياها وفقاً لخطة وهدف محدد بحكمة.

٢- أنه لكي تنمو هذه المراكز نمواً سليماً يحقق وظائفها على الوجه الأكمل، فإنه لابد لهذه المراكز أن تتلقى سيلاً من التنبيهات العصبية الناتجة من تأثير الأصوات والصور الخارجية على مستقبلات السمع والبصر، ولابد أن يكون هذا التلقي مبكراً في فترة حرجة، وإن لم يتم ذلك (أو أعيق في تلك الفترة الحرجة المبكرة) فإن تعطيلاً كلياً أو جزئياً سيصيب تلك المراكز (وفقاً لدرجة الإعاقة)، ويكون هذا الخلل نهائياً ومستديماً.

٣- أن جهاز اللغة أو منطقة البيان في المخ البشري تحتاج لتنشيطها إلى ترددات من جنس ترددات النطق البشري (بصفة عامة)، ولابد لهذه الترددات البشرية أن تلتقي بمراكزها الحسية في المخ في فترة مبكرة ومحددة بعد الولادة، وإلا لحدث تعطيل كلي أو جزئي لملكية البيان البشري... بل وقد يمتنع إنتاج اللغة المنطوقة من البداية.

وهذه الظاهرة البيولوجية والفسيولوجية المؤكدة علمياً تسقط النظرية **التطورية للغة** (والتي تقول إن اللغة تطورية نشأت من الأصوات الطبيعية التي كان يقلدها الإنسان، وبالصدفة نشأت اللغة وأخذت في التطور)(١).

وفي الوقت نفسه تؤكد النظرية **الإلهامية للغة** (والتي تقول أن اللغة توفيقية إلهامية، أي إلهام إلهي هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء)، حيث بدون إلهام من الله تعالى فإن مخ أدم سيتقولب على هذا الوضع الذي لن يمكنه من إنتاج أي نطق خاص به، وعلى أحسن الفروض كان سيخرج منه أصوات طبيعية لا تمت بصلة للبيان البشري وينتقل بعد ذلك لأبنائه جيلاً بعد جيل.

ولكي ينشأ الطفل ناطقاً لابد أن يتلقى تعلمه مبكراً من أبويه، وأبواه من قبله... وهكذا تتسلسل إلى آدم الذي علمه الله (سبحانه وتعالى) كما في قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ البقرة: ٣١.

وعموماً فإن مفاتيح تعليم الأسماء للبشر عبارة عن:-

١- **مفاتيح روحية:** وهي الوحي (كما حدث مع آدم والأنبياء والرسل)، والإيحاء للبشر من بعده (مثل التخاطر، والجلاء البصري وخلافه).

٢- **مفاتيح فسيولوجية:** وهي تختلف من شخص إلى آخر، وتعتمد على درجة التلقي بالحواس الخمس (السمع، والبصر، والشم، والتذوق، واللمس) بصفة أساسية، بالإضافة إلى درجة التفهم والاعتبار، ودرجة اليقين ومكانها الفؤاد.

---

(١) محاضرة للدكتور حسين اللبيدي عن: نشأة اللغة العربية، جمعية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة، القاهرة، ١٩٩٦م.

هذا ولقد أثبت الخبراء والعلماء أن اللغات مثل الحضارات، تولد ثم تزدهر، ثم تشيخ قبل أن تندثر... حيث تظهر ظروف أو بيئة تتناقض فيها فائدة لغة ما لدرجة أن المتحدثين بها يستعينون بلغة إضافية لإشباع حاجاتهم الاتصالية... ومع استمرار تلك العملية تتسلل اللغة الجديدة تدريجياً إلى كافة مجالات الاتصال قبل أن تأخذ مكان اللغة الأصلية في نهاية الأمر، وأنه يوجد حالياً ٦٧٠٠ لغة يتم استخدامها في العالم اليوم، وهي شاهد على القدرات المذهلة للبشرية في مجال إيجاد أدوات الاتصال (الخاصة بها)، وأن تلك اللغات ما هي إلا مرآة للمجتمعات التي يولد فيها أصحابها، وهي تعكس تاريخ اتصالاتهم.

ومعنى هذا أن أساس جميع لغات العالم مصدرها لغة واحدة (هي التي تعلمها آدم وحيا وإلهاماً من الله تعالى).

ولقد تعددت اللغات... بل واللهجات داخل اللغة الواحدة في جميع أنحاء العالم تبعاً لظروف كل منطقة وصفات سكانها، وحتى أننا نشاهد في كل بلد من بلدان العالم اختلاف اللهجات في اللغة الواحدة (فمثلاً لهجة السواحل تختلف عن لهجة أهل الشمال، وهذه تختلف عن لهجة أهل الجنوب وهكذا).

كما أنه لابد للغة الأصلية (التي هي مصدر جميع لغات العالم) أن تظل موجودة ومتداولة بين البشر حتى قيام الساعة، فما هي تلك اللغة؟؟.........

من المؤكد أن تلك اللغة هي اللغة العربية: ومن الشواهد الدالة على ذلك ما يلي:

١- **نزول القرآن الكريم خاتم الرسالات باللغة العربية على الرسول** (صلى الله عليه وسلم): حيث يقول تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الأحقاف: ١٢.

٢- **احتواء اللغة العربية على كلمات تتشابه مع جميع لغات العالم:** فنجد أن كلمة واحدة مثل " أم " تتشابه في جميع لغات العالم (بين عربية وإنجليزية وفرنسية... حتى في لغة النيام نيام لها التركيب نفسه)... فهي أم، وماما،

ومامي وموما (حيث موما هي كلمة أم بين زنوج النيام نيام)، وبالمثل كلمة "الأب"[١] تتشابه في جميع اللغات، فهي أب، وبابا، وبابي، وبوبا (حيث بوبا في قبائل نيام نيام)... وهذا التشابه (بالرغم من تباين الأماكن والأقطار) يدل على وحدة المصدر، وعلى أننا تلقينا الحروف الأولى إلهاماً، وأننا أدركنا بعض مدلولات تلك الحروف وأسرارها واستخداماتها من المصدر نفسه وهو الله (سبحانه وتعالى).

كما أن اشتراك حرف الباء (في جميع ألفاظ الأب) يكشف عن خاصية ومدلول وسر في حرف الباء... وبالمثل في حرف الميم (في لفظ الأم)... ... فكل حرف من حروف اللغة له خواصه التعبيرية وأسراره... ونحن لم نتعلم من هذه الأسرار إلا القليل.

٣- **أن اللغة العربية بها ١١٦ ألف جذر لغوي وتتكون من ٢٨ حرف**، (بينما اللغة العبرية بها ١٢٠٠ جذر لغوي وتتكون من ٢١ حرفاً)، وهذا يعطيها القدرة على التعبير بطرق مختلفة، وفي الوقت نفسه تعطيها طرقاً مختصرة ومفيدة في أقل عدد من الكلمات، مثال ذلك: عندما يشعر الطفل الصغير بالحرارة يقول "أح"، وهذه الكلمة من حرفين تدل على إحساسه بالحرارة، والغريب أن الحر، والحرارة، والحميم، والحمى كلها تبدأ بحرف الحاء.

٦ـ خصائص القرآن وصفاته:

إن جمع هذه الآيات المنثورة في المواضع المتفرقة من القرآن الكريم وإمعان النظر فيه يفتح لنا باباً جديداً إلى معرفة القرآن وفهمه وإدراك محتواه وخصائصه، ومن أهم خصائص القرآن ومزاياه ما يلي:

١ – القرآن قطعي غير مشكوك فيه إطلاقاً:

حيث يقول تعالى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت: ٤٢.

---

(١) القرآن محاولة لفهم عصري، للدكتور مصطفى محمود، دار المعارف، ١٩٩٩.

فالقرآن برئ من كل نقص واختلال، أو شك والتباس، أو ظن وتخمين، أو تدرج وتطور، أو تعارض واختلاف، وكل ما فيه قطعي يقيني مرئي منظور متماسك ملتئم جازم حاسم، فليس في علم الله تدريج ولا تطور.

٢- القرآن محكم ومفصل[١]:

فالقرآن الحكيم واضح كل الوضوح، محكم كل الإحكام، مبين كل البيان في أصول الدين وكلياته وأسسه ومبادئه وفي جميع الأمور التي تمس إليها حاجة الإنسان في فلاح دنياه وسعادته فيها وفي نجاحه وسعادته في الآخرة، لا يحتمل القرآن في ذلك إبهاماً ولا غموضاً، ولم يدع فيه تفصيلاً ولا تفسيراً إلا أودعه فيه حيث يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف: ١١١.

٣- القرآن فرقان:

فالقرآن فارق بين الحق والباطل، والخير والشر، والنور والظلام، وهي سمته المميزة التي أصبحت علامة عليه، بل علماً يطلق عليه ويعرف به، حيث يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان: ١.

٤- القرآن مصدر الكتب الإلهية السابقة ومهيمن عليها:

حيث إن الصحف السماوية السابقة على القرآن كانت مؤقتة بزمن محدود، وبقيت إلى زمن محدود، فلم تكن فيها صحيفة دائمة البقاء ولا مستمرة الحفظ والصيانة، بينما القرآن الكريم كتاب الله الأخير وهو الصحيفة الأبدية، الشاملة لأصول الدين كلها، وستظل مصونة محفوظة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولذلك يعتبر القرآن الكريم مصدقاً لهذه الكتب وأنه ميزان لمعرفة صحة تعاليمها الأساسية وثبوتها، ومحك لاختبار مدى أصالتها وسلامتها، فما وافق منها القرآن المصدق المهيمن فهو الصحيح المحفوظ، وما خالفه منها أصولاً وكليات فهو

(١) الندوى، أبو الحسن، المدخل إلى الدراسات القرآنية، دار الصحف، ١٩٨٦، ص١٩.

المحرف المنحول وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ المادة: ٤٨.

٥- القرآن يهدي إلى سبل السلام ويخرج الناس من الظلمات إلى النور:

يقول تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المائدة: ١٥، ١٦.

فالقرآن الكريم يفتح للحياة الإنسانية بجميع شعبها وميادينها تلك السبل المستقيمة المستوية، الواضحة التي تخلو من كل الأخطار والتي تؤدي إلى ذلك "الصراط المستقيم" الذي يدعو إليه الرسول، وليست هي تلك السبل التي تفرق وتبدد ويدعو إليها الشيطان، ويلاحظ هنا التعبير القرآني الذي يذكر "النور" دائماً مفرداً واحداً ويذكر "الظلمة" جمعاً وتكثيراً (ظلمات)، والحكمة هنا أنه متى فقد الإنسان نور الوحي (الذي لا يتعدد أصله) تعددت عليه الظلمات وتنوعت وتداعت من كل صوب حتى لا يحصى لها عدداً ويواجه في كل درب من دروب الحياة ظلاماً فوق ظلام.

٦- القرآن الكريم هو تلك المرآة المضيئة التي يرى فيها الناس ذوو العقائد المختلفة والأعمال المتباينة وجوههم وملامحهم، فإنهم ذكروا فيها إما تصريحاً أو إيماء، أو تلويحاً بقصص الماضين وسيرهم الغابرة، أو مباشرة وقصداً لأعيانهم وفي ذلك يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الأنبياء: ١٠.

٧- القرآن يتناول ذكر الأمم والشعوب والأفراد ويختارها للعرض والقصص التي لا تنقطع أوضاعها وأعمالها، ولا تنتهي صورها وأخلاقها، بل تتكرر على مدار التاريخ، وذلك حتى نأخذ العظة منها والعبرة.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف: ١١١.

ولقد ذكر ابن النقيب في "خصائص القرآن" أن القرآن احتوى على جميع لغات العرب، وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير، ومن الألفاظ غير العربية التي فطن الأقدمون إلى وجودها في القرآن ما يلي، وعلى سبيل الأمثلة:

١- كلمة "أواب" تعني المسبح بالحبشية.

٢- كلمة "السجل" تعني الكتاب بالفارسية.

٣- كلمة "الصراط" تعني الطريق بلغة الروم.

٤- كلمة "عدن" تعني الكروم والأعناب بالسريانية.

٥- كلمة "حصب" تعني حطب في الزنجية.

٦- كلمة "غساق" تعني المنتن البارد بالتركية.

٧- كلمة "الفوم" تعني الحنطة بالعبرية.

٨- وقد أورد السيوطي هذه الألفاظ وغيرها في إتقانه[١]، كما أورد مئات الألفاظ وردت في القرآن بغير لغة الحجاز ومنها لغات اليمن، وقد نص على كثير من الألفاظ الحميرية بالذات وهذه الألفاظ أضيفت إلى لغة قريش فقوت من شأنها وأزالت الركاكة والغثاثة التي كانت موجودة في لغة بعض القبائل الأخرى التي كانت تفد إلى الحج. وهي التي تلتزم حروفاً بدل حروف (مثل إبدال كاف المؤنث شيئاً فيقولون "كتابش" بدلاً من كتابك كما في قبيلة قيس). حيث خلا القرآن من هذه اللهجات الكثيرة والتزم الإعراب في أواخر الكلمات جميعاً، ولم يكن ملتزماً في كثير من اللغات الأخرى، وقد قال بذلك كثيرون منهم القرطبي وغيره، وقال الرسول ﷺ: "ما من أحد يعلم ولده القرآن إلا توج يوم القيامة بتاج في الجنة".

ولقد قسم علماء الأحكام التي جاء بها القرآن الكريم إلى ثلاثة أنواع هي:

١- **أحكام اعتقادية:** أي متعلقة بالعقيدة، كوجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

---

(١) صبيح، محمد، القرآن.

٢- **أحكام خلقية:** أي تتعلق بالآداب ومكارم الأخلاق لوجوب التحلي بالصدق والعفاف والعدل.

٣- **أحكام عملية:** وهذه تنقسم إلى نوعين هما:

أ – أحكام عبادات: من صلاة وصوم وزكاة وحج وغير ذلك من العادات التي كلفنا الله بها، وأداؤها ينظم العلاقة بين المسلم وربه.

ب – أحكام معاملات كالبيع والشراء والعقود والجنايات، وكلها أمور تنظم علاقة المسلمين فيما بينهم.

ومما راعاه القرآن الكريم أن تأتي أحكاماً تفصيلية في العبادات وفيما يلحق بها من الأحوال الشخصية التي تتعلق بالأسرة والمواريث، لأن أكثر أحكام هذا النوع تعبدي ولا مجال للعقل فيه، وأما ما عدا ذلك فنجد أحكامه قواعد عامة ومبادئ أساسية لم تتناول التفاصيل الجزئية إلا فيما ندر، وذلك لكون هذه الأحكام قابلة للتطور والتغيير مع تطور البيئات والمصالح... فنجده في أحكام المعاملات مثلاً يكتفي بالقواعد العامة، ويترك لولاة الأمر في كل زمان أن يصنعوا القوانين المتمشية مع هذه القواعد وفقاً لمصالحهم وظروفهم.

ومما أجمع عليه العلماء أن جميع الأحكام التي كلفنا الله – تعالى – بها مصدرها الأول هو القرآن الكريم، فكل حكم مأمور به أو منهي عنه يجب على الناس إتباعه مادام مستنداً إلى نص شرعي من القرآن والسنة الشريفة، وآيات القرآن الكريم جميعها قطعية من جهة ورودها وثبوتها ونقلها عن الرسول صلى الله عليه وسلم نقلاً متواتراً، وهذا فيما أجمعت عليه الأمة.

وتنقسم آيات القرآن الكريم من ناحية دلالاتها على الأحكام إلى قسمين هما:

أ – قسم قطعي الحكم: أي لا يحتمل إعادة الفهم أو التأويل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ﴾ النساء: ١٢.

ب – قسم دلالته ظنية: أي أن معنى اللفظ الواحد بالآية يحتمل أكثر من تأويل كما في قوله تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ البقرة: ٢٢٨، فهناك

تفسير لدى الأحناف والحنابلة أن القروء هي الحيضات، وهناك تفسير آخر لدى المالكية والشافعية أن القروء هي الأطهار ويتبقى أن القرآن الكريم هو حجة على كل مسلم ومسلمة ودستور حياة ودين يجب ألا نغفل عنه أبداً.

٧ـ فضائل القرآن وآدابه :

القرآن شامل لكل شيء في الكون حيث يقول تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ النحل: ٨٩.

ويقول أيضا:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الزمر: ٢٧.

كما يقول تعالى عن القرآن:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحشر: ٢١.

وفضائل القرآن الكريم لا تعد ولا تحصى.. والذي يقرأ القرآن يفتح الله له أبواب الخير في الدنيا والآخرة، ويكون مع الكرام البررة يوم القيامة، فعن عائشة – رضي الله عنها – عن النبي ﷺ أنه قال: "الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ وهو يشتد عليه له أجران". (رواه الأربعة).

والبررة هم الطائعون والممتثلون لأوامر الله، والسفرة هم الملائكة الذين يتلون القرآن في عالم الملكوت، فالذي يحفظ القرآن ويتقنه يكون في درجة هؤلاء الملائكة الكرام، وأما الذي يريد حفظه وهو شديد عليه فله أجران.. أجر القراءة.. وأجر التعب في حفظه، وتلاوة القرآن تشرح الصدور وتسر القلوب، وتجعل القارئ في صفاء وروحانية مادام مستمراً في تلاوته فتتنزل عليه السكينة والطمأنينة، ويزداد إيمانه ويسمو ذكره في الملأ الأعلى، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم

في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفظتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده" (رواه مسلم وأبو داود).

وفي حديث آخر قال الرسول ﷺ: "أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن الكريم". وقد قال الرسول أيضاً: "الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه، فيشفعان".

وفي حديث آخر: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

وفضائل القرآن لا تعد ولا تحصى، وعلى سبيل المثال منها ما يلي:

١- من السور القرآنية التي لها فضل عظيم ويقرؤها ويتبرك بها كل إنسان مؤمن هي سورة يس، وعن أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: "إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات" (رواه الترمذي والبيهقي).

٢- من الآيات التي لها فضل آية الكرسي، فعن أبي بن كعب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: "يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم" قال: فضرب في صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر" (رواه مسلم وأبو داود).

فهذا الحديث يدل على مقدار عظمة آية الكرسي وفضلها ونفعها لمن يقرؤها ويتبرك بها وبجميع ما جاء في القرآن العظيم، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد فقيل: يا رسول الله وما جلاؤها؟ فقال: تلاوة القرآن وذكر الموت".

وقال الرسول أيضاً: "القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم"، وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: "عدد درج الجنة عدد آي القرآن، فمن دخل الجنة من أهل القرآن فليس فوقه درجة".

٣- ومن الآيات أيضاً الآيتان في آخر سورة البقرة من قوله تعالى: "آمن الرسول" إلى آخرها، عن أبي مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: "الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه".

٤- وعموماً فمن قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها.. "لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف" (رواه الترمذي).

ومن كل ما تقدم تعرف أن فضائل القرآن كثيرة وعظيمة.. ولا يوجد كتاب سماوي قبله له تلك الفضائل العظام.

ومن آداب القرآن:

١- لا يجوز أن يمس المصحف إلا على طهر، ويحرم توسد المصحف أو مد الرجلين أمام القرآن (أو كتب العلم عموماً) لما فيه من إذلال وامتهان.

٢- وتقبيل المصحف مستحب عند أكثر العلماء رفعة له وتكريماً.

٣- والأوراق التي تكتب فيها كلام الله (البالية) إما أن تحرق أو تغسل، أو تحفر لها حفرة فتدفن فيها.

٤- أن يستفتح قراءة القرآن بالتعوذ والبسملة، فإن قطع القارئ التلاوة قطع ترك ثم عاد إليها جدد التعوذ، وإن قطعها لعذر على نية العودة إلى القراءة كفاه التعوذ الأول ما لم يطل الفصل.

٥- لابد من قراءة البسملة أول كل سورة إلا (براءة) فتقرأ بغير بسملة توقيفاً لا خلاف فيه، سواء أقرئت منفردة أم موصولة بسورة الأنفال قبلها في ترتيب الصحف.

٦- يستحب الوضوء للتلاوة، وقطع القرآن لمكالمة الناس مكروه إذ لا ينبغي إيثار كلام أي مخلوق على قراءة القرآن.

٧- ينبغي حسن الإنصات للقرآن والاستماع له في خشوع وتدبر، ويكره التحدث في مجلس القراءة حيث يعتبره العلماء سوء أدب على الشرع.

وقد اجتمع في القرآن من الآيات ما لم يجتمع في غيره، فإنه هو الدعوة والحجة، وهو الدليل والمدلول عليه، وهو البينة على الدعوى، وهو الشاهد والمشهود به...

وتتمثل أوجه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في:

١- التوافق الدقيق بين ما في نصوص الكتاب والسنة وبين ما كشفه علماء الكون من حقائق كونية وأسرار علمية لم يكن في إمكان بشر يعرفها وقت نزول القرآن.

٢- تصحيح الكتاب والسنة لما شاع بين البشرية في أجيالها المختلفة من أفكار باطلة حول أسرار الخلق لا يكون إلا بعلم من أحاط بكل شيء علماً.

٣- إذا جمعت نصوص الكتاب والسنة الصحيحة وجدت بعضها يكمل البعض الآخر فتتجلى بها الحقيقة مع أن هذه النصوص قد نزلت مفرقة في الزمن وفي مواضعها من الكتاب الكريم، وهذا لا يكون إلا من عند الله الذي يعلم السر في السماوات والأرض.

٨ـ معنى الإعجاز العلمي في القرآن :

أولاً: مفهوم الإعجاز العلمي:

الإعجاز مشتق من العجز، والعجز هو الضعف أو عدم القدرة، ويقول ابن منظور: يقال عجز يعجز عن الأمر إذا قصر عنه وضعف.

والمعجزة مصدر أعجز: وهو بمعنى الفوت والسبق[1].

والمعجز: اسم فاعل من الإعجاز وسميت بذلك لعجز من يقع عندهم ذلك عن معارضتها، والهاء فيها للمبالغة أو صفة محذوف. والمعجزة في الاصطلاح أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة.

والعلم: هو إدراك الأشياء على حقائقها، أو هو صفة ينكشف بها المطلوب انكشافاً تاماً.

والمقصود بالعلم هنا في هذا المقام: هو العلم التجريبي.

وإعجاز القرآن: يقصد به إعجاز الناس عن أن يأتوا بسورة مثله مع شدة عداوتهم وصدهم عنه.

---

(١) لسان العرب لابن منظور (مادة عجز) ٣٧٠/٥، والمفردات للراغب الأصفهاني ص٣٢٢.

أما الإعجاز العلمي في القرآن: فهو إخبار القرآن الكريم (أو السنة النبوية) بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ، وهذا مما يظهر به. صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عن ربه سبحانه وتعالى، وعلى هذا فالمعنى الاصطلاحي لإعجاز القرآن هو: العلم الذي يبين كيف أعجز القرآن الخلق وأقام عليهم الحجة وذلك بتفصيل وجوه الإعجاز والتحدي في الكتاب الكريم ودلالة ذلك على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: الفرق بين الإعجاز والمعجزة:

إعجاز القرآن الكريم: هو إثبات عجز الخلق عن معارضته وإظهار قدرة المعجز (وهو الله سبحانه وتعالى) الذي أنزل القرآن على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وبهذا تقوم الحجة على المعارضين لدعوى النبي، ويكون القرآن الكريم معجزة النبي الكبرى التي تدل على صحة نبوته، وصدق رسالته ﷺ، والمقصود هنا بإعجاز القرآن هو تعجيز البشر عن الإتيان بمثل هذا القرآن، وأن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صادق.

أما المعجزة: فهي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي وسالم من المعارضة، حيث يظهره الله على يد حامل النبوة عند تحدي المنكرين على وجه يعجز المنكرون عن الإتيان بمثله.

والمعجزة: قد تكون تركاً أو فعلاً أو قولاً، فالترك (مثل عدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام)، والفعل (مثل نبع الماء من بين أصابع رسول الله ﷺ) وكإحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى عليه السلام، وكذا انقلاب العصا حيّة تسعى على يد موسى عليه السلام، والقول كالقرآن والإخبار بالمغيبات[1].

والشروط التي يجب أن تتوفر في المعجزة، يمكن إيجازها فيما يلي:

---

(١) الحكيم، السيد محمد، دكتور، إعجاز القرآن، مطبعة دار التأليف بالقاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ.

١- يجب أن يكون المُظهِرُ للمعجزة هو الله تعالى بحيث لا يقدر على إشهارها غيره.

٢- يجب أن تكون المعجزة خارقة للعادة (أي عادة الله – عز وجل – في إيجاد الكائنات وربط المسببات بالأسباب التي تناسبها).

٣- أن تأتي المعجزة على يد حامل الرسالة ليبلغ الناس أنه تصديق من الله له، ولو ظهرت على يد شخص آخر لا تكون معجزة.

٤- أن تتعذر معارضة حامل الرسالة، ولو استطاع أحد أن يأتي بمثل هذا الأمر الخارق بطل كونها معجزة.

٥- أن تكون المعجزة موافقة للدعوى، فإن قال المُدعي إن معجزتي هي إحياء الموتى، ثم ظهرت على يديه معجزة أخرى كنطق الجبل مثلاً لا تكون هذه معجزة له.

٦- ألا تكون المعجزة مكذبة لمدَّعيها، فلو كانت المعجزة أن ينطق الحيوان مثلاً، فنطق وكذب هذا المدعي، فلا يكون هذا النطق معجزة دالة على صدق المدعي.

٧- أن تقع المعجزة بعد تاريخ ادعاء مدعي الرسالة وليس قبله، فإذا حصلت للأنبياء والرسل قبل بعثاتهم فإن هذا يُعد من قبيل الإرهاص.

٨- أن تقع المعجزة قبل زمان نقض العادات أي قبل زمان قيام الساعة.

كما أن هناك فرقًا بين المعجزة وخوارق العادات الأخرى، فمثلاً:

١ – **الكرامة:** هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد واحد من أهل الصلاح والتقوى، لكنه لا يدعي الرسالة، أما المعجزة: فلابد أن تكون على يد مدعي الرسالة ومقرونة بالتحدي.

٢ – **المعونة:** وهي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد رجل عامي (من عامة الناس) تخليصاً له من شدة مثلاً.

٣- **المخرقة:** فالمخرقة لا بقاء لها، بينما المعجزة لها بقاء، كما أن المخرقة لا حقيقة لها ولا معنى لها (لأن بناءها على الآلات والحيل)، بينما المعجزة لا آله لها ولا حيلة، هذا وقد يعجز عامة الناس عن الإتيان بالمخرقة، أما المهرة منهم فلا يعجزون عن استعمال الحيل والخداع في الإتيان بها. كما أن المخرقة متداولة بين الناس في كل الأزمان، بينما المعجزة مختصة بزمان النبوة فقط.

هذا ويمكن إبطال المخرقة بضدها، أما المعجزة فلا سبيل إلى نقدها وإبطالها، ومثال ذلك ما حدث مع سحرة فرعون حينما ألقى موسى (عليه السلام) عصاه فأبطلت سحرهم وكفوا عنه متابعين لموسى ومعلنين عجزهم عن مواجهة عصاه ومعجزاتها.

٤- **الاستدراج:** وهو أمر خارق للعادة يظهره الله على يد فاسق (وفق مراده) خديعة له ومكراً به، بينما المعجزة تظهر على يد حامل الرسالة المشهود له بالتقوى والصلاح والأمانة والاستقامة حتى قبل تبليغه بالرسالة.

وهو أمر خارق للعادة يظهره الله على يد فاسق مخالفاً دعواه وتكذيباً له، بينما المعجزة تظهر على يد حامل الرسالة تأكيداً لصدق دعوته.

هذا ولكل رسول معجزة تناسب قومه ومدة رسالته، ولما كان الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم يُبعثون إلى أقوامهم خاصة ولأزمنة محدودة، فقد أيدهم الله بمعجزات حسية تناسب قومهم فيما برعوا فيه، فكانت معجزة موسى (عليه السلام) هي الحية والعصا نظراً لأن قومه كانوا يشتهرون بالسحر، بينما معجزة عيسى (عليه السلام) هي إحياء الموتى بإذن الله وشفاء المرضى نظراً لأن قومه كانوا يشتهرون بالطب، ولما ختم الله النبوة بمحمد ﷺ ضمن له حفظ دينه وأيده ببينة كبرى (معجزة) خالدة تبقى بين أيدي الناس إلى قيام الساعة حيث يقول تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ النساء: ١٦٦.

وفي هذه الآية رد على تكذيب الكافرين بنبوة محمد ﷺ وبيان الطبيعة المعجزة العلمية التي تبقى بين يدي الناس، وتتجدد مع كل فتح بشري في آفاق العلوم والمعارف ذات الصلة بمعاني الوحي الإلهي.

قال الخازن[١] عند تفسيره هذه الآية: "لكن الله يشهد لك يا محمد بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذي أنزله عليك".

وقال ابن كثير[٢]: "فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليك الكتاب (وهو القرآن العظيم).. ولهذا قال: أنزله بعلمه، أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات، والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل".

ويقول تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ ص: ٨٧، ٨٨.

ففي القرآن أنباء تعرف المقصود منها (لأنها بلسان عربي مبين). لكن حقائقها وكيفياتها لا تتجلى إلا بعد حين، أي قبل الموت وبعده.

ثالثاً: الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي للقرآن:

التفسير العلمي للقرآن: هو الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية أو ما أثبتته الحقائق العلمية في الطبيعة.

والحقائق العلمية: الحقائق جمع حقيقة، تقول حق الأمر يحق ويحق حقاً وحقوقاً إذا صار حقًا ثابتاً.

والحقيقة العلمية: هي إدراك الأشياء على حقائقها باستخدام العلم التجريبي، أو هي المفهوم الذي تجاوز المراحل الفرضية والدراسات النظرية حتى أصبح ثابتاً مجمعاً عليه من قبل كافة العلماء المختصين، ومن أمثلة الحقائق العلمية: تمدد المعادن بالحرارة وانكماشها بالبرودة، وتبخر الماء عند درجة مائة تحت الضغط الجوي العادي، وتجمده عند درجة الصفر المئوي.

---

(١) الخازن في مجموعة من التفاسير: ٢١/٢.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن، ٥٦٠/١.

والتفسير العلمي للقرآن جائزاً إذا تمت مراعاة الشروط الآتية[١]:

١- معرفة قواعد التفسير.

٢- معرفة قواعد اللغة وقواعد النحو والأصول.

٣- الفهم الذي يقذفه الله - تعالى - في قلوب من يشاء من عباده الصالحين من خلال تدبرهم لآيات الكتاب العزيز.

٤- ألا يجزم المفسر أن هذا هو معنى النص القرآني، وأن ما عداه خطأ (كما يفعل كثير من الباحثين)، بل يقرر ما يراه (بعد توفر الشروط) للاستشهاد به على وجه لا يؤثر على قدسية النص القرآني؛ لأن تفسير القرآن بنظرية قابلة للتغيير يثير الشكوك (حول القرآن) للناس عندما يظهر خطأ تلك النظرية، فاللازم أن يسأل الله العون والهداية ويبين أن ما توصل إليه بفهمه فإن كان صحيحاً مقبولاً فذلك من الله، وإلا فالقرآن منزه عن التناقض والخطأ.

أما الإعجاز العلمي في القرآن: فهو إخبار القرآن الكريم (أو السنة النبوية) بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيراً وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ وهكذا يظهر اشتمال القرآن (أو الحديث الشريف) على الحقيقة الكونية التي يؤول إليها معنى الآية (أو الحديث)، ويشاهد الناس مصداقها في الكون فيستقر عندها التفسير، ويعلم بها التأويل، كما يقول تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الأنعام: ٦٧.

وقد تتجلى مشاهد أخرى كونية عبر القرون تزيد المعنى وضوحاً وعمقاً وشمولاً، لأن الرسول ﷺ قد أوتي جوامع الكلم فيزداد بها الإعجاز عمقاً وشمولاً، كما تزداد السنة الكونية وضوحاً بكثرة شواهدها المندرجة تحت حكمها.

---

(١) المصلح، عبد الله عبد العزيز، (دكتور)، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تاريخه وضوابطه، رابطة العالم الإسلامي، هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ، ط١، ص٣٤، ٣٥.

والتفسير كعلم من العلوم الإسلامية، فهو علم نزول الآيات وشئونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، والبحث عن كيفية النطق بألفاظها وبيان مدلولاتها وأحكامها، وشرح معانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، كذلك يُعني علم التفسير بترتيب الآيات: مكيها ومدنيها، محكمها ومتشابهها، ناسخها ومنسوخها، خاصة وعامها، مطلقها ومقيدها، مجملها ومفصلها، حلالها وحرامها، وعدها ووعيدها...إلخ.

وعرف بعض العلماء التفسير: بأنه علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية. وذكر "شمس"[١] أن التفسير هو ما كان راجعاً إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية، وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله ﷺ أو عن بعض الصحابة الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ، والترجيح يعتمد على الاجتهاد ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالاتها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية واستنباط المعاني من كل ذلك.

كما ذكر "السيوطي"[٢] كيف حاز "تفسير القرآن" والاشتغال به أعظم الشرف، فذلك من جهات ثلاث: أما من جهة الموضوع فلأن موضوعه كلام الله – تعالى – الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وأما من جهة الغرض فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى، وأما من جهة شدة الحاجة فلأن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجل أو آجل، مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي المتوقفة على العلم بكتاب الله تعالى.

هذا وهناك أصول ثلاثة لتفسير القرآن الكريم لا خلاف عليها تشتمل على:

---

(١) شمس، محمد حسن، علوم القرآن.
(٢) السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم الدين.

١- تفسير القرآن بالقرآن:

فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، وما أُجمِل من بعض أحكامه في موضع فُصِّل في موضع آخر، وما نزل من الآيات متأخراً مبني في معناه على ما نزل متقدماً، وحين النظر إلى الآيات التي تتناول حكماً معيناً يراعي الربط بين الآيات التي تتناول بقية الأحكام.

٢- التفسير النبوي (السنة النبوية):

فالسنة الشريفة شارحة للقرآن ومفسرة له.

٣- التفسير اللغوي للآيات:

ويراعى فيه أن تكون معاني الألفاظ وفقاً للمعجم اللغوي للعربية وقت تنزيل القرآن، واستعراض هذه الألفاظ في مواضعها في القرآن كله، مع عدم تقديم المعنى المجازي على المعنى الحقيقي المباشر، بالإضافة إلى الالتزام بقواعد تفسير النصوص المتفق عليها (كالمطلق والمقيد والمنطوق والمفهوم وغيره).

كما يوجد أنواع مختلفة من التفسير والتي يمكن تقسيمها إلى نوعين على وجه الإجمال هما[١]:

١- تفسير جاف للقرآن:

وهو لا يتجاوز حل الألفاظ وإعراب الجمل وبيان ما تحتويه نظم القرآن الكريم من نكات بلاغية وإشارات فنية، وهذا النوع أقرب إلى التطبيقات العربية منه إلى التفسير وبيان مراد الله من هدايته.

٢- تفسير شامل للقرآن:

وهو تفسير يجاوز الحدود السابقة ويجعل هدفه الأعلى تجلية هدايات القرآن وتعاليم القرآن وحكمة الله فيما شرع للناس في هذا القرآن على وجه يجتذب الأرواح، ويفتح القلوب ويدفع النفوس إلى الاهتداء بهدي الله، وهذا هو الخليق باسم التفسير،

---

(١) شحاته، عبد الله، (دكتور)، إعجاز القرآن، دار مايو الوطنية للنشر، ١٩٩٨، ص:١٢.

وفائدة هذا التفسير هي التذكر والاعتبار، ومعرفة هداية الله في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، ليفوز الأفراد والجماعات بخير الدنيا والآخرة.

وهناك اتجاهات شتى في تفسير القرآن نوجزها فيما يلي[(١)]:

١- التفسير بالمأثور:

في عهد ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين وعهد الصحابة في القرنين الأول والثاني الهجريين، ومن أشهر كتب التفسير بالمأثور: جامع البيان في تفسير القرآن (لابن جرير الطبري)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور (لجلال الدين السيوطي)، وتفسير القرآن العظيم (لأبي الفداء إسماعيل بن كثير) وغيرهم.

٢- التفسير بالرأي:

ومن أشهر الكتب في هذا الاتجاه: مدارك التنزيل وحقائق التأويل (لمحمود النسفي)، وروح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني (للآلوسي)، والتفسير الكبير المعروف بمفاتيح الغيب (للفخر الرازي) وغيرهم.

٣- التفسير الفقهي:

وقد تفرع عن التفسير بالمأثور لأول مرة، ثم تنوعت التفاسير الفقهية تبعاً للمذاهب (الأحناف – السنة – المعتزلة – المالكية...) ومن أشهر الكتب في هذا الاتجاه: الجامع لأحكام القرآن (لأبي عبد الله القرطبي)، وأحكام القرآن (لابن العربي) وغيرهما.

٤- التفسير الأدبي:

وهو تفسير خالٍ من العبارات النحوية والتعقيدات (سواء اللغوي منها أو البلاغي)، بالإضافة إلى أنه خالٍ من الخلافات المذهبية، ومن أشهر الكتب في هذا الاتجاه.

تفسير المنار (لمحمد عبده ومحمد رشيد رضا)، وتفسير القرآن (للمراغي)، وتفسير القرآن الكريم (لمحمود شلتوت) والتفسير الواضح (لمحمد محمود حجازي) وغيرهم.

---

(١) العريض، علي حسن، دكتور، تاريخ علم التفسير ومناهج المفسرين، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٨٠م.

٥- التفسير الصوفي والإشاري للقرآن:

ومن أشهر الكتب في هذا الاتجاه: لطائف الإشارات (للقسشيري). وعرائس البيان في حقائق القرآن (للشيرازي)، وأسرار القرآن (لمحمد ماضي أبو العزائم).

٦- التفسير الموضوعي للقرآن:

وفي هذا النوع من التفاسير يجمع الباحث الآيات القرآنية التي تتحدث أو تشير من قريب أو من بعيد إلى الموضوع المطلوب في المصحف كله، وينظم الباحث هذه الآيات حسب نزولها والزمان والمكان ويستخدمها في شرح الموضوع المطلوب، ومن أشهر الكتب في هذا الاتجاه: مفردات القرآن (للراغب الأصفهاني)، وأحكام القرآن (للجصاص)، والبيان في أقسام القرآن (لابن القيم)، والعقيدة في القرآن (لمحمد أبو زهرة) وغيرهم.

٧- تفسيرات أخرى متنوعة:

ومن أشهر الكتب في هذا الاتجاه التفسير البلاغي في كتاب الكشاف (للزمخشري)، والتفسير الفلسفي في كتاب مفاتيح الغيب (للفخر الرازي)، والتفسير البياني واللغوي لتفسير القرآن (للشيخ محمد متولي الشعراوي)، والتفسير العلمي للقرآن الكريم، والتفسير البياني للقرآن الكريم (للدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ) وغير ذلك من الكتاب.

رابعاً : مصادر أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن[1]:

لما كانت أبحاث الإعجاز العلمي متعلقة بالتفسير العلمي للآيات الكونية ومتصلة بشرح الأحاديث في هذه المجالات، فهي فرع من فروع التفسير وجزء من شرح الحديث وتقوم على مصادر هذين العلمين.

---

(١) الزنداني، الشيخ عبد المجيد، المعجزة العلمية في القرآن والسنة، تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، من أبحاث المؤتمر الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بإسلام أباد، باكستان، ١٩٨٧، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

وحيث إنها تقوم على إظهار التوافق بين نصوص الوحي وبين ما كشفت العلم التجريبي من حقائق الكون وأسراره، فهي كذلك تقوم على مصادر العلوم التجريبية والعلم المتعلق بتاريخها، كما تتصل أيضاً بعلم أصول الدين الإسلامي.

وترتكز أبحاث الإعجاز العلمي على القواعد التالية:

١- علم الله هو العلم الشامل المحيط الذي لا يعتريه خطأ ولا يشوبه نقص، وعلم الإنسان محدود يقبل الازدياد ومعرض للخطأ.

٢- هناك نصوص من الوحي قطعية الدلالة، كما أن هناك حقائق علمية كونية قطعية.

٣- في الوحي نصوص ظنية في دلالتها، وفي العلم نظريات ظنية في ثبوتها.

٤- لا يمكن أن يقع صدام بين قطعي من الوحي وقطعي من العلم التجريبي، فإذا وقع في الظاهر فلابد أن هناك خللاً في اعتبار قطعية أحدهما. وهذه قاعدة جليلة يقررها علماء المسلمين (وقد ألف أبو العباس بن تيمية كتاباً من أحد عشر مجلداً لبيانها تحت عنوان "درء تعارض العقل والنقل").

٥- عندما يُري الله عباده آية من آياته (في الآفاق أو في الأنفس) مصدقة لآية في كتابه أو حديث من أحاديث رسوله ﷺ يتضح المعنى ويكتمل التوافق، ويستقر التفسير، وتتحدد دلالات ألفاظ النصوص مما كشف من حقائق علمية وهذا هو الإعجاز.

٦- إن نصوص الوحي قد نزلت بألفاظها جامعة (فقط قال ﷺ: "بُعثت بجوامع الكلم")[1] تحيط بكل المعاني الصحيحة في مواضيعها التي قد تتابع في ظهورها جيلاً بعد جيل.

٧- إذا وقع التعارض بين حقيقة علمية قطعية وبين حديث ظني في ثبوته، فيؤول الظني من الحديث ليتفق مع الحقيقة القطعية، وحيث لا يوجد مجال للتوفيق فيقدم القطعي.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ومسلم في المساجد برقم ٤٥٢٣ والترمذي والنسائي.

٨- إذا وقع التعارض بين دلالة قطعية للنص وبين نظرية علمية رفضت هذه النظرية؛ لأن النص وحي من الذي أحاط بكل شيء علماً، وإذا وقع التوافق بينهما كان النص دليلاً على صحة تلك النظرية، وإذا كان النص ظنياً والحقيقة العلمية قطعية يؤول النص بها.

خامساً: شروط وضوابط الدراسة في مجال الإعجاز العلمي في القرآن:

هناك شروط وضوابط لابد من توافرها في تكون الدراسة في مجال الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وكذا في السنة النبوية الشريفة، دراسة علمية مقبولة وهي على النحو التالي[1]:

١- القرآن يفسر بعضه بعضاً: فما أُجمل في وضع، قد فُصِّل في موضع آخر، وما نزل من الآيات متأخراً بني في معناه على ما نزل منها متقدماً، وبالتالي فيجب ألا يتعارض التفسير العلمي لنص قرآني مع مضمون نص قرآني آخر.

٢- الرجوع إلى المأثور عن الرسولﷺ، فإذا كان القرآن مجملاً في مسألة، فالسنة مفصلة فيها، وإذا كان القرآن موجزاً في أمر من الأمور، فالسنة شرح له.

ولذا يجب على الباحث في مجال الإعجاز العلمي لآيات القرآن الكريم أن يأخذ بصحيح المنقول عن الرسولﷺ، ثم يأخذ بعده بالأقوال المأثورة عن الصحابة - رضوان الله عليهم - لأن أقوالهم بمنزلة المرفوع إلى الرسولﷺ وخصوصاً الأقوال الموثقة، ثم بعد ذلك يأخذ الباحث بالمفهوم والتأويل والاجتهاد بالرأي، ويشترط للرأي هنا أن يكون له أصل معتمد من قواعد الشرع، فإن الرسول ﷺ قال: "من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار".

٣- الاستعانة بالتفاسير المعتمدة، وأن يتخير منها ما أجمع العلماء عليه، أو يكادون يجمعون على قوته، وخلوه من الإسرائيليات والخرافات التي أدخلت في بعض التفاسير.

---

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي، للدكتور/ أحمد شوقي إبراهيم، جزء أول، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٤، ص١٢.

٤- الإلمام بالعلوم المساعدة للموضوع الذي يتكلم فيه الباحث، مثل إلمامه بعلوم اللغة العربية، وعلوم النحو والصرف والاشتقاق والبلاغة بما فيها من معانٍ وبيان وبديع... وغيرها من العلوم الأخرى.

٥- التثبت من حقائق المعطيات العلمية بالتفسير العلمي، فلا ينبغي للباحث أن يقحم (بمناسبة أو غير مناسبة) بعض الآيات القرآنية دون مناقشتها لغوياً، ودون البحث في علاقتها الوثيقة بالحقائق العلمية (موضوع بحثه).

٦- مراعاة الباحث لتعدد اللفظة القرآنية، بحيث يكون معنى اللفظة القرآنية من المعاني الأصيلة لها.

٧- التزام الباحث بشروط التأويل، وأن يفسر اللفظ في النص القرآني على ظاهره، ما لم يكن في النص قرينة تدل على المجاز، أو كان المعنى يستعصي فهمه على ظاهر اللفظ.

٨- على الباحث الالتزام بموضوعية البحث العلمي في مجال الإعجاز العلمي عن طريق الدخول إلى لب التفسير مباشرة ودون حشو أو إطناب وبأسلوب واضح، وفي إيجاز وبأسلوب سهل يفهمه الناس.

٩- أن التفسير العلمي للقرآن يحمل أصحابه والمغرمين به على التأويل المتكلف الذي يتنافى مع الإعجاز ولا يستسيغه الذوق السليم.

١٠- أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون، والدليل على ذلك ما روي عن معاذ أنه قال: يا رسول الله إن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلة، فما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يستوي ويستدير ثم ينقص حتى يعود كما كان، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ البقرة: ١٨٩.

وللرد على هؤلاء المعارضين للإعجاز العلمي نوجز ذلك فيما يلي:

١- إن كون القرآن الكريم كتاب هداية لا يمنع أن ترد فيه إشارات علمية يوضحها التعمق في العلم الحديث، فقد تحدث القرآن عن السماء والأرض والشمس

والقمر والليل والنهار، وسائر الظواهر الكونية، كما تحدث عن الإنسان والحيوان والنبات... ولم يكن هذا الحديث المستفيض منافياً لكون القرآن كتاب هداية، بل كان حديثه هذا أحد الطرق التي سلكها لهداية الناس.

٢- من حيث تعليق الحقائق التي يذكرها القرآن بالفروض العلمية فهو أمر مرفوض، وأول من رفضه هم المتحمسون للتفسير العلمي للقرآن.

٣- من حيث إن هذا التفسير يتضمن التأويل المستمر والتكلف فإن التأويل بلا داع مرفوض، وقد اشترط المهتمون بالتفسير العلمي للقرآن شروطاً (من بينها ألا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة التي تمنع من إرادة الحقيقة).

٤- من حيث الاستدلال بما ورد في سبب نزول الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ البقرة: ١٨٩، فهو بما رواه الطبري في تفسيره عن قتادة في هذه الآية قالوا: سألوا النبي ﷺ لم جعلت هذه الأهلة؟، فأنزل الله فيها ما تسمعون ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾... فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم ولمناسكهم وحجهم ولعدة نسائهم ومحل دينهم في أشياء والله أعلم بما يصلح خلقه، وبذلك فلا دليل في الآية على إبعاد التفسير العلمي.

والخلاصة من ذلك في النقاط التالية:

١- أن التفسير العلمي للقرآن مرفوض إذا اعتمد على النظريات العلمية التي لم تثبت ولم تستقر ولم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية.

٢- ومرفوض أيضاً إذا خرج بالقرآن عن لغته العربية.

٣- ومرفوض أيضاً إذا صدر عن خلفية تعتمد العلم أصلاً وتجعل القرآن تابعاً.

٤- وهو مرفوض كذلك إذا خالف ما دل عليه القرآن في موضع آخر أو دل عليه صحيح السنة.

٥- وهو مقبول بعد ذلك إذا التزم القواعد المعروفة في أصول التفسير (عن الالتزام بما تفرضه حدود اللغة وحدود الشريعة، والتحري والاحتياط الذي يلزم كل ناظر إلى كتاب الله).

٦- وهو مقبول أيضاً ممن رزقه علماً بالقرآن وعلماً بالسنن الكونية لا من كل هب ودب... فكتاب الله أعظم من ذلك.

هذا وترجع أهمية أبحاث الإعجاز العلمي إلى ما يلي[1]:

١ - تجديد بينة الرسالة في عصر الكشوف العلمية:

فإذا كان المعاصرون لرسول الله ﷺ قد شاهدوا بأعينهم كثيراً من المعجزات، فإن أهل عصرنا (على اختلاف أجناسهم وأوطانهم وأديانهم) لا يذعنون لشيء مثل إذعانهم للعلم وبيناته ودلائله، ولذلك فإن أبحاث الإعجاز العلمي كفيلة (بإذن الله) بتقديم أوضح الحجج وأقوى البينات العلمية لمن أراد الحق من سائر الأجناس، وفي حجج هذه الأبحاث قوة في اليقين وزيادة في إيمان المؤمنين، كما أن ظهور هذه البينات العلمية يكسب الثقة مرة ثانية في قلوب المسلمين الذين فتنتهم تقدم وحضارة غير المسلمين المادية.

٢ - تصحيح مسار العلم التجريبي في العالم:

فإن البشرية بحاجة إلى الدين الحق لإنقاذها مما حل بها من خواء في الروح، وضياع في الشعور وشقاء في النفس، فهي بحاجة إلى الدين الذي يجمع لها بين الدين والعلم، والمادة والروح، والنظام والخلق، وسعادة الدنيا وحسن ثواب الآخرة، كما أنها بحاجة إلى دليل من العلم يثبت لها صحة الدين.. وفي أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن ما يثبت تطابق القرآن مع الحقائق العلمية المعروفة مما يزيدهم إيماناً، وقد يكون ذلك سبباً في إيمانهم بالدين الإسلامي الحنيف.

---

(١) الزنداني، الشيخ عبد المجيد، بحث سابق.

٣- تنشيط المسلمين للاكتشافات الكونية:

حيث إن التفكير في مخلوقات الله عبادة، والتفكير في معاني الآيات والأحاديث عبادة، وتقديمها إلى الناس دعوة إلى الله... وهذا كله متحقق في أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وهذا من شأنه أن يحفز المسلمين على اكتشاف أسرار الكون بدوافع إيمانية تعبر بهم فترة التخلف التي عاشوها فترة من الزمن في هذه المجالات، وسيجد الباحثون المسلمون في كلام الخالق عن أسرار مخلوقاته أدلة تهديهم أثناء سيرهم في أبحاثهم تقرب لهم النتائج وتوفر لهم الجهود.

وعموماً فإن أبحاث الإعجاز العلمي تساهم في تقوية إيمان المؤمنين، ودفع الفتن التي ألبسها الإلحاد ثوب العلم عن بلاد المسلمين، وفي دعوة غير المسلمين، وفي فهم ما خوطبنا به في القرآن والسنة، وفي حفز المسلمين للأخذ بأسباب النهضة العلمية للوصول إلى المكانة اللائقة بهم بين الأمم المتقدمة في عصرنا الحالي... وبذلك فإن القيام بهذه الأبحاث من أهم فروض الكفاية وصدق الله حيث يقول: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ البينة: ١.

القرآن معجزة لكل عصر حتى قيام الساعة:

كل رسول من الرسل كانت له معجزة، وله كتاب منهج... فمعجزة موسى (عليه السلام) كانت العصا، ومنهجه التوراة، ومعجزة عيسى (عليه السلام) الطب ومنهجه الإنجيل... ولكن رسولنا الكريم (ﷺ) معجزته هي عين منهجه... ليظل المنهج محروساً بالمعجزة... وتظل المعجزة في المنهج، وكان الله (سبحانه وتعالى) يكلف عباده بالمحافظة على الكتاب... أما القرآن فقد قال عنه سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ سورة الحجر: ٩، لماذا؟:

١- لأن القرآن معجزة، وكونه معجزة لابد أن يبقى بهذا النص وإلا ضاع الإعجاز.

٢- ولأن الله جرب عباده في الحفاظ على الكتب السابقة، فنسوا حظا مما ذكروا به... والذي لم ينسوه كتموا بعضه... والذي لم يكتمونه يلوون ألسنتهم به ويحرفونه عن موضعه... وهكذا نرى أكثر من نوع للكتب السابقة (من مسح ونسيان وتحريف سواء للتوراة أو الإنجيل)، ثم جاءوا بأشياء من عندهم وقالوا أنها من عند الله ليشتروا بها ثمناً قليلاً.

ومن هنا فإن الله (سبحانه وتعالى) قرر أن يحافظ على القرآن، ولو أخذنا خطين... خط تطبيق القرآن والعمل بتعاليمه، وخط المحافظة على القرآن... نرى أن خط تطبيق القرآن كلما مر الزمن ضعف... وخط المحافظة على القرآن كلما مر الزمن ازداد (ولو كنا نطبق القرآن كمنهج تطبيقاً سليماً لكان هذا أمراً طبيعياً)... ولكن غفلتنا عن تعاليم القرآن كسلوك في الحياة، لا تتمشى مع ازدياد الحفاظ على القرآن... فنجد القرآن في كل مكان... في المنزل والمكتب والسيارة... حتى غير المسلم يحافظ على القرآن ويحمله... فنجد شخصاً ألمانياً (مثلاً) يفكر في أن يكتب جزء من القرآن في صفحة واحدة بشكل جميل... فلماذا يفعل ذلك مع القرآن قبل أن يفعله مع الكتب السماوية الأخرى؟... وما الذي جعل دولة (مثل اليابان وإيطاليا) تتفننان في طباعة المصحف بشكل جميل أنيق؟... إن ذلك يحدث لأن الله (سبحانه وتعالى) يريد أن يدلل لنا على أن الذي يحفظه هو الله... وأن التحدي في القرآن ومعجزاته ليست للعرب وحدهم... بل **هي للعالم أجمع**... ومن هنا فقد كان إعجاز القرآن اللغوي هو تحديه للعرب فيما نبغوا فيه... ولكن التحدي لم يأت للعرب وحدهم... فالقرآن جاء لكل الأجناس وكل الألسنة... كل البشر... لذا سيبقى هذا الكتاب إلى أن تقوم الساعة، ولابد أنه يحمل للعالم كله **(في كل زمان ومكان)** معجزات ومعجزات إلى قيام الساعة... ولقد كانت هناك معجزات للقرآن وقت نزوله على الرسول (ﷺ)، وخلال فترة نزوله، وبعد نزوله... وهي مستمرة إلى يومنا هذا... وستستمر إلى قيام الساعة لتظهر لنا آيات الله في الأرض... فالقرآن كله معجز... كل حرف فيه معجز... وكل آية معجزة... كله إعجاز في إعجاز أو هو الإعجاز المعجز.

ولقد تنبأ القرآن بما سيحدث بعد أعوام قليلة، وبما سيحدث بعد آلاف السنين... فالذي قال هذا هو الله القادر العالم بأن ذلك سيحدث يقيناً ومن أمثلة ذلك:-

١- قوله تعالى ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ القمر: ٤٥. فقد نزلت هذه الآية في مكة والمسلمين قلة وأذلة، حتى أن عمر بن الخطاب قال: أي جمع هذا الذي سيهزم ونحن لا نستطيع أن نحمي أنفسنا؟... وانتصر المسلمون بعدها وتحقق ذلك فعلاً.

٢- كما تنبأ القرآن بقتل الوليد بن المغيرة العدو الألد للإسلام والمشهور بكبريائه ومكابرته وعناده في قوله تعالى ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ سورة القلم: ١٦، أي أنه سيقتل بضربه على أنفه ويحدد موضع الضربة، وبعد ذلك يأتي في بدر فتراه قد وسم على خرطومه (أي ضرب على أنفه كما أشارت الآية)... فمن الذي يستطيع أن يحدد موقع الضربة ومكانها... ومن الذي يستطيع أن يجزم ماذا سيحدث بعد ساعة واحدة مثلاً؟...

٣- كما تنبأ القرآن بموت أبو لهب (عم الرسول) كافراً وسيعذب في النار، كما في قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ... ﴾ المسد: ١-٣.

وكان يكفي أن يذهب أبو لهب إلى أي جماعة من المسلمين ويعلن الشهادة بأنه أسلم... يقولها نفاقاً أو رياء... ثم يقف وسط القوم ويقول إن محمداً قد أنبأكم أنني سأموت كافراً... وأنا أعلن إسلامي لأثبت لكم أن محمدا كاذب... هل يجرؤ عقل أبو لهب على فعل هذا...؛ ولم يكن التنبؤ بأن أبا لهب سيموت كافراً أمراً ممكناً، لأن كثيراً من المشركين اهتدوا إلى الإسلام (كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعمر بن الخطاب وغيرهم) كانوا مشركين وأسلموا.

٤- كما تنبأ القرآن بانتصار الروم (أهل كتاب) على الفرس (كانوا ملحدين وكفرة) في قوله تعالى ﴿الـم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِّ الأَمْرُ...﴾ الروم: ١-٤.

فعندما انهزم الروم وانتصر الفرس فرح المشركون لأن الكفر قد انتصر، وحزن المؤمنون لأن نوعا من الإيمان قد انهزم، ونزلت الآية لتبشر بعد ذلك بانتصار الروم خلال بضع سنين على الفرس، وقد وصل الأمر بأن أبو بكر (رضي الله عنه) راهن على صحة ما جاء بالقرآن خلال ٣ - ٩ سنوات، وقد حدث فعلا من انتصار الروم على الفرس بعد نحو سبع سنوات... فماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه لم تحدث معركة بين الروم والفرس؟... أو لو أنه حدثت المعركة وهزم فيها الروم... أكان بعد ذلك يصدق أي إنسان القرآن؟... أو يؤمن بالدين الجديد؟... ثم إذا كان القرآن من عند محمد (كما يدعي المشركون) فما الذي يجعله يدخل في قضية غيبية كهذه لم يطلب منه أحد الدخول فيها؟... أيضيع الدين من أجل مخاطرة لم يطلبها أحد؟؟؟... ولكن القائد هو الله... والفاعل هو الله... وحدث ما تنبأ به القرآن حقاً وصدقاً.

هذا وقد جاء القرآن بنهايات النظريات... بقمة نواميس الكون إذا تليت على المؤمنين في ذلك الوقت، مرت عليهم، ولم ينتبهوا إلى مدلولها الحقيقي العلمي... وإذا قيلت بعد ذلك على الأجيال التالية والقادمة عرفوا ما فيها من إعجاز... وقالوا إن هذا الكلام لا يمكن أن يقوله شخص عاش منذ آلاف السنين... إذن لابد أن هذا القرآن حق من عند الله، وأن قائله هو الله الخالق المبدع.

هذا ويلاحظ أن أحكام الدين (إفعل ولا تفعل) نزلت كاملة واضحة لا لبس فيها، ولا إضافة عليها، ولا تبديل ولا غموض، منهج الله كامل فسرته الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية، وشرح وفسر في عهد الرسول (ﷺ) تفسيراً كاملاً بحيث أصبح واضحاً لكل إنسان يريد أن يعبد الله، وأن يعيش في الأرض طبقاً لقوانين الله... (إفعل ولا تفعل) جاءت واضحة وكملت وفسرت في عهد الرسالة... وأصبح الحلال بينا والحرام بينا... والدين بينا... أما آيات الله في الكون، فنلاحظ أنها **لم تفسر تفسيراً كاملاً في عهد الرسول** (ﷺ) حتى **لا تكون ملزمة للمسلمين... لماذا؟...** لأن لها عطاء يتجدد في كل الأجيال... فقد تحدى القرآن العالم كله بالعلم، وكان

التحدي مطلقاً إلى يوم القيامة... وتحداهم أن يخلقوا شيئاً، وتحدي البشرية كلها إلى يوم القيامة بأن يخلقوا ذبابة ولو اجتمع له كل علماء العالم... والعجيب أن الإنسان قد وصل إلى القمر وسيصل إلى أبعد من ذلك... ولكنه عاجز عن أن يخلق جناح ذبابة حتى الآن، كما تحدى البشرية كلها أن تهرب من الموت كما في قوله تعالى ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ سورة النساء: ٧٨.

فالله (سبحانه وتعالى) يتحدى، مهما وصلتم إلى العلم وسكنتم في أبراج عالية (وهي التي بدأت تنتشر الآن في هذا العصر)، ومهما كانت محصنة، فلن تستطيعوا أن تنجوا من الموت.

كما تحدى الله العالم كله في القرآن بخمس مغيبات، كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَّ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ سورة لقمان: ٣٤. فقد تحدى الله بهذه المغيبات البشر جميعا في كل العصور حتى قيام الساعة.

وعموماً من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم :

١- النظم البديع المخالف لكل نظم معهود (في لسان العرب وفي غيره)، لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء، كما في قوله تعالى ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ سورة يس: ٦٩.

٢- الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

٣- الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، مثل قوله تعالى ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سورة الزمر: ٦٧، وقوله تعالى ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ سورة غافر: ١٦.

٤- التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته (في وضع كل كلمة وحرف في موضعه).

٥- الإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله من أي ما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يخطه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية في هرمها، وذلك ما سأله أهل الكتاب عنه، وتحدوه به من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر، وحال ذي القرنين وغيره، فجاءهم (وهو أمي من أمة أمية ليس لها بذلك علم) بما عرفوا من الكتب السالفة صحته فتحققوا صدقه.

٦- الوفاء بالوعد المدرك بالحس في العيان في كل ما وعد الله سبحانه وينقسم إلى:

أ - أخباره المطلقة: كوعده بنصر رسوله وإخراج الذين أخرجوه من وطنه.

ب - المنع من معارضته، والصرفة (حيث صرفهم الله عن معارضته) عند التحدي بمثل القرآن.

٧- الإخبار عن المغيبات في المستقبل (التي لا يطلع عليها إلا بالوحي)، ومنه ما وعد الله نبيه أنه سيظهر دينه على الأديان.

٨- ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام.

٩- الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي.

١٠- التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف كما في قوله تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ سورة النساء:٨٢.

هذا ومما يثير الإعجاب والدهشة أن جامعة هارفارد الأمريكية تصنف القرآن الكريم أفضل كتاب للعدالة في العالم، وذلك بعد دراسات علمية مطولة بحثت بشكل مكثف قواعد العدالة التي يحتويها القرآن الكريم، وحسب الموقع الرسمي للمجلس العالمي للمجتمعات المسلمة (مقره العاصمة الإماراتية أبو ظبي) وقد نشرت أخيراً، حيث استشهدت لجنة التصنيف ببعض آيات القرآن في التقييم النهائي، وأن الله وجه

البشرية من خلاله إلى الطريق الصحيح، وأن الإسلام ليس لديه مجال للظلم، بل يشتمل على التسامح واحترام الآخر.

..... وهكذا يظل القرآن الكريم صالحاً لكل زمان ومكان وكل عصر وأوان حتى قيام الساعة.... وستتوالى الاكتشافات التي تثبت ذلك والتي أشار إليها القرآن، وأنه حقاً وصدقاً تنزيل من عند الله الحكيم.

أهمية القرآن:

إن الله (سبحانه وتعالى) أرسل للإنسان الكثير من الكتب على رسله، لكل جيل ما يصلحه وما يتناسب معه ويحفظه، وكان آخر الكتب القرآن الكريم حيث يقول تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ٨٢.

ولفظ "من" ليس للتبعيض (أي أن بعضاً من القرآن هو الذي يشفي)، وإنما هذا اللفظ هو لبيان الجنس أي أن جنس القرآن (وهو ما بين أيدينا وفي صدورنا) هو شفاء، ولفظ الشفاء إنما ورد في الآية الكريمة والآيات المشابهة بمعناه العام الواضح، وهو البرء من المرض... كل مرض... وأي مرض وورد مع الشفاء الرحمة، وهي أساساً ما يلقاه الإنسان في آخرته عند الحساب، وما يلقاه كذلك من ربه من عون له في دنياه وأخذ بيده وتيسيره لأمره... أما الشفاء فهو مما يصيب الإنسان من أمراض في الدنيا... فالمرض من خصائص وصور الحياة الدنيا... ويؤكد هذا المعنى من عمومية القرآن الكريم (وعمومية الشفاء به) النصوص الخاصة بالشفاء مثل النص الكريم ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ فصلت: ٤٤.

فعلاوة على ما في القرآن من أسباب وسبل للشفاء (بما أمر به أو نهى عنه) فإن به الشفاء... فالشفاء بالقرآن هو أحد أسرار القرآن التي قد لا يصل الإنسان إليها... لأنها أعلى من طاقات تفكيره وقدرات بحثه واجتهاده، وأبعد عن مجالات وعيه وإدراكه ولا شك أن تأثيرات آيات القرآن الكريم عن المرض وأسبابه، وإزالته،

أسهل إذا ما قورنت بخشوع الجبل وتصدعه إذا ما نزلت عليه آياته وذلك بما يقرره قوله تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الحشر:٢١.

فهل تلا الإنسان مخلصاً، هذه الآيات أو قرأها عليه أحد المخلصين لله ولقرآنه وللإنسان (وبه أي مرض) ألا يتصدع هذا المرض ويتلاشى..؟؟[١].

إن أحدث الدراسات العلمية في علم ما وراء الطبيعة (أو ما فوق المادة أو ما يسمى بالميتافيزيقا)، فقد أثبتت أموراً من أعجب ما قد يتصور الإنسان... وهو أن لكل شيء في هذا الوجود أثره على الإنسان وعلى حالته... ولقد تكلموا عن أشعة غير مرئية (تخرج من عين الحاسد فتصيب من يحسده)، وأثبتوا أن الإنسان في حالاته إنما هو محصلة لعدة قوى وظروف (مالا يراه منها أو فيها أكثر مما يراه)... وهكذا ينهض الإنسان يوماً من نومه نشطاً سعيداً بلا سبب ظاهر، وفي يوم آخر ينعكس ذلك دون سبب واضح له.

ومن عجب أن العلم يقرر أن مجرد وجود شيء ما (قد لا يخطر على باله) هو الذي أشاع حوله هذه الموجات المضطربة من الإحساسات التي تسبب الضيق والتبرم... بل المرضى... بعكس شيء آخر قد يكون السبب في رفع معنويات الإنسان... وما يسعد هذا بالضرورة قد لا يسعد غيره... ألا ترى أن بعض المواد العالقة (كالرائحة التي قد لا نتبينها) تسبب أمراضاً ربوية عند البعض ولا تسبب شيئاً عند غيرهم...؟[٢].

كما أن الإنسان يرى في نفسه الأثر الواضح للموسيقى... وكلما اختلفت درجاتها وألحانها وأشكالها اختلفت حالة الإنسان (من رضا وسعادة وهدوء إلى انزعاج واضطراب)، وفي دراسته عن الأصوات ثبت أن الضوضاء (خصوصاً أكثر من ١١٠ ديسيبل) تسبب أمراضاً للإنسان، ومنها ما يدفع المريض إلى الانتحار...،

---

(١) القرآن دواء فيه وقاية وشفاء، عبد الرزاق نوفل.

(٢) القرآن والسنة وقاية وعلاج من الأمراض، للدكتور محمد السيد أرناؤوط، مركز آيات للطباعة، الزقازيق، ٢٠٠٥م، ص ص٢٤-٢٦.

ومنها ما يعينه على الشفاء (إذا كان مريضاً)... وإذا كان الأمر كذلك مع أي شيء... فكيف بالقرآن الكريم؟ وهو كلام الله، وهو الذي يقول عنه الحق والصدق واليقين والقطع فيه شفاء... إذ يتحقق به فعلاً وحتماً الشفاء...

كما أن جسم الإنسان قد يمرض ويشفى، ولا يحس به صاحبه (في حالة ارتفاع جهازه المناعي الذي يقاوم الأمراض) بينما غيره يصاب بأقل منه ويعالج فلا يشفى (في حالة ضعف جهازه المناعي)... ويعترف الطبيب (كل طبيب وأي طبيب) أنه يعالج... وأن الله وحده هو الشافي، وما من طبيب (أي طبيب) إلا وأسند الشفاء أولاً وأخيراً إلى الله وحده... وإلا ما مرض ومات الطبيب... وأن ما يقوم به الطبيب إنما هو محاولة لمساعدة الجسم فيما يقوم به تلقائياً بأمر الله وحده... فالطب والطبيب إنما هو أخذ بالأسباب التي أمرنا الله بها... فالقرآن الكريم عندما عمم الشورى فأمر بها في كل حالة كما في قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ آل عمران: ١٥٩.

ففي حالة المرض فإن الشورى تلزم الإنسان أن يتوجه إلى من يحسن له الرأي، وأن يرجع إلى أهل العلم في هذا الشأن (وهو الطبيب) كما في قوله تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ النحل: ٤٣.

ولذلك أمرنا الرسول (ﷺ) بالتداوي في أحاديث كثيرة مثل "لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله "عز وجل"، كما أمرنا الرسول بالتوجه إلى الطبيب المختص (الذي يعلم المرض وطرق علاجه)، كما في قوله "إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء علمه من علمه، وجهله من جهله".

وهكذا لابد من إرادة الله ومشيئته أولاً... ولابد للإنسان وهو يتوجه إلى الطبيب أو يتعاطى الدواء أن يتوكل على الله... فالله جل شأنه وهو الرحمن الرحيم بعباده، قد أمر بذلك كما في قوله تعالى ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران: ١٥٩.

ولعل أتم توكل على الله وأوضحه أن يلتزم بطاعة الله، وأن يتلو القرآن الكريم... فيتلوه المريض لنفسه، أو يتلوه له غيره... كما في قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ العنكبوت: ٥١.

فإن القرآن حقا فيه الكفاية... كل الكفاية... وفيه الشفاء والوقاية... كل الشفاء وكل الوقاية... الكفاية لجميع العالمين... (اكتفاء برب العالمين)... والشفاء والوقاية من أمراض الصدور (بما فيها من كفر وضلال)، وشفاء ووقاية النفوس من القلق والاضطراب، والملل والاكتئاب، وشفاء ووقاية العقل من الزيغ والارتياب... وشفاء ووقاية الجسم من العلل والآفات.

إن القرآن الكريم يعطي الهدوء الشامل للنفس القلقة المتعلقة بمتاع الدنيا وزينتها وغرورها، كما أن ترتيلات آيات الذكر الحكيم بخشوع سوف يجعل المؤمن على بصيرة من أمره (وبصفة خاصة عندما يتدبر المرء معاني تداول الأيام بين الناس كما في قوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ آل عمران: ١٤٠.

وأنها لو دامت لغيرك ما وصلت إليك... فالحياة ستتقلب حتما لا محالة بالخسران المبين (إلا لمن تمسك بالأسس الأربعة، وهي الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر)،... فالدنيا ليست كما يتصور الكثيرين مجرد ملاهي وسيمفونيات تعزف ليتلهى بها من يبحثون عن الحلول السهلة في معاناتهم... وإنما هي اختبار وبلاء وفتنة وكد وكدح، وأنه بعد ترتيل القرآن الكريم بصفاء سوف يصل المؤمن إلى الصواب، وهو أنه سيصبح رحيماً بنفسه... فلا يمكن أن يتمسك بمتاع زائل... ومن هنا ارتبط الشفاء بالرحمة... ومن الملاحظ أنه في حالة المعاناة النفسية، أن الذي يعاني يغيب عنه مفهوم الرحمة لذاته، وتتسلط عليه الهواجس والأفكار التي تصبح إدماناً له... فيفتعل جحيما لنفسه لم تكن بحاجة إليه.

كما اهتم القرآن الخالد في العلاج النفسي بإزالة الموبقات الضارة، (ونعني بها خلفيات الظن والشك والغيبة والتوجس)، فهذه أمور كثيراً ما تكون مدعاة للتأزم والقلق... لذلك أوصانا بأن ندفع بالتي هي أحسن، وأن نتجاوز عن هذه المضار

كما في قوله تعالى ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ فصلت: ٣٤.

وبالتالي فإن الدفع بالأحسن يؤدي إلى الفوز العظيم (حيث يتحول العدو إلى صديق، ويسود التآلف والتحاب بين الناس، والالتفات حول بعضهم البعض)... ومن هنا يأتي المثل والقدوة الخالدة لنا جميعا في حُسن الأخلاق ونقاء النفس،... ونعني بذلك رسول الله (ﷺ) الذي كان خلقه القرآن (فقد كان قرآنا يمشي على الأرض). فالمعيار إذن للعلاج هو انشراح الصدر للإسلام وبالإسلام، والتعلق بحب الله ورسوله،... وهذا هو الذي يريده الله... فالله (سبحانه وتعالى) رحيم بعباده دال على الخير وشارح لصدر المؤمن، أما هذا الذي جعل صدره ضيقاً حرجا (نتيجة لتعلقه بالدنيا ولذاتها وما متاعها إلا قليل) فإنه لم يرد من خالقه سبحانه (بعد أن تنكر لهداه وإرشاده) إلا أن يضل، فقد أراد هذا الإنسان الضلالة لنفسه بهذا التنكر، فعدالة الله أعدل العادلين... وإلا فكيف من يريد لنفسه النجاة أن يضله الله؟؟ ومن يريد لنفسه الضلالة ينجيه الله؟... فإرادة الله سبحانه أسمى وأقوى من أن توصف بالمجازفة والعفوية... فالله عز وجل هو العادل الأول والأخير في أسبابه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف: ٤٩.

ولم يغفل الخالق العظيم والرحيم عباده... فمن يتعلق بتقواه ينير له السبيل... فلم يلقه في اليم مكتوفاً ويقول له إياك أن تبتل بالماء... وإنما انتشله وأنقذه وأنجاه من الغرق... ومصداقاً لذلك نرى العديد من آيات القرآن الكريم تحدثنا عن ذلك، مما يجعلنا ننحني إجلالاً لهذا القرآن الخالد المرشد للنفس من الضياع... فإن الطريق أمام العلوم الوضعية (وبكل ما تقدم من مجهودات) مازال طويلاً مهما تعمقت وسائلها، وتعددت لاحتواء المعاناة النفسية في عصر المعاناة بقدر ما تتسع الظاهرة وتنتشر، وكثيراً ما تأخذ طابعاً وبائياً... أما القرآن الكريم فإنه يتعامل وفي كل العصور والأمكنة مع هذا الإنسان (الذي جاءت الرسالة الإسلامية الخاتمة لإنقاذه)

ليبصر كل من تمسك به إيماناً به بالطريق السوي وينير له المسار، وذلك حينما يبصره بحقيقة نفسه، وحقيقة الدنيا، وعليه أن يفهم ذلك فهما واعياً، وبذلك يتقبل هذا الأمر ويتعامل مع نفسه دون سلبية أو تطرف... فعليه أن يتعامل مع نفسه في هذه الدنيا بصدر رحب منشرح وبنور الإسلام وهدي القرآن... ومن هنا فإنه يحق للمسلم أن يفخر بدستوره العظيم، وعليه أن يلتزم ويتمسك به، كما قال رسولنا الكريم "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي".

ولقد وصل العلم في العصر الحديث من تقدم في كافة نواحي الحياة وشئونها... وبالرغم من كل هذه المحاولات الرامية إلى احتواء مشاكل الإنسان والتخفيف من حدة القلق النفسي في عصر يتفجر فيه كل يوم المزيد من معاناة الإنسان... وبالرغم من حصوله على كل أسباب الرفاهية... إلا أن هذه المحاولات العلمية لم تستطع أن تتوصل إلى حل لإعادة الهدوء والسكينة، والطمأنينة لنفس الإنسان، أو تحميه من القلق والتوتر والكبت، والانتحار أحياناً... وأصبحت سكينة النفس أملاً ينشده الجميع في عالمنا بعدما ساد العالم الخوف والقلق والانفعالات المختلفة، وتوتر الأعصاب وغيرها من هموم العصر... هذا ويشمل علاج الإنسان (سواء العلاج النفسي والروحي أو الجسمي) في القرآن والسنة على الوسائل التالية:

١- ذكر الله تعالى كل شيء، والتوكل عليه، وحُسن العمل والأداء الجيد، ومراقبة الله كأنه يراك، كما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨. واللجوء إلى من بيده مقاليد الأمور، وهو الله تعالى القادر على كل شيء، وقال الرسول (ﷺ) "ذكر الله شفاء القلوب.

٢- الصدقة: حيث يقول تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ التوبة: ١٠٣.

٣- إقامة الصلاة حيث يقول تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ النساء: ١٠٣، فأداء الصلاة خمس مرات كل يوم خير وسيلة لجني فوائد التمرينات الرياضية وعلاج كثير من الأمراض (مثل أمراض دوالي الساقين والظهر وغيره).

٤- الإيمان بالقضاء والقدر، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن النفع من الله وحده.

٥- النشأة الإسلامية، والسلوك المستمد من الكتاب والسنة، وسيرة السلف الصالح، وترك الاهتمام بالماديات، وتغذية الروح بمعاني الفضيلة، والإيثار والتعاون وغيره.

٦- الطب النبوي في علاج الألم والمرض النفسي والجسدي، وذلك بعلاج المرض من المرضى بتطبيب نفوسهم وتقوية قلوبهم، وعلاج القلق الذي قد ينتابهم.

٧- علاج الألم النفسي والجسمي بالصبر كما في قوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ البقرة: ١٥٥، ١٥٦.

٨- العلاج النفسي والروحي بالقرآن الكريم كما في قوله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ الإسراء: ٨٢.

٩- الوقاية والشفاء بالدعاء بالقرآن والسنة، وهناك طرق كثيرة للدعاء منها الاستغفار والدعاء بالقرآن والسنة كما في قول الرسول (ﷺ): "ليس شيء أكرم على الله من الدعاء"، وقوله (ﷺ): "الدعاء مخ العبادة"، وقوله: "إسألوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج".

ومن تلك الوسائل، نرى أن خير علاج للأمراض النفسية والجسمية هو ما جاء به الرسول (ﷺ)، وأنه علاج يستأصل المرض من جذوره، وليس هناك من يعرف الداء والدواء سوى خالق الروح والجسد وخالق كل شيء... أما من يلجأون إلى العلاج بالمهدئات وغيرها من الأدوية الكيماوية (المحضرة معمليا والمخلقة صناعياً)، فإنهم يدخلون في دائرة مفرغة، وتظهر عليهم أمراض أخرى وأعراض جانبية وأضرار صحية (خصوصاً عند تناولها لفترات طويلة)... فجميع الأدوية التي

صنعها الإنسان سلاح ذو حدين... ولها أضرار كثيرة (مكتوبة في النشرة المرفقة لتلك الأدوية وضرورة استشارة الطبيب المختص قبل تناولها، واستخدامها طبقاً للتعليمات)... وقد تنجح تلك الأدوية في العلاج في بعض الحالات، وقد ينام المرضى ويهدأون بعض الوقت... ولكنهم لا يلبثون أن يتعودوا عليها ويدمنونها، ويعودوا إلى الانطواء والصراعات النفسية، والشكوى من الآلام وتفاقم المرضى... وعموماً على المؤمن أن يأخذ بالأسباب وسبل العلاج الممكنة... ولذلك فعلى المؤمن أن يعتبر أن البلاء اختباراً لا عقاباً له، واعتبار أن المال والصحة والعمر أمانة ووديعة يجب أن يقوم الإنسان بحقها.

وإذا كان بعض الناس يظنون أن الإعجاز العلمي محصوراً في دائرة العلوم التجريبية وحدها (كالطبيعة والكيمياء والطب والزراعة وغيرهم)، فهذا تحجير وتضييق، لأن الإعجاز القرآني يتضمن كل حقائق الكتاب، وفيه أصول راسخة تمت إلى التاريخ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والسياسة والاقتصاد وخلافه... ولابد أن يكون البحث العلمي شاملاً للدراسات الإنسانية، كما يشمل ما تمخضت عنه الدراسات التجريبية من حقائق.

فالعلوم جميعها تتصل بالدين، والعلم الذي عناه القرآن يشمل جميع المعارف الإنسانية الثابتة في كل فرع من الفروع، فالعلم في الإسلام أشمل وأعم من علوم الفقه والحديث والتوحيد، لأنه علم الهداية الربانية التي تشمل مختلف العلوم الطبيعية والكونية، فضلاً عن العلوم الإنسانية (من نفسية، واجتماعية، وتشريعية) حيث يقول تعالى ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ سبأ: ٦.

وقوله تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ النحل: ٨٩.

ونحن في مجال الترحيب بالدراسات العلمية، وإيضاح ما تضمنه الكتاب من حقائق العلم لا تنكر حرمة التخصص العلمي، بأن ندعو المفسر الحديث إلى دراسة شتى الاتجاهات العلمية... ولكننا ندفع كل متخصص إلى إيضاح الحقائق الثابتة في مجاله الخاص... فالطبيب، والمهندس، والكيميائي، والفلكي، ومن تخصص في

فرع من فروع المعرفة له (بعد أن يصل إلى الحقائق الثابتة في مجاله الخاص) أن يجمع الآيات المتصلة بموضوعه إذا أنس في نفسه القدرة على فهم النص القرآني واستنباط معانيه... فإذا اتجه كل متخصص إلى ما يقع في إمكانه من الشرح والتفسير فإن دائرة علمية قرآنية تتجمع من شتى التخصصات فتضيف الجديد في كل عصر من العصور... وهكذا يصبح القرآن صالحاً لكل زمان ومكان إلى قيام الساعة.

كلمة في الاستعاذة من الشيطان:

طلب الله (سبحانه وتعالى) من كل مؤمن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم قبل أن يقرأ القرآن، فالاستعاذة بالله هي أول التقاء بين المؤمن، وبين قراءته للقرآن الكريم، حيث يقول تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْت الْقُرْآن فَاسْتَعِذْ بِاَللَّهِ مِنْ الشَّيْطَان الرَّجِيم﴾ النحل: ٩٨.

ذلك لأن كل مخلوق إذا اتجه إلى خالقه واستعاذ به يكون هو الأقوى رغم ضعفه، وهو الغالب رغم عدم قدرته، لأنك جعلت الله سبحانه وتعالى في جانبك، ونحن حين نقرأ القرآن لابد أن نصفي جهاز استقبالنا لحسن استقبال كلام الله بالاستعانة بقوة وقدرة الله، ولذلك فإن الاستعاذة من الشيطان الرجيم إنما تجعل الله سبحانه وتعالى يقوي فقط الضعف فيك، فلا يستطيع الشيطان أن ينفذ إليك وأنت تقرأ القرآن ليضع في رأسك هواجس تلهيك عن هذه القراءة، وإذا صفيت نفسك لاستقبال القرآن... فإن آياته الكريمة تمس قلبك ونفسك وتكون لك هدى ونورا.

ومعنى عند بدء التلاوة أن يقول قارئ القرآن "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" أي أستجير بالله وألتجئ إلى رحمته أو ألتصق بفضله لأني موقن ومعترف بعجزي عن جلب ما ينفعني ودفع ما يضرني، فالله وحده هو القادر على جلب المنافع ودفع المضار، وقد أمرنا مسبب الأسباب بأن نستعيذ به فلنستعيذ دفعاً للوساوس والهواجس.

وإذا كان الله (سبحانه وتعالى) هو الذي خلق الشيطان وهو الذي أعطاه القدرة على أن يوسوس للإنسان لماذا؟ لأنه لو أن الطاعة وجدت بدون مقاوم لا تظهر

حرارة الإيمان، ولا قوة الإقبال على التكليف، وإنما عندما يوجد إغراء وإلحاح في الإغراء... وأنت متمسك بالطاعة... فذلك دليل على قوة الإيمان،... تماماً كما أنك لا تعرف قوة أمانة موظف إلا إذا أغريته برشوة... فلو أنه لو لم يتعرض لهذا الإغراء... لن تختبر أمانته أبدا، ولكن إذا تعرض للإغراء... وتمسك بأمانته ونزاهته فهذه هي الأمانة.

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يمنع عنا هذه الوسوسة، ولقد قالت رابعة العدوية "اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمني منها، وإن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك فأرسلني فيها، أنا أعبدك لأنك تستحق أن تعبد".

ولذا فإن كنت تعمل للذات الإلهية وليس للعطاءات فإنك تكون في أُنس الله يوم القيامة... والذي يعمل للجنة سيأخذها، والذي يعمل لما هو فوق الجنة ليأخذه بعون الله وهو الأنس بلقاء الله ورؤيته.

كما حكى القرآن الكريم الاستعاذة عن بعض النبيين والصديقين.

فقال نوح (عليه السلام) ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ هود: ٤٧.

وقال يوسف ﴿مَعَاذَ اللهَّ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ يوسف: ٢٣.

وقال موسى (عليه السلام) ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ غافر: ٢٧.

وقالت امرأة عمران ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ آل عمران: ٣٦.

كما أمر خاتم النبيين بها في قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ الفلق: ١.

وقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ...﴾ الناس: ١.

وعن النبي (ﷺ) أنه كان إذا قام من الليل استفتح صلاته بالتكبير ثم يقول "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرحيم، من همزه ونفخه ونفثه".

هذا ومن دقة القرآن الكريم يوجد الخماسيات التي جعلها الله تعالى في كتابه في افتتاحيات السور لتسهيل معرفة بداية السور في القرآن، وتشمل الفئات السبع التالية:

١- خمس سور مفتتحة بالتحميد هي (الفاتحة – الأنعام – الكهف – سبأ – فاطر)، وكلها مكية.

٢- خمس سور مفتتحة بالتسبيح هي (الحديد – الحشر – الصف – الجمعة – التغابن).

٣- خمس سور مفتتحة بألف لام راء (الر) وهي (يونس – هود – يوسف – إبراهيم – الحجر)، وكلها مكية.

٤- خمس سور مفتتحة بالنداء هي (النساء – المائدة – الحج – الحجرات – الممتحنة)، وكلها مدنية.

٥- خمس سور مفتتحة بنداء الرسول (ﷺ) وهي (الأحزاب – الطلاق – التحريم – المزمل – المدثر)، وكلها مكية.

٦- خمس سور مفتتحة بالاستفهام؟ وهي (الإنسان – الغاشية – الشرح – الفيل – الماعون) وكلها مكية.

٧- خمس سور مفتتحة بالأمر وهي (الجن – الكافرون – الإخلاص – الفلق – الناس) وكلها مكية.

هذا وقد نزل جبريل بالقرآن فأصبح أفضل الملائكة، ونزل القرآن على محمد (ﷺ) فصار سيد الخلق.

وجاء القرآن إلى أمة محمد فأصبحت خير أمة.

ونزل القرآن في شهر رمضان فأصبح خير شهر.

ونزل القرآن في ليلة القدر فأصبحت خير من ألف شهر.

فماذا لو نزل القرآن في قلوبنا؟؟؟

سورة الفاتحة

تتألف سورة الفاتحة من سبع آيات (بها ٢٩ كلمة و ١٤٣ حرفاً)، هي البسملة وست آيات أخرى، وهي سورة مكية نزلت في مكة قبل الهجرة، وهي أول سورة نزلت بتمامها، وأول القرآن في الترتيب لا في النزول، وبها نستفتح القراءة في الصلوات، ولا صلاة لمن لم يقرأ فاتحة الكتاب، ولها عدة أسماء اشتهر منها:

أ - **الفاتحة:** لافتتاح القرآن بها.

ب - **أم الكتاب:** أي أم القرآن، لاشتمالها على مقاصد القرآن، من الثناء على الله، والتعبد بأمره ونهيه، وبيان وعده ووعيده، ولأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف وفي الصلاة.

جـ - **السبع المثاني:** لأن آياتها سبع تثنى في الصلاة (أي تعاد فتقرأ في كل ركعة).

د - **سورة الحمد:** لأن أولها لفظ الحمد.

هـ - **الأساس:** لأنها أصل القرآن وأول سورة فيه، وتشتمل على مقاصده على سبيل الإجمال، ثم فصل القرآن ما أجملته بعد بيان هذا.

و - **أم القرآن:** لأن كلماتها تشع بأصول المعاني التي يهدف القرآن إلى تقريرها (وهي الإيمان بالله واليوم الآخر وبملائكته وكتبه ورسله).

ز - كما تسمى **بالشافية:** لقول الرسول "فاتحة الكتاب شفاء من كل سم".

ح - كما تسمى **بالوافية، والكافية، والحمد** وخلافه، وقد عددها العلامة القرطبي وذكر أن لهذه السورة إثنى عشر اسماً منها الكافية (لأنها تكفي عما عداها، ولا يكفي ما سواها عنها)، وسورة الصلاة، والكنز وغيره.

فضل سورة الفاتحة:

١- قال رسول الله (ﷺ) "والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته

"رواه أحمد في المسند" وهذا الحديث يشير إلى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ الحجر: ٨٧.

٢- في صحيح البخاري أن النبي (ﷺ) قال لأبي سعيد بن المعلى "لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن "الحمد لله رب العالمين"، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته".

٣- كما تعتبر سورة الفاتحة (برغم قصرها ووجازتها) إلا أنها قد حوت معاني القرآن العظيم، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال... فهي كالأم بالنسبة لبقية السور الكريمة، ولهذا تسمى "أم الكتاب"، لأنها جمعت مقاصده الأساسية.

وعموماً فقد قال رسول الله (ﷺ) عن ثواب قراءة القرآن الكريم "من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف"، رواه الترمذي في أبواب فضائل القرآن.

فحينما نقرأ " ألم " ونحن لا نفهم معناها، نعرف أن ثواب القرآن على كل حرف نقرؤه حسنة (سواء فهمناه أم لم نفهمه)، والحسنة بعشر أمثالها، فالله يضاعف الثواب لمن يشاء... وقد يضع الله (سبحانه وتعالى) من أسراره في هذه الحروف التي لا نفهمها ثواباً وأجراً لا نعرفه... فالله يرزق ما يشاء بغير حساب.

البسملة" بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ":

افتتح الله (سبحانه وتعالى) بهذه الآية سورة الفاتحة وكل سورة من سور القرآن (ماعدا سورة التوبة) ليرشد المسلمين إلى أن يبدأوا أعمالهم وأقوالهم باسم الله الرحمن الرحيم، التماساً لمعونته وتوفيقه، ومخالفة للوثنيين الذين يبدأون أعمالهم بأسماء آلهتهم أو طواغينهم فيقولون بسم اللات، أو باسم العزى وخلافه.

بِسْمِ: الاسم هو اللفظ الدال على ذات كأحمد أو معنى كدين وخلق، وقيل مشتقة من السمو وهو العلو والرفعة.

اللَّـهِ: علم على الذات العلية المعبود بالحق، ولم يطلق على غيره.

الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ: كلاهما مشتق من الرحمة، فالرحمن هو الذي وسعت رحمته كل شيء (ولفظه خاص بالله تعالى)، والرحيم الثابت له صفة الرحمة على طريق الدوام.

والمعنـى: "بسم الله الرحمن الرحيم" أي اقرأ أو أتلو متبركاً باسم الله الرحمن الرحيم، وكان العرب (قبل الإسلام) يبدأون أعمالهم متبركين باسم آلهتهم، وقد افتتح الله عز وجل كتابه الكريم بالبسملة إرشاداً لعباده أن يفتتحوا أعمالهم بها، وقد ورد في هذا المعنى الحديث "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر" أي ناقص وغير كامل وليس فيه بركة... ولذلك يجب التسمية قبل بداية أي عمل، كما أنه عند التسمية قبل تناول الطعام يحدث البركة في الطعام ويساعد على هضم الطعام وامتصاصه واستفادة الجسم منه، بالإضافة إلى أن التسمية في حد ذاتها قبل الطعام تساعد على تنشيط جهاز المناعة في جسم الإنسان وتحفيزه لمقاومة أي مواد ضارة موجودة في ذلك الطعام أو الشراب (سواء ميكروبات أو مواد سامة أو خلافه)، ورفع جهاز المناعة لحالة الطوارئ للتخلص منها إلى خارج الجسم (سواء عن طريق القيء أو الإسهال أو بالبول أو خلافه) وذلك بقدر الإمكان حتى لا تؤذي الجسم، ومثال ذلك فإن الشخص المدخن للسجائر جهاز المناعة الخاص به متعود على دخان السجائر ويحاول بقدر الإمكان التخلص من آثاره الضارة وهو متحفز لذلك، بينما غير المدخن جهاز المناعة الخاص به غير متعود على الدخان للسجائر وغير مستعد له فيصاب بالاختناق والتعب من الدخان إذا جلس بجوار شخص مدخن، مع العلم بأن كمية ٥٠ مللي من النيكوتين (الموجود في نحو ٢٥ سيجارة) كفيلة بقتل جمل عند حقنها في الوريد للجمل خلال نحو ساعتين فقط.

هذا وكل شيء في الكون يتم باسم الله وبإذن الله تعالى... فأنت حين تبدأ كل شيء باسم الله، كأنك تجعل الله في جانبك يعينك... ومن رحمة الله (سبحانه وتعالى) أنه علمنا أن نبدأ كل شيء باسم الله، لأن الله هو الاسم الجامع لصفات الكمال سبحانه وتعالى (مثل الرزاق، والقادر، والنافع، والقوي، وغيره من الصفات)، والإنسان المؤمن يبدأ كل عمل وفي باله الله، بينما غير المؤمن لا يبدأ عمله بسم

الله... وكلاهما يأخذ من الدنيا لأن الله رب الجميع، وله عطاء ربوبية لكل خلقه الذين استدعاهم للحياة... ولكن الدنيا ليست هي الحياة الحقيقية للإنسان... بل الحياة الحقيقية هي الآخرة... فالذي في باله الدنيا وحدها يأخذ بقدر عطاء الربوبية (بقدر عطاء الله في الدنيا فقط)، والذي في باله الله يأخذ بقدر عطاء الله له في الدنيا والآخرة.

وحينما تبدأ العمل بدون ذكر "بسم الله" قد يصادفك الغرور والطغيان بأنك الذي سخرت ما في الكون ليخدمك وينفعل لك، فليس لك عليه جزاء في الآخرة فتكون قد أخذت عطاءه في الدنيا وقطعت عطاءه في الآخرة... ولا تقل أنني أستحي أن أبدأ بسم الله لأنني عصيته... فالله سبحانه وتعالى يطلب من كل عاصي أن يعود إلى حظيرة الإيمان، وهو رحمن رحيم... فإذا قلت كيف أقول بسم الله وقد وقعت في معصية أمس... نقول لك قل بسم الله الرحمن الرحيم فرحمة الله تسع كل ذنوب خلقه... وهو سبحانه وتعالى الذي يغفر الذنوب جميعاً... والرحمة والرحمن والرحيم مشتق منها الرحم (الذي هو مكان الجنين في بطن أمه)، هذا المكان الذي يأتيه فيه الرزق بلا حول ولا قوة وحنو الأم على ابنها وحنانها عليه وتجاوزها عن سيئاته وفرحتها بعودته إليها، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى في حديث قدسي "أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها إسما من إسمي فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته"... ولذلك فما دام الله رحماناً ورحيماً لا تغلق أبواب الرحمة أبداً... فسبحانه رحمن الدنيا في الدنيا لكثرة عدد الذين يشملهم الله برحمته (سواء المؤمن أو العاصي أو الكافر)، ولكن في الآخرة الله رحيم بالمؤمنين فقط بكثرة النعم والخلود في الجنة.

وقال علي بن أبي طالب "بسم الله شفاء من كل دواء، وعون على كل دواء، وأما الرحمن فهو عون لكل من آمن به، والرحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

وقال الرسول (ﷺ) في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم "أما الباء فبلاء الله وروحه ونضرته وبهاؤه) وأما السين فسناء الله، وأما الميم فملك الله، وأما الله فلا إله غيره،

أما الرحمن فالعاطف على البر والفاجر من خلقه، وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة"[١].

وقيل: إن كل حرف هو افتتاح اسم من أسمائه سبحانه وتعالى، فالباء مفتاح اسمه بصير، والسين مفتاح اسمه سميع، والميم مفتاح اسمه مليك، والألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والهاء مفتاح اسمه هادي، والراء مفتاح اسمه رازق، والحاء مفتاح اسمه حليم، والنون مفتاح اسمه نور،... ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند افتتاح كل شيء.

الْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الْحَمْدُ: لغة هو المدح على فعل حسن صدر عن فاعله باختياره سواء أأسداه إلى الحامد أم إلى غيره، فالحمد هو الثناء بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل مقروناً بالمحبة، وهو نقيض الذم وأعم من الشكر، لأن الشكر يكون مقابل النعمة بخلاف الحمد.

الله: اسم علم للذات المقدسة لا يشاركه فيه غيره، وهو أكبر أسمائه وأجمعها، وهو اسم للموجود الحق، الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو سبحانه وتعالى.

رَبِّ: هو المالك أو السيد أو المربي، وهو بهذه المعاني كلها صادق على الله سبحانه، فهو المالك لجميع ما عداه وسيده، ومربيه، يسوسه ويرعى شئونه ويدبر أمره.

الْعَالَمِينَ: جمع عالم (بفتح اللام)، ويراد به جميع المخلوقات والموجودات، وهو يشمل الإنس والجن والملائكة والشياطين، كما يشمل عوالم الكائنات الحية (مثل عالم الإنسان وعالم الحيوان، وعالم النبات).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، المجلد الأول، دار الشام للتراث، بيروت، لبنان، ص:١٠٧.

قال **الإمام الطبري في تفسيره**[1]: معنى (الحمد لله) أي الشكر خالصاً لله (جل ثناؤه) دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما يرى من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم لذلك عليه، ومع ما نبههم عليه، ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك.

بل أن كل شيء في هذا الكون يقتضي الحمد، ومع ذلك فإن الإنسان يمتدح الوجود وينسى الموجود... فأنت عندما ترى زهرة جميلة تمتدح هذا الخلق... فتقول زهرة جميلة ما أجملها... ولكن الزهرة (المخلوقة) الذي امتدحتها، لم تعطي صفة الجمال لنفسها... ولكن الخالق هو الذي وضع الجمال فيها... وكل شيء في هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه، وإنما وضع الجمال فيه هو **الله (سبحانه وتعالى)**، فلا نخلط ونمدح المخلوق وننسى الخالق... بل قل الحمد لله الذي أوجد في هذا الكون ما يذكرنا بعظمة الخالق ودقة الخلق.

كما أن منهم الله (سبحانه وتعالى) يقتضي منا الحمد... لأن الله أنزل منهجه ليرينا طريق الخير ويبعدنا عن طريق الشر، وأرسل لنا رسله ليقولوا لنا إن الذي خلق هذا الكون وخلقنا هو الله (تبارك وتعالى)، وهذا يستوجب الحمد[2].

كما أن منهج الله بين لنا ماذا يريد الحق منا وكيف نعبده وهذا يستوجب الحمد.

إذن فشريعة الله (شريعة الحق وقول الحق وقضاء الحق) هو من الله، أما تشريعات الناس فلها تميز بعضاً عن بعض... وتأخذ حقوق بعض لتعطيها للآخرين، لذلك نجد في كل منهج بشري ظلماً بشرياً، فالدول الرأسمالية فإن أصحاب رأس المال يأخذون كل الخير... ولكن الله (سبحانه وتعالى) حين نزل لنا المنهج

---

(١) جامع البيان عن تأويل أي القرآن، للإمام الطبري.

(٢) تفسير الشعراوي (خواطر الشيخ محمد متولي الشعراوي حول القرآن الكريم)، المجلد الأول، أخبار اليوم، ١٩٩١م، ص: ٥٤.

قضى بالعدل بين الناس، وأعطى كل ذي حق حقه، وعلمنا كيف تستقيم الحياة على الأرض عندما تكون بعيدة عن الهوى البشري، خاضعة لعدل الله... وهذا يستوجب الحمد أيضاً.

إضافة لذلك فإن الحق (سبحانه وتعالى) يستحق منا الحمد لأنه لا يأخذ منا ولكن يعطينا، فالبشر في كل عصر يحاولون استغلال البشر... (لأنهم يطمعون لما في أيديهم من ثروات وأموال)، ولكن الله (سبحانه وتعالى) لا يحتاج إلى ما في أيدينا... إنه يعطينا ولا يأخذ منا... وعنده خزائن كل شيء كما في قوله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ الحجر: ٢١.

فالله (سبحانه وتعالى دائم العطاء لخلقه) والخلق يأخذون دائماً من نعم الله، فكأن العبودية لك تعطيك ولا تأخذ منك... وهذا يستوجب الحمد.

كما أن الله (سبحانه وتعالى) في عطائه يجب أن يطلب منه الإنسان، وأن يدعوه، وأن يستعين به، وهذا يوجب الحمد (لأنه يقينا الذل في الدنيا)... فأنت إن طلبت شيئاً من صاحب نفوذ، فلابد لك أن يحدد موعداً أو وقتاً للحديث معك ومدة المقابلة... وقد يضيق بك فيقف لينهي اللقاء... ولكن الله (سبحانه وتعالى) بابه مفتوح دائماً في كل وقت وحين... فأنت بين يديه عندما تريد وترفع يديك إلى السماء وتدعو وقتما تحب وتسأل الله ما تشاء فيعطيك ما تريده (إن كان خيراً لك)، ويمنع عنك ما تريده (إن كان شراً لك).

لذا عندما نقول "الحمد لله" فنحن نعبر عن انفعالات متعددة... (هي في مجموعها تحمل العبودية، والحب، والثناء، والشكر، والعرفان)... وكثير من الانفعالات التي تملأ النفس عندما نقول "الحمد لله" كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعطائه... هذه الانفعالات تأتي من النفس وتستقر في القلب... ثم تفيض من الجوارح على الكون كله... فالحمد ليس ألفاظاً تردد باللسان، ولكنها تمر أولاً على العقل ليعي معنى النعم... ثم بعد ذلك تستقر في القلب فينفعل بها... وتنتقل إلى الجوارح فأقوم وأصلي لله شاكراً ويهتز جسدي كله وتفيض الدمعة من عيني... وينتقل هذا الانفعال كله إلى من حولي.

كما أن الحمد لله تعطينا مزيداً من نعم الله مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إبراهيم: ٧.

وهكذا نعرف أن الشكر على النعمة يعطينا مزيداً من النعمة... فنشكر عليها فتعطينا المزيد... وهكذا يظل الحمد دائماً والنعمة دائمة... وأننا لو استعرضنا حياتنا كلها نجد أن كل حركة فيها تقتضي الحمد... بل وفي كل نفس تتنفسه يستوجب الحمد... فعندما تنام ويأخذ الله (سبحانه وتعالى) أرواحنا، ثم يردها إلينا (عندما نستيقظ)، فإن هذا يوجب الحمد... وإذا قمنا من السرير فالله (سبحانه وتعالى) هو الذي يعطينا القدرة على الحركة (ولولا عطاؤه ما استطعنا أن نقوم)... وهذا يستوجب الحمد... وإذا تناولنا إفطارنا فالله هيأ لنا طعاماً من فضله، (فهو الذي خلقه، وهو الذي أنبته، وهو الذي رزقنا به)... وهذا يستوجب الحمد... فإذا نزلنا إلى الطريق يسر لنا ما ينقلنا إلى مقر أعمالنا وسخره لنا (سواء كنا نملك سيارة أو نستخدم وسال المواصلات)... فله الحمد... وإذا تحدثنا مع الناس فالله (سبحانه وتعالى) هو الذي أعطى ألسنتنا القدرة على النطق، ولو شاء لجعلها خرساء لا تنطق... وهذا يستوجب الحمد، فإذا ذهبنا إلى أعمالنا، فالله يسر لنا عملاً نرزق منه لنأكل حلالاً وهذا يستوجب الحمد... وإذا عدنا إلى بيوتنا فالله سخر لنا زوجاتنا ورزقنا بأولادنا، وهذا يستوجب الحمد... إذن فكل حركة حياة في الدنيا من الإنسان تستوجب الحمد... ولهذا لابد أن يكون الإنسان **حامداً دائماً**... بل إن الإنسان يجب أن يحمد الله على أي مكروه أصابه لأنه قد يكون الشيء الذي تعتبره شراً هو عين الخير لك ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ النساء: ١٩.

إذن فأنت تحمد الله لأن قضاءه خير... سواء أحببت القضاء أو كرهته فإنه خير لك، لأنك لا تعلم والله (سبحانه وتعالى) يعلم، وهكذا من موجبات الحمد أن تقول الحمد لله على كل ما يحدث لك في دنياك... بل وفي آخرتك أيضاً عندما تدخل الجنة وتستمتع بنعيمها[١].

---

(١) جامع البيان عن تأويل أي القرآن، للإمام الطبري.

الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيم

الرَّحْمَـٰنِ: أي المفيض للنعم، والمحسن على عباده، صاحب الرحمة الدائمة ومصدرها، وهو الرحيم: أي أن لله صفة ثابتة دائمة هي الرحمة ملازمة لذاته العلية، يكون أثرها الإحسان الدائم.

وذكر الـرَّحِيمِ بعد الرحمن كالبرهان على أنه يفيض الرحمة على عباده دائماً لثبوت تلك الصفة له على طريق الدوام والاستمرار، فهو الذي وسعت رحمته كل شيء، وعم فضله جميع الأنام، بما أنعم على عباده من الخلق والرزق والهداية إلى سعادة الدارين، فهو الرب الجليل عظيم الرحمة دائم الإحسان.

مَالِكِ يَوْم الدِّينِ

مَالِكِ: اسم فاعل من الملك.

الدِّينِ: الحساب أو الجزاء أو المداينة.

أي هو سبحانه المالك للحساب والجزاء، والمتصرف في يوم الدين تصرف المالك في ملكه.

فإذا كانت كل نعم الله تستحق الحمد، فإن (مالك يوم الدين) تستحق الحمد الكبير... لأنه لو لم يوجد يوم للحساب، لنجا الذي ملأ الدنيا شروراً دون أن يجازى على ما فعل، ولكان الذي التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من متع دنيوية كثيرة (إرضاء لله) قد شقي في الحياة الدنيا... ولكن لأن الله (تبارك وتعالى) هو "مالك يوم الدين"، فقد أعطى الاتزان للوجود كله... وهذه الملكية ليوم الدين هي التي حمت الضعيف والمظلوم وأبقت الحق في كون الله... فالذي منع الدنيا أن تتحول إلى غابة (يفتك فيها القوي بالضعيف والظالم بالمظلوم) هو أن هناك آخرة وحسابا، وأن الله (سبحانه وتعالى) هو الذي سيحاسب خلقه.

والإنسان المستقيم (استقامته تنفع غيره)... لأنه يخشى الله ويعطي كل ذي حق حقه ويعفو ويسامح... إذن كل من حوله قد استفاد من خلقه الكريم ومن وقوفه مع الحق والعدل، أما الإنسان العاصي فيشقى به المجتمع لأنه لا أحد يسلم من شره ولا أحد إلا يصيبه ظلمه، ولذلك فإن "مالك يوم الدين" هي الميزان... فتعرف أن الذي يفسد في الأرض تنتظره الآخرة... ولن يفلت من عقاب الله فتطمئن اطمئناناً كاملاً إلى أن عدل الله سينال كل ظالم فتستقيم الحياة بالتالي.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

نَعْبُدُ: نذل ونخضع ونستكين، والعبادة هي أقصى غاية الخضوع والتذلل، ولذلك لم يستعمل هذا المعنى في الخضوع إلا لله تعالى، لأنه مولى أعظم النعم حقيقياً بأقصى غاية الخضوع.

نَسْتَعِينُ: الاستعانة طلب المعونة من الله، أي نخصك بطلب المعونة دون سواك.

والمعنى: أي نخصك يا ألله بالعبادة، ونخصك بطلب الإعانة، فلا نعبد أحدا سواك، لك وحدك نذل ونخضع ونستكين ونخشع، وإياك ربنا نستعين على طاعتك ومرضاتك، فإنك المستحق لكل إجلال وتعظيم، ولا يملك القدرة على عوننا أحد سواك يا رب العالمين.

كما أمرنا سبحانه أن نتوكل عليه (بعد الأخذ بالأسباب، والعمل الدائب والجهد المتواصل) في سبيل خير الدارين.

إهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

أي دلنا وأرشدنا يا رب إل طريقك الحق ودينك المستقيم، وثبتنا على الإسلام الذي بعثت به أنبيائك ورسلك، وأرسلت به خاتم المرسلين سيدنا محمد (ﷺ)، واجعلنا ممن سلك طريق المقربين.

وللهداية أنواع منها:

أ – هداية الإلهام كهداية الطفل منذ ولادته، فهو يشعر بالحاجة إلى شيء فيصرخ معبراً عن ضرورة إشباعها.

ب – هداية الحواس.

جـ – هداية العقل، وهي هداية ترقى على هداية الإلهام والحواس، لأنها تنظم وتصحح للإنسان هداية حواسه وغرائزه.

د – هداية الأديان والشرائح: وهي هداية اختص الله بها (سبحانه وتعالى)، يوفق إليها من كان عنده استعداداً للهداية، ولم يصر على الضلال، ولم تغلبه الأهواء والآثام، وقد أرشدنا الله (جل شأنه) إلى طلب الهداية منه ليكون عوناً لنا، ينصرنا على أهوائنا التي استرقت عقولنا، ويخلصنا من تحكم شهواتنا، ويوفقنا إلى سلوك طريق الخير، ويعلمنا الحدود والشرائع لنكف أيدينا عما وراءها.

هذا ومن رحمة الله (تبارك وتعالى) أنه علمنا ما نطلب،... وهذا يستوجب الحمد لله... وأول ما يطلب المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم (إهدنا الصراط المستقيم) والهداية هنا قد تكون هداية دلالة للناس جميعاً (حيث هدى الله كل عباده هداية دلالة أي دلهم على طريق الخير وبينه لهم، فمن أراد أن يتبع طريق الخير إتبعه... ومن أراد ألا يتبعه تركه الله كما أراد) وهذه الهداية العامة هي الأساس البلاغ عن الله بإتباع منهجه (بإفعل ما يرضيه ولا تفعل ما يغضبه). وأوضح لنا الطريق الذي نتبعه لنهتدي، والطريق الذي لو سلكناه حق علينا غضب الله وسخطه.

كما قد تكون هداية معونة: وهي للمؤممين فقط المتبعين لمنهج الله... فالذين إتبعوا طريق الهداية يعينهم الله (سبحانه وتعالى) عليه ويحببهم في الإيمان والتقوى، ويحببهم في طاعته كما في قوله تعالى (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) محمد: ١٧.

أما الذين إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عن منهج الله وخالفوه... فإن الله (تبارك وتعالى) يتخلى عنهم ويتركهم في ضلالهم، وعموماً فإن المحرومين من هداية

المعونة على الإيمان هم الكافرون (سورة النحل: ١٠٧)، والفاسقون (سورة المائدة: ١٠٨)، والظالمون (سورة البقرة: ٢٥٨).

والمعنى يا رب إهدنا وأعنا على أن نسلك الطريق المستقيم وهو طريق المنهج ليوصلنا إلى الجنة دون أن يكون فيه أي إعوجاج يبعدنا عنها. وفي حديث قدسي أنه إذا قال العبد: "إهدنا الصراط المستقيم" يقول جل جلاله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل".

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ: المراد النبيون والصديقون والشهداء والصالحون.

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ: من غضب الله عليهم لمخالفتهم أمره ونهيه.

الضَّالِّينَ: الضال الحائد عن قصد السبيل والسالك غير المنهج القويم، **آمين:** اسم فعل بمعنى استجب **والمعنى:** إهدنا يا رب إلى طريق من تفضلت عليهم بالجود والإنعام (من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) وحسن أولئك رفيقا، ولا تجعلنا يا ألله من زمرة أعدائك الحائدين عن الصراط المستقيم السالكين غير المنهج القويم، الذين ضلوا عن شريعتك القدسية فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية.

وروى في الأثر أن النبي (ﷺ) قال: لقنني جبريل **آمين** عند فراغي من قراءة الفاتحة، وقال إنه كالختم على الكتاب (قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه)، وهذا اللفظ ليس من القرآن إذ لم يثبت في المصاحف، ولا يقوله الإمام في الصلاة (لأنه الداعي عن بعض المذاهب كما قال الحسن البصري)، واختلف الرواة في قول كلمة آمين خفية أو جهراً.

هذا ويوجد في سورة الفاتحة العديد من أنواع الفصاحة والبلاغة منها:

١- حُسن الافتتاح وبراعة المطلع.

٢- المبالغة في الثناء لإفادة "أل" الاستغراق.

٣- تلوين الخطاب إذ صيغته الخبر ومعناه الأمر أي قولوا الحمد لله.

٤- الاختصاص في قوله "لله".

٥- الحذف كحذف صراط من قوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ تقديره غير صراط المغضوب عليهم وغير صراط الضالين.

٦- التقديم والتأخير في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

٧- التصريح بعد الإيهام ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ثم فسره بقوله ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

٨- الالتفاف في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٩- طلب الشيء، والمراد به دوامه واستمراره في قوله ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي ثبتنا عليه.

١٠- السجع المتوازي **في قوله** "الرحمن الرحيم، الصراط المستقيم"، وقوله (نستعين، الضالين).

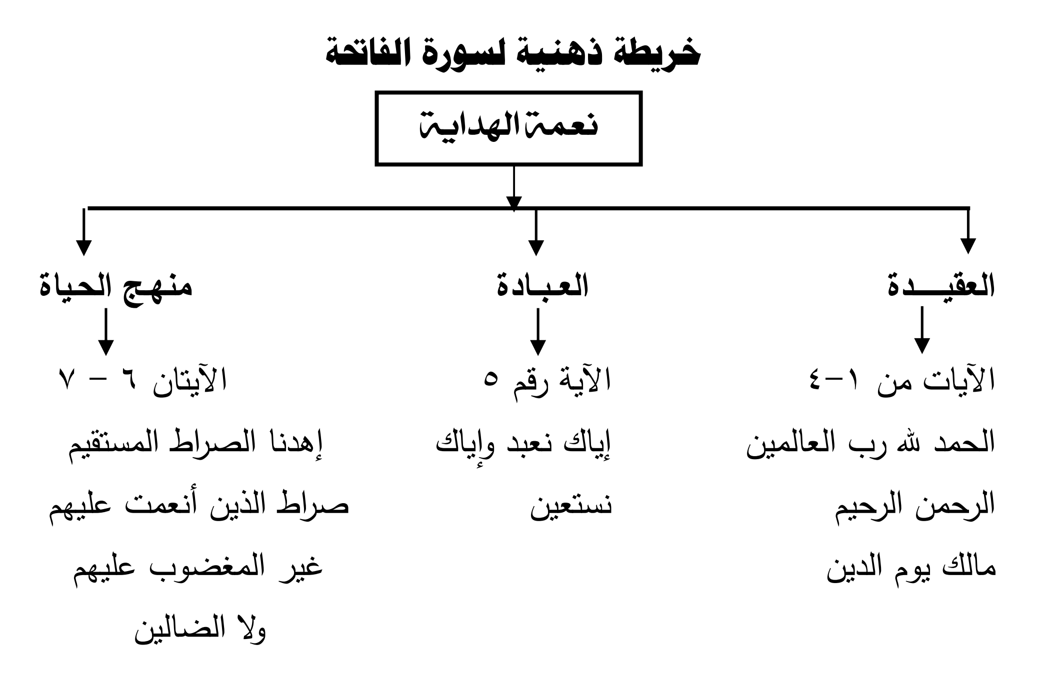
١١- كما وردت الصيغة بلفظ الجمع (نعبد ونستعين) ولم يقل (إياك أعبد وإياك أستعين) بصيغة المفرد، وذلك للاعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك فكأنه يقول "أنا يا رب العبد الحقير الذليل، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي، بل انضم إلى سلك المؤمنين الموحدين، فتقبل دعائي في زمرتهم فنحن جميعاً نعبدك ونستعين بك.

١٢-كما تم نسب النعمة إلى الله (عز وجل) في قوله ﴿أنعمت عليهم﴾، ولم ينسب إليه الضلال والغضب، فلم يقل "غضبت عليهم أو الذين أضللتهم"، وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى، فالشر لا ينسب إلى الله تعالى (أدباً وإن كان منه تقديراً) فالخير كله بيديك والشر لا ينسب إليك.

والله سبحانه يقول في حديث قدسي "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله عز وجل حمدني

عبدي، فإذا قال: الرحمن الرحيم قال الله عز وجل:أثنى علي عبدي، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال الله عز وجل: مجدني عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال الله عز وجل: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، وإذا قال "إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين"، قال الله عز وجل: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل".

ويلاحظ في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول قسمت الصلاة بيني وبين عبدي (ولم يقل قسمت الفاتحة بيني وبين عبدي)، ففاتحة الكتاب هي أساس الصلاة، وهي أم الكتاب كما ذكرنا.



فضائلها:

١- أفضل سورة في القرآن.

٢- ركن من أركان الصلاة ولا تصح الصلاة إلا بها.

٣- جمعت بين التوصل إلى الله تعالى بالحمد والثناء والتمجيد والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده.

٤- طلب الهداية من الله (سبحانه وتعالى).

٥- تشتمل على أنواع التوحيد الثلاثة (توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات) (مدارك السالكين).

٦- لاحظ أن آخر فقرة في سورة الفاتحة في قوله تعالى ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ...﴾ وبداية سورة البقرة في قوله تعالى ﴿الم ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ حيث يوجد صلة بين كلمة ﴿إِهْدِنَا﴾ في سورة الفاتحة وبين ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ في بداية سورة البقرة، فبعد أن علمنا الله تعالى أن تطلب الهداية منه إلى الصراط المستقيم عرفنا على أن هذا القرآن هو محل الهدى، وهكذا تجد الصلة على أقواها بين خاتمة الفاتحة وبداية سورة البقرة.

بقى أن نعرف أن ختم فاتحة الكتاب بقولنا "آمين" أسوة برسول الله (ﷺ) الذي علمه جبريل (عليه السلام) أن يقول بعد قراءة الفاتحة آمين، فهي من كلام جبريل للرسول وليست كلمة من القرآن.

وكلمة "آمين" معناها استجب يا رب فيما دعوناك به من قولنا (**إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم**)، أي أن الدعاء هنا له شيء مطلوب تحقيقه، وآمين دعاء لتحقيق المطلوب... وكلمة آمين اختلف العلماء فيها... فالبعض قال أنها كلمة غير عربية... وهنا يثور سؤال... كيف تدخل كلمة غير عربية في قرآن حكم الله بأنه عربي؟... نقول أن ورود كلمة ليست من أصل عربي في القرآن الكريم، لا ينفي أن القرآن كله عربي... بمعنى أنه إذا خوطب به العرب فهموه... وهناك ألفاظ دخلت في لغة العرب قبل أن ينزل القرآن، ولكنها دارت على الألسن بحيث أصبحت عربية وألفتها الآذان العربية... فاللفظ الجديد أصبح عربياً بالاستعمال وعند نزول القرآن كانت الكلمة شائعة شيوع الكلمة العربية، وكلمة آمين فعل بمعنى استجب، ولكنك تقولها مرة وأنت تقرأ القرآن (وأنت القارئ)، وتقولها مرة أخرى وأنت السامع... فساعة تقرأ الفاتحة تقول آمين (أي أنا دعوت يا رب

فاستجب لدعائي)... لأنك لشدة تعلقك بما دعوت من الهداية فإنك لا تكتفي بقول إهدنا، ولكن تطلب من الله الاستجابة، وإذا كنت تصلي في جماعة فأنت تسمع الإمام وهو يقرأ الفاتحة، ثم تقول آمين لأن المأموم أحد الداعين، والذي دعا هو الإمام، وعندما قلت آمين فأنت شريك في الدعاء لتحقيق الاستجابة من الله سبحانه وتعالى.

سورة البقــرة

نزلت سورة البقرة بالمدينة وعدد آياتها ست وثمانون ومائتان آية، وهي رقم ٢ من الجزء الأول والثاني والثالث بالمصحف الشريف، وهي من أطول سور القرآن على الإطلاق، وقد اشتملت على معظم الأحكام التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية (سواء في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، وفي أمور الزواج، والطلاق، والعدة، وغيرها من الأحكام الشرعية.

وعموماً فقد اقتضى نزول القرآن الكريم في مكة أن تكون آياته (في معظمها) عن العقيدة وعن الجنة والنار، وعن الأجر الذي ينتظر المؤمنين في الآخرة، وعن العذاب الذي ينتظر الكفار.

وكانت الآيات التي نزلت في المدينة عن الأحكام والمجتمع الإسلامي، والمعاملات، وكيفية إتقاء المنافقين... وإن كانت الآيات في المدينة لم تهمل العقيدة بل أكدتها... وعندما جاء جبريل (عليه السلام) ليرتب المصحف مع رسول الله (ﷺ) الترتيب الذي نعرفه الآن... كان الإسلام قد انتشر واعتنقه كثيرون، لذلك كانت المهمة الأولى أن يعرف هؤلاء المسلمون أحكام دينهم، وما يجب أن يفعلوه وألا يفعلوه... أي يريد الله (سبحانه وتعالى) أن يعلم المسلمين الذين آمنوا بأنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله... ويريد أن يعلمهم أحكام دينهم... فالعقيدة موجودة وبقى أن نعمل ونطبق المنهج في إفعل ولا تفعل.

هذا ولم تكن البقرة وقت نزول القرآن الكريم حيواناً معروفاً أو من الأنعام التي يعرفها العرب في ذلك الوقت، وسورة البقرة فيها تجربة حدثت مع بني إسرائيل، ورأوا البعث وهم مازالوا في الدنيا (حيث بعث الله سبحانه وتعالى قتيلاً لينطق باسم قاتله ثم مات بعد ذلك)، وكما سنوضح ذلك في شرح الآيات ٦٧-٧٣ من السورة.

كما اشتملت السورة على أطول آية بالمصحف الشريف، وهي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ أية ٢٨٢ من سورة البقرة. وقد

سميت السورة الكريمة "**سورة البقرة**" إحياء لذكرى تلك المعجزة الباهرة التي ظهرت في زمن موسى (كليم الله)، حيث قُتل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا (بإذن الله) ويخبرهم عن القاتل، وتكون برهاناً على قدرة الله (جل وعلا) في إحياء الخلق بعد الموت.

ملخص تفسير سورة البقرة:

* اشتملت هذه السورة على وجوب الإيمان بالله وبالغيب وبالكتب المنزلة وبالأنبياء جميعاً، وأن القرآن الكريم الذي نزل على سيد المرسلين (محمد صلوات الله وسلامه عليه) حق لا ريب فيه.

* كما تناولت الآيات في البدء الحديث عن صفات المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، فوضحت حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر والنفاق، للمقارنة بين أهل السعادة وأهل الشقاء.

* ثم تحدثت السورة عن بدء الخليقة، فذكرت قصة أبي البشر "آدم" عليه السلام، وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التي تدل على تكريم الله (جل وعلا) للنوع البشري.

* ثم تناولت السورة الحديث بالإسهاب عن أهل الكتاب، وبوجه خاص بني إسرائيل "اليهود" لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة، فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم، وما تنطوي عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والغدر والخيانة، ونقض العهود والمواثيق... إلى غير ذلك من القبائح والجرائم التي ارتكبها هؤلاء المفسدون، مما يوضح عظم خطرهم، وكبير ضررهم.

* كما تناولت السورة المنهج الرباني والتشريع السماوي الذي يسير عليه المسلمين والذي يشتمل على (أحكام الصوم مفصلة بعض التفصيل، أحكام الحج والعمرة، أحكام الجهاد في سبيل الله، شئون الأسرة وما يتعلق بها من الزواج،

والطلاق، والرضاع، والعدة، تحريم نكاح المشركات، والتحذير من مباشرة النساء في حالة المحيض)... إلى غير ذلك من أحكام تتعلق بالأسرة بصفتها النواة الأولى للمجتمع الأكبر.

* كما تحدثت السورة الكريمة عن "جريمة الربا، التي تهدد كيان المجتمع وتقوض بنيانه، وحملت حملة عنيفة شديدة على المرابين، وإعلان الحرب السافرة من الله ورسوله على كل من يتعامل بالربا أو يقدم عليه، وقد حرمت الربا وأحلت البيع، وذكرت أن الله تعالى يذهب بركة الربا ويهلك المال الذي يدخل فيه فلا ينتفع به، ويضاعف ثواب الصدقات ويزيد المال الذي أخرجت منه، وأوصت في أطول آياتها (بل أطول آية في القرآن الكريم) بكتابة الدين والإشهاد عليه.

* كما بينت السورة سر التشريع في قيام المرأتين مقام الرجل في الشهادة، وألمحت إلى الإثبات في المعاملات الآجلة (كأن يكون الدفع حالاً وتسليم البضائع مستقبلاً أو يكون تسليم البضائع الآن والدفع مستقبلاً)، أما المعاملات الحاضرة (أي تلك التي يتم فيها تسليم البضائع ووفاء الثمن في الحال) فلا ضرورة للإثبات، ويكتفي بالشهادة خشية التنازع مستقبلاً، ويلاحظ في هذه الآية أنها نزلت منذ ١٤ قرناً وقت أن كان العرب شعباً أمّياً لا يعرف من أصول المحاسبة والقانون شيئاً إلا بقدر معاملاتهم المحدودة النطاق، وقد أنزل الله تعالى هذه الآية لعلمه أن دولة الإسلام سيعظم شأنها وتمتد حدودها وتتسع معاملاتها، فاقتضت حكمته تعالى تبيان ما يجب إتباعه مستقبلاً.

* واختتمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة، والتضرع إلى الله (جل وعلا) برفع الأغلال، وطلب النصرة على الكفار، والدعاء لما فيه سعادة الدارين ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا، وَارْحَمْنَا، أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٨٦. وهكذا بدأت السورة بأوصاف المؤمنين، وختمت بدعاء المؤمنين ليتناسق البدء مع الختام، ويلتئم شمل السورة أفضل التئام.

فضل السورة:

١- أخرج الإمام أحمد والإمام مسلم عن أبي أُمامه قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: " اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ...

الزهراوان = المنيرتان

الغياية = ما أزلك من فوقك

الفِرْق = القطعة من الشيء

الصواف = المصطفة المتضامة.

البطلة = السحرة ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكن حفظها وقيل لا تستطيع النفوذ في قارئها.

٢- أخرج الإمام أحمد عن معقل بن يسار أن رسول الله (ﷺ) قال: سورة البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا، واستخرجت (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) من تحت العرش فوصلت بها (أو فوصلت بسورة البقرة)، ويس قلب القرآن لا يقرأوها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له واقرأوها على موتاكم".

٣- وفي مسند أحمد وصحيح مسلم وفي الترمذي والنسائي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: لا تجعلوا بيوتكم قبورا، فإن البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان"، قال الترمذي: حسن صحيح.

٤- أخرج الطبراني وأبو حاتم وابن حبان في صحيحه، وابن مردويه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله (ﷺ) " إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا وإن سنام القرآن البقرة

وإن مَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ لَيْلَةً لَمْ يَدْخُلْهُ الشَّيْطَانُ ثَلَاثَ لَيَالٍ وَمَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ نَهَارًا لَمْ يَدْخُلْهُ الشَّيْطَانُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ".

٥- أخرج الدارمي في مسنده عن طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة: أربع أولها، وآية الكرسي، وآيتان بعدها،، وثلاث آيات من آخرها، وفي رواية: لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه ولا يقرأن على مجنون إلا أفاق".

٦- أخرج أبو عبيدة أن رجلا قرأ البقرة وآل عمران، فلما قضى صلاته قال له كعب أقرأت البقرة وآل عمران قال: نعم، قال: فوالذي نفسي بيده إن فيهما اسم الله الذي إذا دُعي به استجاب، قال: فأخبرني به قال: لا والله لا أخبرك به، ولو أخبرتك به لأوشكت أن تدعوه بدعوة أهلك فيها أنا وأنت" ذكره ابن كثير.

الٓمٓ (١)

بدأت سورة البقرة بقوله تعالى " الٓمٓ " وهذه الحروف حروف مقطعة التي ابتدأ الله (سبحانه وتعالى) بها بعض السور (مثل ألم، كهيعص، ص، ن وخلافه). ومعنى حروف مقطعة أن كل حرف ينطق بمفرده، لأن الحروف لها أسماء ولها مسميات... فالناس حين يتكلمون ينطقون بمسمى الحرف وليس باسمه... فعندما تقول "كتب" تنطق بمسميات الحروف، أما إذا أردت أن تنطق بأسماء الحروف تقول "كاف وتاء وباء"، ولا يمكن أن ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلم ودرس، ورسول الله (ﷺ) كان أميّاً (لا يقرأ ولا يكتب)، ولذلك لم يكن يعرف شيئاً عن أسماء الحروف، فإذا جاء ونطق بأسماء الحروف يكون هذا إعجازاً من الله (سبحانه وتعالى) بأن هذا القرآن موحي به إلى محمد (ﷺ)... ولو أن الرسول درس وتعلم لكان شيئاً عادياً أن ينطق بأسماء الحروف، وبذلك تكون هذه الحروف المقطعة دالة على صدق الرسول الأمي في البلاغ عن ربه، وأن هذا القرآن موحي به من الله (سبحانه وتعالى).

وعموماً فإن العلماء في تفسير الحروف المقطعة أقوال، فقال السلف: إنها من المتشابه الذي يفوض الأمر في معناه إلى الله.

وللخلف في معنى هذا المطلع أقوال منها:

١- ابتدأ الله (سبحانه وتعالى) بعض السور ببعض الحروف الهجائية للإشارة إلى أن القرآن مركب من الحروف التي ينظم منها العرب كلامهم، حتى إذا عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة من مثله، كان ذلك دليلاً على أنه من عند الله وليس من قول البشر.

٢- هي حروف للتنبيه مثل (يا) وخلافه مما وضع لإيقاظ السامع إلى ما يلقى بعدها، ليكون أول ما يقرع من هذه السور مشتملاً على نوع من الإعجاز، فإن النطق بأسماء الحروف مختص بمن خط ودرس، فأما من محمد النبي الأمي الذي لم يخط بقلم أو يتعلم فأمر مستبعد كما ذكرنا.

٣- هي من أسماء الله تعالى.

٤- هي من أسماء القرآن.

٥- هو قسم أقسم الله به.

٦- قال ابن عباس: ألم = أنا الله أعلم، الر = أنا الله أرى، ألمص = أنا الله أفصل، حيث الألف تؤدي معنى (أنا)، واللام تؤدي معنى "اسم الله"، والميم تؤدي معنى أعلم.

وتقرأ هذه الحروف مقطعة ساكنة الأواخر، فيقال ألف لام ميم كما أننا نأخذ في كل حرف نقرأه في القرآن حسنة (سواء فهمناه أو لم نفهمه)، وقد يكون بتلك الحروف أسرار لا نعلمها بعد.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢)

الْكِتابُ: القرآن الجامع لكل أحكام السماء منذ بداية الرسالات حتى قيام الساعة.

لَا رَيْبَ فِيهِ: لا شك في أنه من عند الله.

هُدىً: هداية ورشاد.

لِلْمُتَّقِينَ: الذين أخذوا لأنفسهم وقاية من النار.

هذا القرآن البليغ في أسلوبه، الرائع في معناه، القوي في مبناه لا شك في أنه من عند الله، وفيه هداية وإرشاد لمن يريد أن يتقي الكفر ويقي نفسه من عذاب النار، فلا يستطيع أحد أن يأتي بكلام يقرب منه بلاغة وفصاحة، لأنه تنزيل من رب العالمين، يتلوه المتقين فيزيدهم إيمانا، ويقتبسون من أنواره، ويجنون ثماره، فتسمو نفوسهم ويقبلون على ربهم ممتثلين أوامره، مجتنبين نواهيه.

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٣)

يُؤْمِنُونَ: يصدقون

بِالْغَيْبِ: بما غاب عنهم وستر عن أعينهم، والمراد الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، واللوح والعرش والدار الآخرة وما فيها من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار.

فقد تحدثت الآية عن صفات المتقين، فهم أولا يؤمنون بالغيب، ويصدقون في جزم وإذعان بما غاب عنهم علمه وأخبرهم الله (سبحانه وتعالى) به على لسان رسله فيصدقونه في كل ما أخبر به عن ربه وإن لم تره أعينهم.

كما أن المتقين يقيمون الصلاة ويداومون على أدائها في أوقاتها كاملة أركانها ومستوفية شروطها الظاهرة والباطنة وبقلوب خاشعة، كما أنهم ينفقون مما أعطاهم مولاهم لأنهم يعلمون أنهم خلفاء الله في هذا الذي أعطوه، فينفقون من أموالهم على ذوي الحاجات وفي مصالح المسلمين.

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٤)

يُوقِنُونَ: اليقين هو الاعتقاد الجازم الذي لا يقبل الشك.

تحدثت الآية عن صفات أخرى للمؤمنين وهم الذين يصدقون بكل ما جئت به عن الله تعالى، وبما جاءت به الرسل من قبلك لا يفرقون بين كتب الله ولا بين رسله، كما أنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً راسخاً بالدار الآخرة التي تتلو الدنيا وبما فيها من بعث وجزاء، وجنة، ونار، وحساب، وميزان... وإنما سميت الدار الآخرة لأنها بعد الحياة الدنيا.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥)

الْمُفْلِحُونَ: الناجحون، الفائزون، والمفلحون مشتق من الفلح وأصله في اللغة الشق والقطع، ومنه فلاحة الأرض أي شقها للحرث، وقيل الفلاح أي الفوز بالمطلوب وفلاح أي يزرع الأرض ويشقها.

أي أولئك المتصفون بما تقدم من الصفات الجليلة على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى (إذ أنهم اتقوا الله وعذابه، وآمنوا في صدق وإذعان بما غاب عن أعينهم مما أخبرهم به الرسول وجمعوا إلى الإيمان بالقرآن الإيمان بجميع ما أنزل من عند الله، واعتقدوا اعتقاداً جازماً بلقاء الله وحسابه في اليوم الآخر)... هؤلاء هم الفائزون بالدرجات العالية في جنات النعيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦)

كَفَرُوا: الكفر لغة ستر الشيء وتغطيته.

أَأَنْذَرْتَهُمْ: الإنذار الإعلام مع التخويف.

إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسالة محمد (ﷺ) يتساوى عندهم سواء حذرتهم يا محمد من عذاب الله وخوفتهم منه، أم لم تحذرهم لا يصدقون بما جئتهم به، فلا تطمع في إيمانهم ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وفي هذا تسلية للنبي (ﷺ) عن تكذيب قومه له.

﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٧)

خَتَمَ: طبع عليها بالخاتم، وإنما يفعل هذا على الأبواب لمنع دخولها.

غِشَاوَةٌ: غطاء.

بين الله تعالى العلة في سبب عدم إيمان الكفار بأن طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور، ولا يشرق فيها إيمان، كما طبع على أسماعهم وعلى أبصارهم غطاء، فلا يبصرون هدى، ولا يسمعون، ولا يفقهون، ولا يعقلون لأن أسماعهم وأبصارهم كأنها مغطاة بحجب كثيفة، لذلك يرون الحق فلا يتبعونه، ويسمعونه فلا يعونه، ولهم في الآخرة عذاب شديد لا ينقطع بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله.

ولكن لماذا يختم الله (جل جلاله) على قلوب الكفار؟

لأن القلب هو مكان العقائد... حيث قضية الإيمان تناقش في العقل أولاً، فإذا انتهت مناقشتها واقتنع بها الإنسان تماماً فإنها تستقر في القلب، ولا تعود إلى الذهن مرة أخرى، وتصبح عقيدة وإيماناً... وإذا عمى القلب عن قضية الإيمان... فلا عين ترى آيات الإيمان بالله... ولا أذن تسمع كلام الله ولهم عذاب عظيم يوم القيامة.

توضيح علمي للآية:

ترد كلمة القلب في القرآن والسنة كثيرا، وكثير من الناس يغلطون في شأنها، حيث هناك قلبان لكل إنسان هما:

١- **قلب مادي محسوس:** وهو القلب الدموي الذي له وظيفة المضخة الدموية إلى كل أجزاء الجسم الحي ليغذيها ويمدها بالطاقة اللازمة لها لأداء وظيفتها، ويشترك فيه الإنسان مع كثير من الحيوانات في وظيفة القلب هذه، ويعرفه أطباء القلب وغيرهم.

٢- **قلب معنوي (أثيري) غير محسوس:** مقره الصدر، وهو غير مادي، ويعتبر مركز الأحاسيس الوجدانية (من حب وبغض، وحقد وسماحة، وخوف وأمن وخلافه، وهذه القضايا محسوسة لكل الناس (حيث يحسون بشيء من هذه المعاني في

قلوبهم)، وهذا القلب غير المادي هو محل الإيمان الذوقي، وهو محل الكفر والنفاق كذلك، فأهل الإيمان (مثلاً) يحسون بمعاني كثيرة في قلوبهم، وهذه المعاني لا يحس بها الكافرون (لأن هذا الجانب في قلوبهم ميت)، وهذا القلب المعنوي مختلف عن القلب الدموي في وظيفته، بدليل أن الذين أجريت لهم عمليات استئصال لقلوبهم وأعطوا قلباً آخر، لم تتغير أحاسيسهم، وهذا القلب المعنوي هو الذي يحصل منه الإدراك، وترتسم فيه العلوم والمعارف، وهو يمرض ويموت ويعمى ويصم، وقال ابن جرير أن رسول الله (ﷺ) قال "**إن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص**"، فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ...﴾ نظير الختم والطبع على ما تدركه الأبصار (من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها، ثم حلها، فكذلك الإيمان لا يصل إلى قلوبهم.

هذا ومن الغريب والمدهش، أنه مع نهاية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين الذي نعيشه الآن، ومنذ سنوات قليلة جدا اكتشف العلماء أن **مخ الإنسان الأساسي في أمعائه وليس في رأسه كما كنا نعتقد كلنا**..... حيث اكتشف العلماء وجود ثلاثة أمخاخ للإنسان (وهي التي تتحكم في سلوكنا وطبيعتنا، وتقرر صحتنا من عدمها أو درجة ذكائنا وخلافه)... فهناك من يحب ببطنه لا بعقله، ويقول المثل الشعبي الألماني "أنت تكون ما تأكل"، ويقول الألمان أيضاً "إذا لم يتمكن المرء من اتخاذ القرار بشأن ما يسأل بطنه"، ونقول نحن "قلبي لا يطاوعني في عمل كذا".

والأمخاخ الثلاثة (على حسب ما اكتشفه العلماء حديثاً) هي[١]:

أ – مخ أول يوجد في الأمعاء للإنسان: وهو المخ الأساسي (حيث تعرجات الأمعاء تشبه تعرجات المخ الذي في الرأس)، وبه ٥٠٠ مليون خلية عصبية،

(١) **مخ الإنسان الأساسي في أمعائه، تحقيق محمد فهمي، مجلة العلم، العدد ٥١٩، يناير ٢٠٢٠م، أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، القاهرة.**

ويسمى الجهاز العصبي المعوي، وهو الذي نشأ أولاً (حيث نشأت الخلايا العصبية أولاً مع تطور الإنسان وحيث كان تناول الطعام هو الأساس).

ب – مخ ثان الذي يوجد في الرأس: ويسمى الجهاز العصبي المركزي.

وأن كلا المخين (العصبي المعوي والعصبي المركزي) يستخدمان نفس الشبكة العصبية ونفس الناقلات العصبية (لأن أصلهما من نفس الخلايا الجذعية).

جـ – مخ ثالث عبارة عن مئات مليارات من البكتريا التي تعيش في مستعمرات (داخل أمعائنا) والتي تؤثر في حياتنا وصحتنا وقراراتنا وسلوكنا.... وهكذا بدأت تظهر الحقيقة وأن القرآن حقاً وصدقا.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨)

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية (والآيات التي بعدها) في منافقي أهل الكتاب (منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، ومعتب بن قشير، والجد بن قيس) كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق ويقولون: إنا لنجد في كتابنا نعته وصفته[١].

بيّن القرآن الكريم أوصاف ثلاث فئات من الناس:

الأولى: الذين يؤمنون بالغيب وغيره وبين الجزاء الذي أعده لهم.

الثانية: الذين كفروا وختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وبين الجزاء الذي أعده لهم أيضاً.

الفئة الثالثة من الناس: وهم المنافقون في هذه الآية الذين أظهروا الإيمان بأفواههم وأبطنوا الكفر في قلوبهم، وتلك فئة ظهرت في فجر الإسلام (وأكثرهم من اليهود وإن كانت الآية عامة تشمل كل منافق يظهر خلاف ما يبطن).

هؤلاء المنافقون يقولون بألسنتهم آمنا بالله وباليوم الآخر، والحق أنهم كاذبون في دعواهم ولن ينفعهم هذا الإيمان الظاهري أبدا، فلا هم في الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يفعل في سبيل الله، ولا هم في الآخرة لهم ثواب المؤمن فيما يرجو من الله.

(١) تفسير الفخر الرازي ٦١/٢.

﴿ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩)

يُخَادِعُونَ: الخديعة هي الحيلة والمكر وإظهار خلاف الباطن، والخداع مع الله ليس على ظاهره (لأنه لا تخفى عليه خافية)، والمراد أنهم يخادعون رسول الله أو أنهم يفعلون فعل المخادع فيظهرون خلاف ما يضمرون.

وَمَا يَشْعُرُونَ: وما يفطنون أن وبال خداعهم راجع إليهم.

فهؤلاء المنافقون يتوهمون أنهم بإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر يخادعون الله، وأنه غير مطلع على أسرارهم ويخادعون رسوله، وهم في الحقيقة يخادعون أنفسهم حيث ضرر عملهم لاحق بهم، فهم يغرون أنفسهم بالأكاذيب وما يشعرون أن وبال خداعهم راجع إليهم.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (١٠)

في قلوب هؤلاء المنافقين شك ونفاق فزادهم الله رجساً فوق رجسهم، وضلال فوق ضلالهم، والجملة دعائية قال ابن أسلم: هذا مرض في الدين وليس مرضاً في الجسد، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام فزادهم الله رجساً وشكا، ولهم عذاب مؤلم بسبب كذبهم في دعوى الإيمان، واستهزائهم بآيات الرحمن[(١)].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١)

لَا تُفْسِدُوا : الفساد خروج الشيء عن حد الاعتدال، والإصلاح نقيضه، وإفسادهم كان بإضمارهم الكفر وفعلهم المعاصي وممالأتهم للكافرين.

فإذا قال رسول الله (ﷺ) أو المؤمنون للمنافين لا تمالئوا الكافرين، ولا تبطنوا الكفر وتظهروا الإسلام، ولا تفعلوا القبائح فالله مطلع على خفايا صدوركم، قالوا: إنما

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣٣/١.

نحن مصلحون ولا شأن لنا إلا صلاح، وينكرون ما صدر منهم ويبررونه بأوهى الأسباب، وهذا شأن المنافقين دائماً، يدفعهم مرض قلوبهم الخبيث إلى موالاة الأعداء في الخفاء.

وروى عن ابن ماجه عن أبي موسى الأشعري عن النبي (ﷺ) قال "مثل القلب مثل ريشة تقلبها الرياح بغلاة"، ولهذا المعنى يقول الرسول أيضاً "أللهم يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك".... فإذا كان النبي (مع عظيم قدره وجلال منصبه) يقول ذلك فنحن أولى بذلك اقتداء به، كما يقول تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ سورة الأنفال: ٢٤.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢)

أَلَا: كلمة تنبيه، ينبه بها المخاطب ال أن ما بعدها محقق. رد الله (سبحانه وتعالى) على المنافقين دعواهم الإصلاح، وبين لهم الحق أنهم هم مصدر الفساد وحدهم، وأنهم كاذبون في دعواهم، ولكن المنافقين لا يدركون المحسوس فلا يشعرون بحقيقتهم، لأن الفساد أصبح غريزة في طباعهم، ومن ثم نقضوا دعوى الإصلاح وعاثوا في الأرض فسادا. وفي هذا الأسلوب مبالغة في الرد عليهم، ودلالة على السخط العظيم اللاحق بهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)

النَّاسُ: المراد المؤمنون أصحاب محمد (ﷺ).

السُّفَهَاءُ: السفه خفة العقل وفساد في الرأي، والسفهاء جمع سفيه، وهو الجاهل ضعيف الرأي، قليل المعرفة بمواضع المنافع والمضار.

والمعنى: إذا قيل للمنافقين آمنوا إيماناً صادقاً لا يشوبه نفاق ولا رياء (كما آمن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام) وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله، قالوا متهكمين منكرين: أنؤمن بالقرآن وبمحمد كما آمن به الضعفاء والجهال والفقراء والعبيد الذين ليس لهم خبرة ولا حكمة مثل صهيب وعمار وبلال ناقصي العقل والتفكير وأكثرهم كانوا فقراء؟ فرد الله (سبحانه وتعالى) عليهم مقالتهم أبلغ رد: ألا أنهم هم السفهاء، لأن السفيه يسيء إلى نفسه (من حيث يظن أنه ينفعها)، وهم كذلك بشكهم وذبذبتهم أساءوا إلى أنفسهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولكن المنافقين (مرضى القلوب والعقول) لا يعلمون ذلك، فلا يفرقون بين السفيه والحليم.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٤)

وإذا صادف وتقابل هؤلاء المنافقون مع المؤمنين الصادقين نافقوا وقالوا للمؤمنين آمنا كما آمنتم، وإذا انفردوا برؤسائهم وأحبارهم المردة الطغاة دعاة الفتنة والفساد قالوا لهم: إنا على عقيدتكم وإنما نظهر لهم الإيمان استهزاء بهم وسخرية بدينهم.

وسبب نزول هذه الآية ما روي أن عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم أبو بكر وعمر وعلي (رضي الله عنهم)، فقال ابن أبي لأصحابه: انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم بمعسول القول، وأخذ يمدحهم الواحد بعد الآخر في الدين والسبق إلى الإسلام، ولما خلا بأصحابه أثنوا عليه خيرا فنزلت الآية.

﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٥)

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ: الله يجازيهم على استهزائهم فسمى جزاء الاستهزاء باسمه، كقوله تعالى ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾.

وَيَمُـدُّهُمْ : أي يزيدهم (بطريق الإمهال والترك) في ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويترددون حيارى، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا.

يَعْمَهُونَ: أي يتركهم ويمهلهم في ضلالهم يتخبطون.

والمعنى: الله (سبحانه وتعالى) يجازيهم بالعقاب العظيم على سخريتهم من المؤمنين واستهزائهم بالدين، ويزيدهم ضلالاً، ويملي لهم "إنما نملي لهم ليزدادوا إثما"، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وإنما يملى لهم ليغتروا بالنعمة ويزدادوا عتوا وكفراً ونفاقاً، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١٦)

اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى: استبدلوا الكفر بالإيمان، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهدى.

المعنى: هؤلاء المنافقون الذين ذكرت أوصافهم بصدهم عن الطريق المستقيم، والتعالي عن الأدلة الظاهرة في الآفاق والأنفس (حسداً واستكباراً) كأنهم دفعوا الهدى ثمناً للضلالة، واختاروا طريق الكفر والغواية على طريق النور والحق (وهو طريق الدين والعقل السليم)، فكانت صفقتهم خاسرة، وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك، لأنهم خسروا سعادة الدارين.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ ﴾ (١٧)

بين الله (سبحانه وتعالى) حال المنافقين بمثلين وضح فيهما خسارتهم الفادحة: الأول شبههم بمن أوقد نارا ليستدفئ بها ويستضئ في ليلة مظلمة فأضاءت المكان الذي حوله فأبصر واستأنس بتلك النار المشعة والمضيئة فأطفأها الله تماما وتلاشت النار وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي، فكذلك هؤلاء المنافقون في

استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي عن الرشد، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل الخير ولا يعرفون طريق النجاة، ويتخبطون في ظلمة النفاق والتضحية والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وعندما نتأمل قوله تعالى ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، ولم يقل: "ذهب الله بنارهم"، مع أنه مقتضى السياق ليطابق أول الآية ﴿اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو "النور"، وأبقى ما فيها من الإحراق "وهو النارية" وتأمل كيف قال ﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل بضوئهم... لأن الضوء زيادة في النور، فلو قيل "ذهب الله بضوئهم" لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، كما تأمل كيف قال ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، فوحد النور، ثم قال ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ فجمعها... فإن الحق واحد هو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل سواه، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة، ولهذا أفرد سبحانه "الحق"، وجمع "الباطل" في آيات عديدة مثل قوله تعالى ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وقوله تعالى ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، وقوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، فجمع سبل الباطل ووحد سبيل الحق[1].

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨)

صُمٌّ: جمع أصم، والصمم عدم السمع.

بُكْمٌ: جمع أبكم وهو الأخرس الذي لا يتكلم.

فهؤلاء المنافقون كالصم لا يسمعون خيراً، وكالخرس لا يتكلمون بما ينفعهم، وكالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله، ولا يرجعون عما هم فيه من الغي والضلال.

---

(١) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩)

كَصَيِّبٍ : الصيب المطر، والمعنى أو كمثل أصحاب مطر نزل من السماء.

وَرَعْدٌ: صوت تفريغ الهواء.

وَبَرْقٌ: ضوء خاطف ينشأ من تماس السحاب بعضه ببعض (بالتفريغ الكهربي).

الصَّوَاعِقِ: جمع صاعقة وهي الصيحة الشديدة من صوت الرعد يكون معها القطعة من النار.

حَذَرَ الْمَوْتِ : خشية أن يموتوا من شدة صوتها.

مُحِيطٌ: عالم بأسرارهم وقادر على التنكيل بهم.

المعنى:

المثل الثاني: شبه حال المنافقين إذا نزل القرآن عليهم (وفيه بيان لظلمات الكفر ولنور الإيمان) فأعرضوا عنه وتوهموا أن إعراضهم عنه سيغنيهم وينفعهم، والحق أنه لن يجدي ذلك، فشبههم وهم في هذه الحال بحال قوم نزل عليهم مطر شديد يصاحبه سحاب مظلم كثيف كقطع الليل المظلم، ورعد يصم الآذان، وبرق يخطف الأبصار، وصواعق تذهب الألباب وتحرق الحرث والنسل فوضعوا أصابعهم في آذانهم ظانين أن ذلك سينجيهم من الموت من تلك الصواعق المدمرة، ولكن الله (سبحانه وتعالى) محيط بهم بقدراته، وهم تحت إرادته ومشيئته لا يفوتونه كما لا يفوت من أحاط به الأعداء من كل جانب.

توضيح :

البرق والرعد أحد الظواهر الطبيعية التي تحدث في حالات الاضطرابات والمنخفضات الجوية، وحالات عدم الاستقرار في الطقس، وعندما يجتمعان سوياً يطلق عليهم اسم الصاعقة حيث أن:

البرق: هو ضوء ساطع ينبعث من السماء بشكل قوي، وينذر بحالته من عدم الاستقرار الجوي في فصل الشتاء، وينتج هذا الضوء عند اصطدام سحابتين في السماء (أحدهما تحمل شحنة كهربائية موجبة والأخرى تحمل شحنة كهربائية سالبة) أو بين السحابة وسطح الأرض مما يتسبب في حدوث تباعد يعبر عنه على شكل شرارة ضوئية قوية، ويرافق ظهور هذه الشرارة صوت قوي يشبه إلى حد كبير صوت الانفجارات ويطلق عليه الرعد، وعموماً يرتبط حدوث الرعد دائما بحدوث البرق ويتبعه.

وهناك أنواع كثيرة من البرق، منها البرق بين السحب (غير مري للمشاهد على الأرض)، والبرق من السحب إلى سطح الأرض (وهو له شكلين شكل موجب غير متفرع وسالب متفرع) وهو الأكثر انتشاراً، والشكل الموجب يكون خط واحد، وهو قليل الحدوث ويتميز بصوت عالي جداً كتفجير قنبلة صوتية، والبرق من الأرض إلى السحب (وهو تفريغ للشحنات بين الغيوم والأرض صعوداً، حيث تنشأ من مكان قريب من الأرض ظاهرياً، وتحدث غالباً في المدن ذات الأبراج العالية وناطحات السحاب.

وبرق أنفيل: وهو نوع من البرق والرعد يشبه شكل الشجرة على نحو أفقي، وتتحرك ببطء، ويستطيع الإنسان مشاهدتها، وهي واسعة الانتشار.

وبرق الحبيبات: وفيها يظهر شكل البرق على شكل متقطع ومقسم لأجزاء (يكون ذو شكل صغير غير واضح لذا يسمى الحبيبات).

كما يوجد أنواع أخرى من البرق مثل برق الوشاح والبرق الكروي أو العوامة (الذي يظهر ككرة مضيئة في السماء، وهي ظاهرة نادرة الحدوث).

فوائد البرق:

يعمل البرق على رفع درجة حرارة الهواء (وخاصة في الأماكن القريبة من أماكن حدوثه وتشكله)، حيث تصل قوة الضربة إلى ما يقرب من ٢٩٧٠٠ درجة مئوية (أي ما يعادل نحو خمسة أضعاف درجة حرارة الشمس) ومن فوائده:

١- تثبيت النتروجين في التربة: حيث تقوم حرارة الصواعق بتحويل النيتروجين الموجود في الهواء إلى ثاني أكسيد النتروجين والذي يرتبط بجزيئات المطر ويسقط على التربة فيزيد من خصوبتها.

٢- زيادة نسبة غاز الأوزون في الجو: حيث يقوم البرق بطاقته العالية على تحويل الأكسجين (O_2) إلى غاز الأوزون (O_3) والذي يساعد على حماية كوكب الأرض من الأشعة الضارة.

٣- تصفية الجو من العوالق الملوثة (مثل: الأتربة والغبار، وحبوب اللقاح وخلافه).

٤- في حالة حدوث الصواعق يراعى القيام بما يلي:

أ - استعمال مانعات الصواعق لحماية المباني، حيث تقوم هذه المانعات بتفريغ الشحنات الكهربائية في الأرض.

ب - في حالة الخروج من المنزل أثناء العاصفة الرعدية ينصح بالذهاب إلى المناطق المنخفضة وغير البارزة، وتجنب الوقوف عند الأشجار وأعمدة الكهرباء.

جـ - عند مشاهدة صواعق قريبة ينصح بالاحتماء بأقرب مبنى أو سيارة، والابتعاد عن أسطح المنازل والأماكن المرتفعة.

د - كما أن الماء يعتبر موصل جيد للكهرباء، لذا يجب تجنب الاستحمام أو العمل بأنابيب الماء أثناء حدوث الصواعق تجنباً لحدوث احتراق لأجساد البشر والحيوانات، أو حدوث صدمة في القلب، أو حدوث صدمة كهربائية.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠)

هذا البرق (من شدة ضوئه وقوته وكثرة لمعانه) يكاد أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة، وكلما أنار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه، وإذا اختفى البرق وفتر لمعانه واشتد الظلام وقفوا عن السير وثبتوا في أماكنهم خشية التردي في حفرة، ولو أراد الله لزاد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بأسماعهم، وفي ضوء البرق الشديد فأعماهم وذهب بأبصارهم، لأن الله (سبحانه وتعالى) قادر على كل شيء، ولا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء. قال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قادر(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١)

بعد أن أوضح الله (سبحانه وتعالى) أن الناس مع القرآن ثلاثة أنواع، فمنهم المؤمن، ومنهم الكافر، ومنهم المنافق، دعا الناس جميعا إلى دين التوحيد والحق، وهو عبادة الله وحده عبادة خضوع لجلاله وإخلاص العبودية له فهو الذي أنعم عليهم بنعم جليلة وهو الذي رباهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا، اعبدوه بتوحيده وشكره وطاعته، فهو الذي أوجدكم بقدرته من العدم وخلق من قبلكم من الأمم لتكونوا في زمرة المتقين، الفائزين بالهدى والفلاح.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢)

فِرَاشًا: الفراش ما يفترشه الإنسان، والمراد أنه سبحانه وتعالى جعل الأرض ممهدة لإقامة الإنسان وأعدها لمعيشته فلا هي صلبة وعرة، ولا لينة رخوة.

---

(١) تفسير الطبري ٧٩/١.

والمعنـى: قد خلق الله الأرض وجعلها مهاداً وقراراً تستقرون عليها وتفترشونها كالبساط المفروش مع كرويتها، وإلا ما أمكنكم العيش والاستقرار عليها، كما جعل السماء سقفاً للأرض مرفوعاً فوقها كهيئة القبة، وأنزل من السماء مطراً عذباً فراتا (أنزله بقدرته من السحاب) فأخرج بذلك المطر أنواع الثمار والفواكه والخضر والمحاصيل المختلفة غذاء لكم، فلا تجعلوا معه شركاء من الأصنام والبشر تشركونهم مع الله في العبادة، وأنتم تعلمون أنها لا تخلق شيئاً ولا ترزق، وأن الله هو الخالق الرازق وحده، ذو القوة المتين.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣)

سورة: السورة قطعة لها أول وآخر أقلها ثلاث آيات.

شُهَدَاءَكُمْ : شهداء جمع شهيد من الشهادة، بمعنى الحضور أي من يحضر معكم من رؤسائكم أو القائمون بالشهادة لكم يوم القيامة بصحة عبادتكم على زعمكم والمراد الأصنام.

والمعنى: إذا كنتم أيها الناس في شك وارتياب (الريب هو الشك) من صدق هذا القرآن (المعجز في بيانه وتشريعه ونظمه) الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد (ﷺ) فأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن في البلاغة والفصاحة والبيان، وأدعوا أعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن غير الله سبحانه، وثقوا أن العجز والخور سيلازمانكم لأنه ليس من كلام البشر إن هو إلا وحي يوحى.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤)

المعنـى: فإن لـم تقدروا علـى الإتيـان بمثل سورة من سور القرآن، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه (واستعنتم بالفصحاء والبلغاء والعباقرة)، ولـن تقدروا فـي المستقبل أيضاً عن الإتيـان بمثلـه أيضاً، فـاتقوا الله وخـافوا عذابـه واحذروا نار الجحيم التي جعلها جزاء المكذبين والتي وقودها الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله ينالون فيها ألوان العذاب المهين.

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥)

وَبَشِّرِ: البشارة الإخبار بما يسر

مُتَشَابِهًا: يشبه بعضه بعضا في اللون ويختلف في الطعم.

المعنى: بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى معاندة الكافرين، وبين ما أعد لهم من العذاب المقيم، ذكر حال المؤمنين وما به من نعيم المقيم (على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب) حفزا لهمم الصالحين وتثبيطا لعزائم الحائرين الذين تسول لهم أنفسهم اقتراف السيئات فقال ما معناه:

يا محمد بشر المؤمنين الصادقين في إيمانهم الذين كانوا في الدنيا محسنين، والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح بأن لهم حدائق وبساتين ذات أشجار ومساكن، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة (أنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من عسل مصفى وأنهار من خمر لذة للشاربين)، وكلما رزقوا في هذه الجنات رزقاً من بعض ثمارها قالوا متعجبين فرحين: إن هذا يشبه ما رزقنا الله من الثمار في الدنيا في الاسم واللون (ولكنه يختلف عنه في الطعم والحجم والرائحة الذكية)، وفي تلك القصور المشيدة، وعلى ضفاف تلك الأنهار العذبة، وفي ظلال تلك الأشجار الباسقة أزواج مطهرات لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ومبرآت من

عيوب النساء الخلقية والخلقية (لا حيض ولا بول ولا خشونة في الحديث) بل هو الجمال الذي أعده الله ذو الجلال لأهل الكمال.

ولعل النفس تخشى أن يزول ذلك النعيم فبشرهم المولى الكريم بقوله هم فيها خالدون مقيمون إقامة دائمة لا تنقضي أبداً.

توضيح علمي لهذه الآية:

هذه الآية توضح ما يلي:

١- أن معنى الرزق في الدنيا يختلف عنه في الجنة، فالحصول على الثمار في الدنيا لا يتأتى إلا بعد مجهود شاق في الزراعة والخدمة، وكذلك للحصول على الثمار من النباتات، وقد تتعرض للأخطار، وهذا خلاف ما يحدث في الحصول على ثمار الجنة حيث يقطفون ثمارها دون أي تعب أو مشقة.

٢- تحدثت الآية عن انخفاض مستوى الماء الأرضي وعلاقته بجودة الأرض وخصوبتها، وهو ما سنوضحه بالتفصيل في تفسير الآية رقم ٢٦٥.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٦)

لَا يَسْتَحْيِي: الاستحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف مما يعاقب عليه فيؤدي إلى ترك الفعل، وهو بهذا المعنى مستحيل على الله تعالى، والمراد هنا أنه لا يترك ضرب المثل.

مَثَلًا: المثل النعت والصفة التي بلغت مبلغ المثل في الغرابة والشيوع.

الْفَاسِقِينَ: الفسق في اللغة هو الخروج، يقال فسقت الرطبة من قشرها إذا خرجت، والمراد بالفاسقين هنا الكافرون المجاوزون الحد بكفرهم.

المعنى: إن الله لا يستنكف ولا يمتنع عن أن يضرب أي مثل كان، بأي شيء كان، صغيرا كان أو كبيرا (سواء كان هذا المثل بالبعوضة أو هو بما دونها في الحقارة والصغر، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها، أما المؤمنون فيعلمون أن الله حق، لا يقول غير الحق، وأن هذا المثل من عند الله، وأما الذين كفروا فيتعجبون ويقولون ماذا أراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة؟

فالبعوضة لها أرجل ولها أجنحة ولها دورة تناسلية وكل ما يلزم لحياتها... كل هذا في حجمها الصغير والدقيق... فكلما دق الشيء فإنه محتاج إلى دقة خلق أكبر.

ومثال ذلك عندما اخترع الإنسان الساعة كان حجمها ضخماً جداً لدرجة أنها تحتاج إلى مكان كبير... وكلما تقدمت الحضارة وارتقى الإنسان في صناعته وحضارته وتقدمه أصبح حجمها دقيقاً صغيراً حتى أصبح من الممكن صنع ساعة في حجم الخاتم أو أقل... وهكذا حين ضرب الله مثلاً بالبعوضة وما فوقها (أي بما هو أقل منها حجماً) فإنه تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى دقة الخلق... فكلما دق الشيء وصغر حجمه فإنه محتاج إلى دقة الخلق... ولكن الكفار لم يأخذوا المعنى على هذا النحو، وإنما أخذوه بالمعنى الدنيوي البسيط الذي لا يمثل الحقيقة.

وهذه الأمثال التي ضربها الله (سبحانه وتعالى) في القرآن الكريم لها حكمة جليلة، وهي أنها تميز المؤمنين من الكافرين، فهي وسيلة إلى هداية المستعدين للهداية، وإضلال المنهمكين في الفساد والغواية.

﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢٧)

يَنْقُضُونَ: النقض هو الفسخ وفك التركيب كما في فك الحبل والغزل.

مِيثَاقِهِ: ميثاق العهد توكيده، والمراد العهد المؤكد، وهو ما أوصاهم به في الكتب السابقة من الإيمان بمحمد إذا ظهر.

المعنى: عدد الله تعالى أوصاف هؤلاء الفاسقين بأنهم الذين ينقضون ما عهده الله إليهم في الكتب السماوية من الإيمان بمحمد (ﷺ) بعد توكيده عليهم، أو ينقضون كل عهد وميثاق من الإيمان بالله، وكذا التصديق بالرسل والإيمان بهم جميعاً، وكذا العمل بالشرائع (مثل صلة الأرحام والقرابات) واللفظ عام في كل قطيعة لا يرضاها الله (كقطع الصلة بين الأنبياء، وقطع الأرحام، وترك موالاة المؤمنين)، بالإضافة إلى أنهم يفسدون في الأرض (بالمعاصي، والفتن، والمنع عن الإيمان، وإثارة الشبهات حول القرآن)، حيث أولئك المذكورون (الموصوفون بتلك الأوصاف القبيحة) هم الخاسرون لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، فصاروا إلى النار المؤبدة.

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨)

وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا: كنتم تراباً أو كنتم نطفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات.

ثُمَّ يُحْيِيكُمْ: البعث.

ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ: تصيرون إلى الحساب والجزاء يوم القيامة.

المعنى: بدأت الآية بالاستفهام للتوبيخ والإنكار، والمعنى يا أيها الكافرون الفاسقون كيف تجحدون الخالق، وتنكرون الصانع (بنقضهم مواثيق الله وقطعهم ما أمر الله به أن يوصل وإفسادهم في الأرض) وكنتم تراباً (كنتم في العدم نطفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات)، فأخرجكم إلى الدنيا (وبعث فيكم الحياة)، ثم يميتكم عند انقضاء الآجال، ثم يحييكم بالبعث من القبور، ثم إليه تصيرون للحساب والجزاء يوم القيامة.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٩)

فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ: ثم خلقهن مستويات لا صدع فيها ولا فطور.

المعنى: إن الله تعالى خلق لكم الأرض وما فيها لتنتفعوا بكل ما فيها، وتعتبروا بأن الله هو الخالق الرازق، ثم وجه إرادته إلى السماء فصيرهن وقضاهن سبع سموات محكمة البناء وذلك دليل القدرة الباهرة، فسبحانه عالم بكل ما خلق وذرأ، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك (وهي أعظم منكم) قادر على إعادتكم؟... بلى إنه على كل شيء قدير.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠)

الملائكة: هم خلق من خلق الله أقدرهم على التشكل بأشكال مختلفة لا يأكلون ولا يشربون، دأبهم الامتثال والطاعة والعبادة والتسبيح ليلاً ونهاراً.

خَلِيفَةً : الخليفة من يخلف غيره وينوب عنه، فالله سبحانه وتعالى جعل الإنسان خليفة له في الأرض لكي يعمرها ويأمر بالعدل والإحسان والرحمة والسلام لكي يتعايش جميع المخلوقات عليها وليس لكي يدمرها ويفسدها وخلافه.

نُقَدِّسُ لَكَ: نطهر ذكرك عما لا يليق بك.

المعنى: أذكر يا محمد على قومك وأقصص حين قال ربك للملائكة إني خالق في الأرض ومتخذ فيها خليفة (يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها) وهو آدم أو قوماً يخلف بعضهم بعضا قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، فقالت الملائكة (على سبيل

التعجب والاستعلام): كيف تستخلف هؤلاء وفيهم من يفسد في الأرض بالمعاصي ويريق الدماء بالبغي والاعتداء!! ونحن ننزهك عما لا يليق بك متلبسين بحمدك، ونعظم أمرك ونطهر ذكرك مما نسبه إليك الملحدون، فقال الله (سبحانه وتعالى) لهم إني أعلم من المصالح ما هو خفي عليكم، ولي حكمة في خلق الخليفة لا تعلمونها.

هذا ولقد سبق أن سكن الجن الأرض (قبل خلق آدم) فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضا فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة فقاتلهم إبليس ومن معه من الجن المؤمن حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، ولذلك بعدها سمي إبليس "طاووس الملائكة"، قبل أن يفتتن ويأمره الله بالسجود لآدم فيرفض فتنزل عليه اللعنة ويطرده الله من الجنة هو وقبيله من نسله إلى يوم القيامة ويحق عليه العذاب.

وليس هذا اعتراضاً من الملائكة على الله تعالى، وإنما قالوا ذلك ليعرفوا الحكمة في العدول عن استخلافهم إلى استخلاف من شأنه أن يفسد في الأرض (كما سبق أن فعل الجن)، وهذا كسؤال المتعلم عما ينقدح في ذهنه من معلومات مشوشة يريد من معلمه أن يستفسر عنها لتصحيحها، حيث قال تعالى في وصف الملائكة وطاعتهم ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١)

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا: علمه أسماء الأشياء التي خلقها وألهمه معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها.

عَرَضَهُمْ: المسميات.

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ: في زعمكم أنكم أحق بالخلافة من آدم، فإن أدنى مراتب استحقاق الخلافة في الأرض معرفة أسماء ما فيها.

المعنى: بعد أن خلق الله تعالى آدم وعلمه أسماء الأشياء وخواصها (ليتمكن في الأرض وينتفع بها)، عرض هذه الأشياء على الملائكة وأطلعهم عليها وقال لهم: أخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين في دعوى أنكم أحق بالخلافة من غيركم... والحاصل أن الله تعالى أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة وخصه بالمعرفة التامة دونهم، وقوله تعالى للملائكة "إن كنتم صادقين"، فالملائكة لا تكذب ويفعلون ما يؤمرون، والمراد إن كنتم صادقين فيما قستم عليه الأحداث، أو فيما تنبأتم به من غيب فلا يعلم الغيب إلا الله تعالى، فالقياسان للملائكة جانبهما التوفيق، والذي جعل الملائكة تقول هذا هو حبهم الشديد لله وكراهيتهم إفساد الكون.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٢)

قالت الملائكة: ننزهك يا ألله عن النقص، ونحن لا علم لنا إلا ما علمتنا إياه، فإنك لا تخفى عليك خافية، والذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة فسبحانك العالم بكل شيء والحكيم في كل تدبير.

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٣)

المعنى: قال المولى عز وجل يا آدم أعلمهم بأسماء الأشياء وخواصها وذواتها وصفاتها (التي عجزوا عن علمها)، واعترفوا بالقصور عن بلوغ مرتبتها، وقوله تعالى "أنبئهم" دون "أنبئني" إشارة قدسية إلى أن علم آدم (عليه السلام) بالأسماء ظاهر لا يحتاج إلى ما يجرى مجرى الامتحان، وإلى أنه جدير أن يعلم غيره فتكون له منه المعلم المفيد، وللملائكة مقام المتعلم المستفيد، كما أدرك الملائكة السر في خلافة آدم وذريته، وأنهم لا يصلحون لعمارة الأرض، لعدم استعدادهم للاشتغال بالماديات، والدنيا لا تقوم إلا بها، إذ هم خلقوا من النور، وآدم خلق من الطين فالمادة جزء منه.

وهنا قال عز وجل: ألم أقل أن علمي أحاط بكل شيء، وأعلم ما ظهر وما بطن وما تبدون وما تكتمون ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ وفي هذه الآيات دلالة على شرف الإنسان على غيره من المخلوقات وعلى فضل العلم على العبادة، فإن الملائكة أكثر عبادة من آدم ولم يكونوا أهلاً لاستحقاق الخلافة، وعلى أن شرط الخلافة العلم... بل هو الركن المكين فيها، وعلى أن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم، والأفضل هو الأعلم بدليل قوله تعالى " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ"، وفي هذا أعظم تمجيد للكلمة المنطوقة والمكتوبة، وفي حديث عن الرسول (ﷺ) "أن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم"، أي تخضع وتتواضع لأهل العلم خاصة من بين سائر أعمال الله.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٤)

اسْجُدُوا: السجود الخضوع والانقياد، والمراد في الآية سجود التحية والتعظيم لا سجود العبادة.

إِبْلِيسَ: واحد من الجن، وقيل أبوهم أو زعيمهم.

الْكَافِرِينَ: العاصين الذين رفضوا الإذعان لأمر الله.

المعنى: فقد أشارت الآيات السابقة إلى أن الله تعالى خص آدم (عليه السلام) بالخلافة، كما خصه بعلم غزير وقفت الملائكة عاجزة عنه، وأضافت هذه الآية الكريمة نوع آخر من التكريم لآدم أكرمه الله به، ألا وهو أمر الملائكة بالسجود له، وذلك من أظهر وجوه التشريف والتكريم لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أصل البشرية آدم عليه السلام.

واذكر يا محمد لقومك وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تحية وتعظيم (لا سجود عبادة وتأليه كما يفعل الكفار مع أصنامهم)، فسجد الملائكة جميعاً إذعانا

لمشيئة الله وامتثالاً لأمره، إلا إبليس فإنه امتنع عن السجود وترفع واستكبر عن تنفيذ أمر الله، وصار من الكافرين العاصين برفض الانقياد لأمر الله لزعمه أنه أفضل من آدم، وكلمة إبليس مشتق من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله تعالى.

والملائكة هنا لم يسجدوا لآدم... ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم... وفرق كبير بين السجود لشيء، وبين السجود لأمر الله... فالسجود لأمر الله تعالى لا يعتبر خروجاً على المنهج، لأن الأساس هو طاعة الله وتنفيذ أمره... ولكن هل سجد كل الملائكة لآدم؟... لا وإنما سجد لآدم الملائكة الذين لهم مهمة معه، وتلك المهمة أوضحها قوله تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ الانفطار: ١٠-١٢. وقوله تعالى ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ق: ١٨.

فهناك من الملائكة من سيسجل على الإنسان أعماله، وكل قول يقوله، وكل فعل يفعله، بل ويكتبون هذه الأفعال، ومنهم من يحفظه من الشياطين، ومنهم من ينفذ أقدار الله في الأرض... هؤلاء جميعاً لهم مهمة مع الإنسان... ولكن الأمر بالسجود لم يشمل أولئك الملائكة العالين (من حملة العرش وحراس السماء وغيرهم ممن ليست لهم مهمة مع الإنسان)، ولذلك عندما رفض إبليس السجود قال له الله تعالى ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ص: ٧٥.

فقوله تعالى " كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ " أي كنت من الملائكة العالين الذين لم يشملهم أمر السجود... إذن فأمر السجود لأدم كأمر الله لنا بالسجود إلى القبلة في الصلاة... فنحن لا نسجد للقبلة ذاتها... ولكننا نسجد لأمر الله بالسجود إلى القبلة... فقد سجد الملائكة (الذين شملهم أمر السجود) لأمر الله سبحانه تعالى، ولكن إبليس رفض أن يسجد وعصى أمر الله... وذلك كله تنفيذا لمشيئة الله ومراده في الكون... من عصيان الشيطان لأمره سبحانه ويصبح من الكافرين مصيرهم جهنم ولكي يؤدي مهمة أخرى في الحياة هي الوسوسة للإنسان ليضله عن سبيل

الرشاد ويكون شريكه في جهنم لكل من يتبعه... وبذلك سقط إبليس في الامتحان ولكن ماذا لو سجد إبليس لآدم؟... لو حدث هذا فسوف ترتفع منزلة إبليس (الذي يملك حق الاختيار وليس مجبولاً على الطاعة مثل الملائكة)، وسيصبح أفضل المخلوقات (فكما ارتفعت منزلته عندما حارب كفار الجن وانتصر عليهم وأعادهم للإيمان وأصبح طاووس الملائكة فستزداد منزلته مرة ثانية أيضاً ويصبح أفضل المخلوقات)... ولكن منزلة سيد الخلق أجمعين أرادها الله (سبحانه وتعالى) أن تكون لمحمد (ﷺ)... فهكذا تنفذ مشيئة الله وإرادته في الكون كله... فإبليس لم يمتنع عن السجود فقط... وإنما رد الأمر على الأمر (وهذا أول الكفر) عندما قال ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ الإسراء: ٦١، ثم بعد ذلك مضى في غيه، فتوعد آدم وذريته بأن يضلهم عن سبيل الله.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥)

رَغَدًا: أكلا هنيئاً واسعاً.

حَيْثُ شِئْتُمَا: في أي مكان أردتما.

وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ: ولا تأكلانها، حيث نهى عن قربان الشجرة مبالغة النهي عن الأكل منها.

فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ: العصاة الذين يظلمون أنفسهم بتعريضها للعذاب.

المعنى: وقلنا يا آدم إسكن في جنة الخلد مع زوجك حواء وتمتعا بما فيها وكلا من ثمارها وزرعها وأشجارها ما تشتهيان أكلاً هنيئاً مريئاً، ولكن لا تدنوا من هذه الشجرة ولا تأكلا منها وإلا كنتما من العصاة الظالمين لأنفسهما (وقيل أن الشجرة المقصودة كانت التفاح، وقد يكون المنع معنوي للاختبار).

ومن المعروف أن حواء خلقت من ضلع آدم (ومن غير أن يحس بذلك وبدون ألم)، فلما تنبه قيل له من الملائكة من هذه؟ قال: إمرأة قيل وما إسمها؟ قال: حواء، قيل ولم سميت إمرأة؟ قال: لأنها من المرء أخذت، قيل ولم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من حي، فقالوا أتحبها يا آدم؟ قال: نعم، قالوا لحواء: أتحبينه يا حواء؟ قالت: لا وفي قلبها أضعاف ما في قلبه من حبه، قالوا لو صدقت إمرأة في حبها لزوجها لصدقت حواء.

هذا والفترة التي عاش فيها آدم وحواء في الجنة كانت تطبيقاً عملياً لمنهج العبودية، حتى إذا ما خرج إلى مهمته لم يخرج بمبدأ نظري... بل خرج بمنهج عملي تعرض فيه لإفعل ولا تفعل... والحلال والحرام... وإغواء الشيطان والمعصية... ثم بعد ذلك يتعلم كيف يتوب ويستغفر ويعود إلى الله، وليعرف بنو آدم أن الله تعالى لا يغلق بابه في وجه العاصي... وإنما يفتح له باب التوبة... فتلك كانت تجربة عملية وتدريب عملي لآدم قبل هبوطه للأرض لممارسة حياته هو وذريته من بعده.

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٣٦)

فَأَزَلَّهُمَا: فأوقعهما الشيطان في المخالفة، من الزلة أي السقوط.

اهْبِطُوا: أي اهبطوا إلى الأرض (كلا من آدم وزوجه وإبليس).

مُسْتَقَرٌّ: مكان استقرار.

وَمَتَاعٌ : وتمتع.

إِلَىٰ حِينٍ: أي إلى وقت انقضاء أجالكم.

المعنى: ولكن إبليس وسوس لهما وحملهما على ارتكاب المعصية بسبب هذه الشجرة وزين لهما السوء بقوله " هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى " وقوله " ما

نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ "... وهكذا أخذ إبليس الحاسد الحاقد يحتال عليهما ويغريهما بالأكل من الشجرة حتى أكلا منها وعصوا أمر الله لهما، فأخرجهما الله مما كانا فيه من النعيم والتكريم بسبب عصيانهما، فلما أكلا منها أمرهما الله تعالى بالنزول إلى الأرض ليعيشا وذريتهما وإبليس وذريته ليباشروا مهمتهم متعادين مع البشر من بني الإنسان ولهم في الأرض مستقر ومتاع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣٧)

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ: أي استقبل آدم من ربه كلمات بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمه الله إياها ووفقه لها، وهذه الكلمات هي "سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت".

فَتَابَ عَلَيْهِ: التوب الرجوع، فإذا وصف به العبد كان رجوعاً عن المعصية إلى الطاعة، وإذا وصف به الله عز وجل أريد به الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة.

المعنى: وأحس آدم هو وزوجه بخطئهما، وأدركا ما وقعا فيه، فرجعا إلى الله تائبين منيبين، فتاب الله عليهما وغفر لهما، لأنه سبحانه وتعالى كثير القبول للتوبة، وهو الرحيم بعباده، ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى ألهم آدم التوبة والاستغفار فتاب عليه بينما لم يلهم إبليس التوبة فكان جزاءه مخلداً في النار.

هذا وفي قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود له (بسبب ميزة العلم الذي أعطاه الله لآدم).... وهذا درس كبير في موضوع اختيار القيادات... فقد أمر الرسول على الوفد رجلاً من أحدثهم سناً وليس أشرفهم لأنه يحفظ سورة البقرة.

ومن العبر التي نأخذها من قصة آدم وخروجه من الجنة إلى الأرض ما يلي:

١- أن الحياة امتحان للإنسان واختبار على صدق إيمانه، وأنه إذا وقع في معصية عليه أن يتوب إلى الله ليعفو عنه.

٢- أن الكِبْرُ (أي التكبر) هو بداية الخطأ، ولذلك قال الرسول (ﷺ) "لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كبر"، والكبر هو "غمط الناس وبطر الحق".

٣- أن امتحان الله رقيق، حيث أعطى آدم الجنة يستمتع بها كلها (عدا شجرة واحدة منعه منها)، وقد أباح لنا كل الطعام وحرم علينا لحم الخنزير والميتة والدم، وأباح لنا الشراب وحرم علينا الخمر... وإن حرص آدم على الخلود وطاعته لشهوة الطعام كانا سبب الخطيئة.... وهذا دأب الإنسان في كل العصور... فهو إما مغلوب بشهوة العز والمجد والرئاسة... وإما مغلوب بشهوة الفرج والبطن... فيسلك في هذا أو ذاك غير طريق الله إلا القليل... نسأل الله أن يجعلنا من أهله، وأن يحفظنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

٤- أن الخطيئة فردية، والتوبة فردية في قصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض... فليس هنالك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (٤٠)

إِسْرَائِيلَ : لقب يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، ومعناه صفي الله أو عبد الله.

اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ: أي قوموا بشكر نعمي عليكم.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِي: بالإيمان والطاعة.

أُوفِ بِعَهْدِكُمْ: بحسن الإثابة.

وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ: أي فخافون في نقضكم العهد.

المعنى: هذا خطاب لطائفة خاصة من الكفرة المعاصرين للنبي (ﷺ) ذكرهم فيه بنعمه عليهم (التي تقتضي الشكر عليها بالإيمان)، فقال تعالى: يا بني يعقوب كونوا مثل أبيكم في إتباع الحق، واذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون ففلق البحر لكم وأغرق فرعون، وظلل عليكم الغمام، وأنزل عليكم المن والسلوى في التيه، وأنزل على موسى التوراة وعفا عن اتخاذكم العجل، والمراد بذكر هذه النعم القيام بشكرها وامتثال أوامر الله الذي أسداها، وكذلك أمرهم الله بالوفاء بالعهد الذي أخذه عليهم وأقروه على أنفسهم (وهو الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر والعمل الصالح) حتى يوفي الله بعهده لهم (وهو حسن الثواب والنعيم المقيم)، كما أمرهم أن لا يخافوا غيره ولا يحذروا سواه، وأن يبتعدوا عن أسباب نقمته ونكاله.

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (٤١)

بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ: أي القرآن الذي جاء موافقا لما في التوراة التي بين أيديكم.

وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا: المراد به الاستبدال والثمن القليل هو حظوظ الدنيا وشهواتها.

المعنى: وآمنوا بالقرآن الذي أتى موافقاً التوراة التي معكم في الأصول العامة للدين، ولا تكونوا يا أهل الكتاب أول الناس في الكفر به فأنتم أحق بالإيمان لأن عندكم في التوراة دليل صدق الرسول محمد (ﷺ)، ولا تستبدلوا بالقرآن وهدايته ثمناً زهيداً رغبة في حظوظكم الدنيوية (من رياسة أو مال أو جاه أو حظوة أو خوف أو سطوة)، ولا تخافوا أحدا سوى الله.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٢)

وَلَا تَلْبِسُوا: لا تخلطوا.

نهاهم الله (سبحانه وتعالى) في الآية السابقة عن إنكار القرآن وصفة محمد الموجودة عندهم في التوراة.

وفي هذه الآية ينهاهم جل شأنه أن لا يكتبوا في التوراة ما ليس فيها فيختلط الحق المنزل بالباطل الذي كتبوه حتى لا يتميزا، ونهاهم أن لا يكتموا وصف النبي والبشارة به التي هي حق (وهم يعلمون ذلك)... فالنهي الأول عن التغيير، والثاني عن الكتمان للحق.

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٤٣)

وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ: وصلوا مع محمد وأصحابه (وفيه حث على إقامة الصلاة في الجماعة)، والركوع هنا بمعنى الصلاة.

المعنى: أمرهم الله (سبحانه وتعالى) أن يقيموا الصلاة ويداوموا عليها بقلب خاشع وإخلاص، وأن يؤدوها بأركانها وشرائطها كاملة غير منقوصة لتطهر نفوسهم وتزكو قلوبهم، كما دعاهم جل شأنه إلى إيتاء الزكاة التي هي مظهر شكر الله على نعمه والصلة العظيمة بين الناس (لما فيها من بذل المال لمواساة الفقراء والمساكين، ولما بين الناس من ضروب التكافل)، ثم بعد ذلك أمرهم جل شأنه بالركوع مع الراكعين (أي بالصلاة في جماعة مع المسلمين)، وقد حث على صلاة الجماعة لما فيها من تزكية النفس، وصفاء الجوهر، وخشوع القلب عند مناجاة الله عز وجل، وإيجاد الألفة بين المؤمنين.

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٤)

الْبِرِّ: التوسع في الخير (مأخوذ من البر وهو الفضاء الواسع).

سبب نزول هذه الآية:

نزلت في أحبار المدينة كانوا يأمرون غيرهم بالصدقة والثبات على الإسلام وإتباع محمد، ولا يتصدقون ولا يؤمنون به.

المعنـى: يخاطب الله أحبار اليهود فيقول لهم (على سبيل التقريع والتوبيخ) أتطلبون من الناس أن يتوسعوا في الخير وأن يمتثلوا أوامر الله والإيمان بمحمد ويتجنبوا المعصية، ثم لا تعملون أنتم أنفسكم بما تنصحون به الناس، فإذا كنتم موقنين بوعد الكتاب على البر ووعيده على تركه فكيف نسيتم أنفسكم وغفلتم عما ينبغي أن تفعلوه، فإن الأمر بما لا يعمل به تكون الحجة قائمة عليه بلسانه، وفي ذلك تضييع لأنفسكم (كأنكم تنسونها) مع أنكم تقرأون التوراة وفيها التهديد والوعيد على مخالفة القول بالعمل... أعميتم عن رؤية الحق والتوت عقولكم عن إدراك هذا التصرف السيئ؟... وأخرج الإمام أحمد عن رسول الله (ﷺ) "مررت ليلة أُسري بي على قوم تقرض شفاهم بمقاريض من نار"، قال: قلت من هؤلاء؟ قال: خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟".

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (٤٥)

الصَّبْرِ: حبس النفس على ما تكره.

وَإِنَّهَا: أي الصلاة.

لَكَبِيرَةٌ: لشاقة وثقيلة.

إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ: الخاضعين لله.

والمعنى: واستعينوا على أداء التكاليف والتزام الطاعات بالصبر والصلاة فإنهما جلاء القلوب والأرواح، واستعينوا بها أيضا على أنفسكم الأمارة بالسوء، وأن الصلاة الشاقة صعبة الاحتمال إلا على المخبتين لله الخائفين من شديد نقمته وعذابه، لأنهم

مستغرقون في مناجاة ربهم (فلا يشعرون بشيء من المتاعب والمشاق)، لأنهم مترقبون ما ادخروا من الثواب فتهون عليهم المشاق، وقد قال الرسول (ﷺ) "وجعلت قرة عيني في الصلاة"، وكان يقول "أرحنا بها يا بلال" وكان إذا حزبه (أغمه) أمر فزع إلى الصلاة.

﴿الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٤٦)

يَظُنُّونَ : يستيقنون.

مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ: لقاء الله، هو الحشر إليه.

رَاجِعُونَ: صائرون إليه للحساب والجزاء.

المعنى: لا تثقل الصلاة على الخاشعين المخبيتين الذين يتوقعون الوقوف بين يدي الله يحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم إن خيرا فخير وإن شراً فشر.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧)

وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ: أي على عالم زمانكم.

المعنى: يريد أن يقول تعالى لهم يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت بها على آبائكم وعليكم بالشكر عليها بطاعتي، وأني فضلت آبائكم على عالمي زمانهم بإرسال الرسل والأنبياء أكثر من غيرهم من الأمم، وكذا إنزال التوراة عليهم وجعلهم سادة وملوكاً، وتفضيل الآباء شرف للأبناء وفخر لهم.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٨)

وَاتَّقُوا يَوْمًا : واخشوا عذاب يوم.

شَـفَاعَةٌ: الشفاعة من الشفع ضد الوتر، لأن الشفيع ينضم إلى الطالب في تحصيل ما يطلب فيصير معه شفعا بعد أن كان وترا.

عَدْلٌ: فدية.

وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ: أي ولا ينصرهم أحد من الله فيمنع عنهم عذابه.

المعنى: وخافوا يوماً ترجعون فيه إلى الله للحساب والجزاء، حيث توفي كل نفسي بما كسبت، وكل امرئ بما كسب رهين، فليس الأمر كما تفهمون أن هناك شفعاء يشفعون لكم، (حيث لا تقبل يوم القيامة شفاعة من شافع ولا يؤخذ من نفس فداء)، ولا يستطيع أحد أن يدفع العذاب عن مستحقيه، لأن يوم القيامة تنقطع فيه الأسباب وتبطل منفعة الأنساب، ولا تجدي الشفاعة إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٤٩)

يَسُومُونَكُمْ: سامه العذاب أي أذاقه العذاب.

سُوءَ الْعَذَابِ: العذاب السيئ الشديد.

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ: أي ترك البنات أحياء للخدمة.

بَلَاءٌ : اختبار.

المعنى: اذكروا أيها اليهود المعاصرون للنبي محمد (ﷺ) النعم التي أنعم الله بها على آبائكم (وهي نعم عليكم أيضاً بالطبع) ومنها أن أنجاهم من ظلم فرعون وأعوانه الذين كانوا يذيقونهم أشد العذاب، حيث يقتلون أبنائهم الذكور ويستبقون البنات للخدمة (إهانة وإذلالاً لهم حتى ينقرض الشعب اليهودي)، وذلك لأن فرعون رأى في منامه ناراً انبعثت من بيت المقدس وأحاطت بمصر، فانزعج من هذه الرؤيا

وفسرها الكهنة له بأنه سيولد ولد من بني إسرائيل يذهب ملك فرعون على يديه، فأمر بقتل ذكور بني إسرائيل وترك البنات للخدمة.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (٥٠)

فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ: فلقنا لكم البحر، والمراد جعلنا في البحر طريقا تعبرون عليه إلى الشاطئ الآخر.

المعنى: واذكروا أيضاً من النعم التي أنعمت بها عليكم أني جعلت لكم في البحر طريقاً يبسا سلكتموه حتى عبرتم سالمين وبفضل الله نجوتم، وانتقمت لكم من عدوكم فأغرقناهم أمام أبصاركم وأنتم ترونهم وهم يغرقون والبحر ينطبق عليهم عقب خروجكم منه.

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥١)

المعنى: ولقد وعدنا موسى أن نعطيه التوراة بعد أربعين ليلة، وكان ذلك بعد أن اجتاز بني إسرائيل البحر سالمين سألوا موسى أن يأتيهم بكتاب من عند ربهم، فواعده ربه أن يعطيه التوراة وضرب له ميقاتاً لذلك، وقد ورد أنه ذو القعدة وعشر ذي الحجة، فاستبطأوه واتخذوا عجلاً من ذهب له خوار (صنعه السامري)، فعبدوه وظلموا أنفسهم بإشراكهم ووضعهم للشيء في غير موضعه بعبادة العجل وترك عبادة الخالق العظيم.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥٢)

المعنى: ثم عفونا عنكم ومحونا عقوبتكم بقبول توبتكم ولم نهلككم لعلكم تشكرون ربكم على عفوه وفضله، فإن الإنعام يوجب شكر المنعم على نعمه.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥٣)

الْكِتَابَ: التوراة

الْفُرْقَانَ: الآيات التي أيد الله بها موسى ودلت على صدق نبوته وبها يفرق بين الحق والباطل.

المعنى: واذكروا نعمة إنزالنا التوراة على نبيكم موسى والآيات الباهرة التي أيدناه بها لتهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما تحويه من الشرائح وتسترشدوا بنورها.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٤)

بَارِئِكُمْ: خالقكم

فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ: كان في شريعتهم أن يقتل التائب من الردة.

المعنى: واذكروا يوم قال لكم رسولكم موسى: يا قوم إنكم باتخاذكم عجل السامري إلها قد أضررتم بأنفسكم ومنعتموها ما تستحق من إثابة عند الله، فتوبوا إلى خالقكم وليقتل البرئ منكم المذنب، (حيث كانت توبتهم أن يقتل من لم يعبد العجل من عبده)، والمعنى فليقتل بعضكم بعضاً (وقيل أنه قتل منهم خلق كثير)، وقد فعلتم ما أمركم به موسى فقبل الله توبتكم وتجاوز عن سيئاتكم، إنه هو التواب كثير التوبة على عباده، وواسع الرحمة بهم.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (٥٥)

جَهْرَةً: عيانا رؤيا العين.

الصَّاعِقَةُ: نار انقضت من السماء عليهم فأحرقتهم.

سبب نزول الآية: روي أن سبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل الذين ذهبوا مع موسى (عليه السلام) للميقات للاعتذار لله عن عبادتهم للعجل، وخرج بهم إلى طول سيناء، فقالوا له: إنك رأيت الله تعالى، فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فبعث الله عليهم صاعقة فأحرقتهم (لأن امتناعهم عن الإيمان بموسى بعد ظهور معجزته حتى يروا ربهم جهرة كفر)، فلما هلكوا جعل موسى (عليه السلام) يبكي ويتضرع إلى الله ويقول: إلهي ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد هلك خيارهم، لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي... أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟... فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم مرة أخرى بعد أن مكثوا ميتين يوماً وليلة.

المعنى: واذكروا وقت أن قال آباؤكم لموسى لن نؤمن بالله وأنك رسوله حتى نرى الله عياناً بلا حاجز يحجبه عن أبصارنا... فانقضت عليهم صاعقة من السماء فأحرقتهم بنارها جزاء عنادهم وطغيانهم وطلبهم ما يستحيل وقوعه لهم وهم ينظرون حالهم وما أصابهم من عذاب.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٥٦)

بَعَثْنَاكُمْ : أحييناكم

المعنى: ثم أحيينا آباؤكم بعد موتهم (ليستوفوا بقية آجالهم المقدرة لهم)، ولكي يشكروا نعمة الله على ذلك، ويعتبروا ويؤمنوا بأن الله قادر على كل شيء، هذا وشكر الله المطلوب من اليهود المعاصرين للرسول هو الإيمان بالله وكتبه وبمحمد (ﷺ)، وتقديم العمل الصالح.

كما أن الإنعام على الآباء يعتبر إنعام على الأبناء (لأنهم من أصلابهم) فوجب عليهم أن يشكروا نعمة الله بالإيمان، وأن يتركوا العناد والكفر.

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٥٧)

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ: أي جعلنا الغمام يستركم كالمظلة من حر الشمس. والغمام هو السحاب الرقيق.

الْمَنَّ: شيء لزج حلو كالعسل وهو الترنجبين، وقيل أن المن نقط حمراء تتجمع على أوراق الشجر (بين الفجر وطلوع الشمس)، وهي موجودة حتى الآن بالعراق، وفي الصباح الباكر يأتي الناس بالملاءات البيضاء ويفرشونها تحت الشجر، ثم يهزون الشجر بعنف فتسقط القطرات الموجودة على ورق الشجر فوق الملاءات، فيجمعونها وتصبح من أشهى أنواع الحلويات فيها طعم القشطة وحلاوة عسل النحل، وهي نوع من الحلوى اللذيذة المغذية سهلة الهضم وسريعة الامتصاص في الجسم.

السَّلْوَى: نوع من الطير معروف هو السمان.

المعنى: ومن النعم التي أنعمنا بها عليكم أن جعلنا السحاب يظللكم حين جاوزتم البحر وسرتم في الصحراء وأصابكم الحر الشديد (من شدة الشمس) حتى دخلتم أرض الميعاد، كما أنزلنا عليكم المن (وهو الحلوى الطيبة)، وكذا أنزلنا عليكم السلوى (وهو السمان وكان يأتيهم بأسرابه بكرة وعشية)، لتأكلوا وتتمتعوا من طيبات ما رزقناكم... فلم تقدروا تلك النعم العظيمة وكفرتم بها، فظلمتم أنفسكم (حيث عرضتموها لعذاب الله)، وما عاد ضرر ذلك إلا عليكم.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٨)

الْقَرْيَةَ: المراد بها بيت المقدس.

رَغَدًا: أكلا هنيئا.

وَادْخُلُوا الْبَابَ: باب المدينة.

سُجَّدًا: متواضعين متذللين لله تعالى على تفضله عليكم بإخراجكم من التيه.

حِطَّةٌ: أي حط عنا خطايانا.

المعنى: واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل نعمتي عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التيه أدخلوا بيت المقدس وكلوا واشربوا مما فيها أكلاً هنيئاً واسعاً بغير حساب، وادخلوا بيت المقدس خاشعين متذللين ساجدين لله شكرا على خلاصكم من التيه، وقولوا ربنا حط عنا ذنوبنا واغفر لنا خطايانا، فإذا فعلتم ذلك، استجبنا دعاءكم وكفرنا خطاياكم، ومن كان محسنا مطيعاً زدناه ثواباً وفضلاً فوق الصفح والمغفرة، ومن كان مخطئاً نغفر له خطيئته.

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (٥٩)

بَدَّلَ: غير

قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ: قيل لهم قولوا حطة فقالوا حنطة.

رِجْزًا : عذابا وكان طاعونا بالإضافة إلى الصاعقة والهدم والغرق لهم.

بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ: بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله.

المعنى: غير هؤلاء الظالمون ما أمرهم الله به (وهو أن يدخلوا خاشعين متذللين) فدخلوا يزحفون على أستاههم (أي أدبارهم)، وقالوا (على سبيل الاستهزاء) "حبة في شعيرة من حنطة حمراء"، بدل أن يطلبوا من الله أن يحط عنهم سيئاتهم وسخروا من أوامر الله، فقالوا حنطة بدل حطة (أي القمح) ليطوعوا اللفظ لأغراضهم ومخالفة ربهم، فكان جزاؤهم أن أنزل الله عليهم عذابا شديداً من السماء وإفشاء مرض الطاعون بينهم، وذلك بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله، وروى أنه مات بالطاعون في ساعة واحدة سبعون ألفاً.

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٦٠)

اسْتَسْقَىٰ: طلب السقيا.

فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا: سال الماء بكثرة من هذه العيون، وكانت بعدد القبائل التي كانت مع موسى.

وَلَا تَعْثَوْا : ولا تفسدوا.

المعنى: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم حين طلب موسى (عليه السلام) السقيا لآبائكم وقت أن عطشوا في التيه واحتاجوا للماء، فقال الله: يا موسى إضرب بعصاك أي حجر فتنفجر بقدرتنا العيون منه، فضرب موسى الحجر فتدفق الماء منه بقوة، وخرجت منه اثنتا عشرة عينا (بقدر قبائلهم) وعلمت كل قبيلة مكان شربها لكي لا يتنازعوا، وقلنا لهم: كلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء من غير كد منكم ولا تعب، بل هو من خالص إنعام الله، ولا تنشروا فسادكم في الأرض فتكونوا أمثلة سيئة لغيركم في كفران النعمة.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٦١)

لَن نَّصْبِرَ: الصبر حبس النفس.

عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ: هو المن والسلوى.

بَقْلِهَا: البقل كل ما اخضرت به الأرض من البقول والخضروات.

قِثَّائِهَا: الخيار والقثاء.

وَفُومِهَا: الثوم.

أَدْنَىٰ: أقل مرتبة.

بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ: يريد المن والسلوى فإنه خير في اللذة والطعم وعدم الحاجة إلى السعي، كما أن السلوى بروتين حيواني سهل الهضم ويمتصه الجسم ويستفيد به بدرجة أعلى من البروتين النباتي (الموجود في البقوليات).

اهْبِطُوا مِصْرًا: انزلوا من التيه إلى مصر من الأمصار، والمراد به أي بلد زراعي.

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ: ألصقت بهم الذلة وجعلت لازمة لهم.

المعنى: واذكروا أيها اليهود يوم أن أخذ الغرور آبائكم فقالوا لموسى: إننا لن نصبر على نوع واحد من الطعام (هو المن والسلوى فقط)، فإدع لنا ربك كي يخرج لنا مما تنبته الأرض من بقلها الأخضر وقثائها وخيارها وعدسها وفومها وبصلها، فتعجب موسى من ذلك وأنكره عليهم، فقال لهم: أتفضلون هذه الأصناف على ما هو أحسن (يقصد المن والسلوى حيث البروتينات من أصل حيواني ألذ طعماً وأسهل هضماً ودرجة امتصاص الجسم لها أكثر من البروتينات من أصل نباتي بالإضافة إلى أن البروتين الحيواني أغلى ثمناً).

وقال لهم موسى: إنزلوا من سيناء إلى أي بلد زراعي تجدوا فيه ما تريدون من البقول وخلافه.

وبسبب هذا البطر والجحود عاقبهم الله (سبحانه وتعالى) على كفران تلك النعم وعدم شكرهم لله بالذل والاستكانة، واستحقوا غضب الله بما حل بهم من البلاء والنكال في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة، وذلك نتيجة لكفرهم بآيات الله التي أتاها موسى عليهم ولم تؤثر في نفوسهم، وقيامهم بقتل الأنبياء (مثل أشعياء وزكريا ويحيى وغيرهم) حيث قتلوهم عامدين مخالفين لما شرع الله لهم في شريعتهم.

توضيح علمي لهذه الآية:

تشير هذه الآية إلى أكثر من حقيقة علمية معروفة في الغذاء والتغذية في الوقت الحالي وذلك كما يلي:

١- تشير إلى أهمية البروتينات التي من أصل حيواني (المن والسلوى) عن البروتينات من أصل نباتي، حيث البروتينات من أصل حيواني ألذ وأجمل طعماً وأسهل هضماً، وجميع ما باللحم من البروتين قابل للامتصاص بعكس بروتينات البقول (مثل الفول والعدس والبسلة والفاصوليا واللوبيا) صعبة الهضم والامتصاص.

٢- كما تشير الآية إلى أهمية التنوع في الغذاء، ليشمل المواد البروتينية (مثل السلوى وهو طائر السمان)، والمواد الكربوهيدراتية (مثل المن)، بالإضافة إلى بقية العناصر الأخرى والفيتامينات التي يحتاجها جسم الإنسان.

٣- تشير الآية إلى أهمية البقول (مثل الفول البلدي والبسلة والفاصوليا والعدس واللوبيا وخلافه)، ومثال ذلك:

يعتبر الفول الأخضر غذاء حسن، أما الفول الجاف فيكتسب قيمة غذائية كبرى، وهو غذاء شعبي شائع الاستعمال، فهو يستعمل مدشوشا في البصارة والطعمية (الفلافل)، أو منبتا (كالفول النابت وهو الأعلى في القيمة الغذائية)، أو مطبوخاً أو مدمساً (الفول المدمس)،... والفول بأنواعه ومنتجاته يستعمل صيفاً وشتاء، وهو الطعام اليومي لمعظم فئات الشعب المصري وخاصة الكادحين.

ويحتوي الفول على ١٢.٥% ماء، بروتين ٢٥%، كربوهيدرات ٤٦%، بالإضافة إلى عناصر الكالسيوم ٦٠ ملليجرام، وحديد ٢.٥ ملليجرام، وفوسفور ١٤٠ ملليجرام، وفيتامينات أ ، ب ، ج، ويعطي طاقة حرارية ٢٩٥ سعر حراري وذلك لكل مائة جرام منه.

والفول المدمس غني بالبروتين، ويفضل زيادة فائدته بإضافة إليه عصير الليمون وزيت نباتي وطماطم وبصلة وفص ثوم، بينما الفول الأخضر يفيد مرضى السكر ويفيد المصابين بالرمل والحصى بالكليتين، كما أنه يدر الصفراء ويخفف التهابها، وعصير الفول المصفى يفيد الأطفال والناقهين كذلك المعدة الضعيفة.

٤- تشير الآية إلى أهمية الخضروات (القثاء والخيار) ومثال ذلك: يعتبر الخيار من ثمار الخضروات التي يشتد الإقبال عليها، وقد يؤكل طازجاً أو مخللاً، ويحتوي ١٠٠ جرام منه على: بروتين ٠.٩%، دهون ٠.٠٢%، ونشويات ١٧ جرام، وعناصر الكالسيوم ٣٢ ملليجرام، وبوتاسيوم ٨٠ ملليجرام، وفيتامينات أ ١٨٠ وحدة، وفيتامين ب$_1$ ٠.٠٢ ملليجرام، ب$_2$ ٠.٠٤ ملليجرام، وفيتامين ج ٩ ملليجرام، ويعتبر الخيار مدر للبول ومنق للدم ومفيد في حالات ارتفاع ضغط الدم، وينمي الشعر ويعالج أمراض اللثة، وينقي الجسم من السموم ويفيد مرضى السكر، ويسكن العطش، ويفيد في جمال بشرة المرأة (حيث ينقي جلد الوجه ويكسبه نضارة) وخلافه.

٥- تشير هذه الآية إلى أهمية الثوم (الفوم): حيث يعتبر الثوم مضاد للسموم (خاصة سم الثعابين)، واعتبره القدماء من المصريين والرومان واليونانيين مصدرا للقوة، وذكره الأنطاكي في تذكرته وأوضح أن للثوم أربعين فائدة طبية وغذائية، وهو أفضل مضاد حيوي طبيعي، ويتركب كل ١٠٠ جرام من الثوم من: بروتين ٦.٢%، ودهون ٠.٢%، وكربوهيدرات ٣.٨%، وفيتامينات أ ، ب$_1$، ب$_2$، ج وحمض النيكوتنيك، ومادة الأليسين الهامة جداً في العلاج، بالإضافة إلى أملاح الكالسيوم والحديد والبوتاسيوم والفوسفور، كما يوجد به كبريتات الجلوكوسيد وزيوت طيارة، ومضادات حيوية (مثل اليسين والجاريسين) وخلافه، ومن أهم فوائده أنه يخفض

نسبة الدهون والكوليسترول بالدم، ويفيد مرضى ضغط الدم المرتفع وتصلب الشرايين، كما يستخدم كمادة مطهرة ضد السل والدفتريا وكمطهر للأمعاء ويوقف الإسهال الميكروبي، ويعالج التيفود، ويطهر الأمعاء من الديدان، ويعالج أمراض الكلى ويستخدم كمادة مطهرة للجروح، كما يعيق نمو الخلايا السرطانية، ويعالج الكحة والربو والسعال الديكي وغيره.

ويمكن التخلص من رائحته في الفم بشرب ملعقة كبيرة من عسل النحل، أو بمضغ البقدونس أو تناول تفاحة.

٦- تشير هذه الآية إلى أهمية العدس، حيث العدس من البقول المشهورة، ويكثر استعماله بين جميع الطبقات، وهو غذاء نباتي غني بالبروتين حيث تحتوي كمية ١٠٠ جرام من البذور على ٨.٥% ماء، ٢٧.٥% بروتين، ودهو ١.٩%، وكربوهيدرات ٥٤.٨%، وفيتامين أ ٥٧٠ وحدة، وفيتامين ب١ ٠.٥٦ ملليجرام، ب٢ ٠.٢٤ ملليجرام، وفيتامين ج ٥ ملليجرام، كما يحتوي على أملاح الكالسيوم والحديد بكثرة، ولذلك يطلق عليه لحم الفقراء، ومن أهم فوائده يعالج الأنيميا وانخفاض ضغط الدم (لاحتوائه على نسبة عالية من الحديد)، كما يفيد في حالات السعال وآلام البطن وقرحة المعدة والأمعاء، ومعرق ومدر للبول، ويسكن الحرارة، ويقوي المعدة والهضم وغيره.

تشير هذه الآية إلى أهمية البصل: والذي يعتبر من المواد الغذائية التي لا غنى عنها في طهي الطعام، أو أكله أخضر أو جافاً ويتركب البصل من ٨٦.٨% ماء، ١.٣% بروتين، ٠.٢% دهون، وكربوهيدرات ١٠.٣%، وفيتامين أ ٢٠ وحدة دولية، وفيتامين ب١ ٠.٢٣ ملليجرام، وفيتامين ب٢ ٠.١٥ ملليجرام، وفيتامين ج ٣٧ ملليجرام، ونياسين وفيتامين هـ، وحمض نيكوتينك، وأملاح الحديد والكالسيوم والفوسفور والصوديوم، واليود، والكبريت وزيوت طيارة وغيره، ويفيد البصل في تطهير الفم (عند مضغه هو أو الثوم لمدة ثلاث دقائق)، وفي تطهير الجروح، ويعالج أمراض القلب، ويقلل من نسبة الإصابة بتجلط الدم، كما يعالج مرض

السكر، ويفيد الجهاز العضمي، وطاردا للديدان عند الأطفال، ويعالج الربو، والزكام والأنفلونزا، وحالات كسل الكبد والتهاب المرارة، كما يستعمل البصل من الخارج في حالات السنط الجلدي (الزوائد الجلدية)، وفي حالات الصداع النصفي، والالتهابات الروماتيزمية واحتباس البول وغيره.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢)

وَالَّذِينَ هَادُوا: أي اليهود، وهم نسبوا إلى يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب، وسموا بذلك لأنه هاد (أي تاب وذلك لتوبتهم عن عبادة لعجل)، ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبنا إليك.

وَالنَّصَارَى: النصارى سموا بذلك لقرية الناصرة بفلسطين التي كان ينزلها عيسى (عليه السلام)، فنسب إليها عيسى الناصري، فلما نسب أصحابه إليه قيل النصارى، وقيل سموا بذلك لنصرة بعضهم بعضا، وقيل سموا بذلك لقوله تعالى ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

وَالصَّابِئِينَ : قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة والكواكب وآمنوا بالدين الجديد.

المعنى: بعد أن ذكر الله تعالى اليهود بما فعل آباؤهم قديماً وبين عاقبة أمرهم ليعتبر المعاصرون ويتعظوا، دعا أصحاب الملل والنحل "المؤمنين، واليهود والنصارى، والصابئين" إلى الإيمان الصادق وإخلاص العمل لله، وساقه بصيغة الخبر فقال "إن الذين آمنوا" والمؤمنون هم أتباع محمد، "والذين هادوا" هم اليهود أتباع موسى، والنصارى أتباع عيسى، والصابئين قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة، فمن آمن من هذه الطوائف إيماناً صادقاً فصدق بالله، وأيقن بالآخرة وعمل بطاعة الله في دار الدنيا، فلهم ثوابهم عند الله لا يضيع مثقال ذرة

وليس عليهم خوف في الآخرة، حيث يخاف الكفار من العقاب ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٦٣)

مِيثَاقَكُمْ: الميثاق العهد المؤكد بإتباع موسى والعمل بالتوراة.

وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ: الطور هو الجبل المعروف في سيناء والذي كلم الله عليه موسى (عليه السلام)، ورفعه إعلاؤه عن مقره.

بِقُوَّةٍ: بجد ونشاط.

وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ: أي أحفظوا ولا تنسوا ما في التوراة من الأحكام والثواب والعقاب وخلافه.

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ: ليكون ذلك وقاية لكم في الدنيا من الهلاك، والعذاب في الآخرة.

المعنى: اذكروا يا بني إسرائيل وقت أن أخذنا العهد المؤكد على آبائكم بأن يؤمنوا بما في التوراة، فلما رأوا ما فيها من التكاليف الشاقة وأبوا قبولها، أمرنا جبريل فرفع جبل الطور وظلله فوقهم إرهاباً وتخويفاً، وأمرناهم بأن يقبلوا ما آتيناهم ويأخذوه بجد وعزيمة لأن فيه الخير لهم، وأن يدرسوا الكتاب ولا ينسوه، ويتدبروا معانيه ويعملوا بما في التوراة من الأحكام، فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخاً في النفس، وقد أمرهم الله (سبحانه وتعالى) بذلك لكي يصونوا أنفسهم من العذاب ويجعلوا بينهم وبينه وقاية.

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٦٤)

تَوَلَّيْتُم : أعرضتم عن الوفاء بالميثاق.

فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ: أي بتأخير العذاب عنكم، أو بتوفيقكم إلى التوبة.

الْخَاسِرِينَ: الهالكين.

المعنى: ثم إنهم أعرضوا من بعد ذلك وانصرفوا عن طاعة الله، بعد أن أخذ عليهم العهد المؤكد وأراهم من الآيات مما فيه عبرة لمن يعتبر، ولولا لطف الله ورحمته بهم وإمهاله إياهم (إذا لم يعاملهم بما يستحقون) لكانوا من الضالين الهالكين في متاهات العذاب بسبب عصيانهم واعتدائهم.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (٦٥)

اعْتَدَوْا: تجاوز الحد

السَّبْتِ: اليوم المعروف من أيام الأسبوع، وأصل السبت الهدوء والسكينة.

خَاسِئِينَ: مطرودين من رحمة الله.

المعنى: لقد عرفتم نبأ الذين تجاوزوا من آبائكم الحد الذي رسمه لهم الكتاب بصيد السمك يوم السبت، وما نهوا فيه عن العمل الدنيوي والتفرغ للعمل الأخروي، والتجرد فيه للعبادة، وقد ابتلاهم الله بأن كانت حيتانهم تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة قريبة من الساحل، ويوم لا يسبتون لا نأتيهم (اختباراً وامتحاناً لهم)، فاحتالوا على الصيد يوم السبت وخالفوا النهي، وعصوا الله، فكان جزاؤهم على ارتكاب خطيئة الصيد يوم السبت وانشغالهم به عن العبادة أن حكم الله عليهم بأن يكونوا في صور القردة بعيدين عن رحمة الله، فجعل عقوبتهم هذه عبرة وعظة للمتقين الذين يخافون عذاب ربهم.

ويرى بعض المفسرين (مثل ابن كثير) أن المسخ معنوي لهم، وما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فلا تقبل وعظاً ولا تعي زجراً.

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٦)

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا: أي جعلنا عقوبتهم بالمسخ عظة وعبرة لغيرهم.

لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا: من القرى التي كانت عامرة في الحال.

وَمَا خَلْفَهَا: وما بعدها من الأمم.

وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ: الموعظة ما يلقى من الكلام لاستشعار الخوف من الله بذكر ثوابه وعقابه للمتقين (الذين يخافون عذاب ربهم).

المعنى: فجعلنا هذه الحال التي آلوا إليها تحذيراً لغيرهم من أن يقتدوا بهم ويفعلوا مثل فعلهم، وصيرناهم عبرة لمعاصريهم ومن يأتي بعدهم، كما جعلنا عقوبتهم هذه موعظة للذين يخشون عذاب ربهم لأنهم هم الذين يعتبرون وينتفعون بالزواجر والعظات.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٦٧)

هُزُوًا: الهزء هو السخرية.

الْجَاهِلِينَ: أي السفهاء والمراد المستهزئين في موضع الجد لأن ذلك سفه.

سبب النزول: روى أنه كان في بني إسرائيل رجل عقيما ليس له أبناء، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله، ووضعه على باب رجل منهم، وأصبح يدعيه عليهم بأنهم قتلوه ويطلب ديته، وتخاصموا في ذلك واستعدوا للقتال، فذكروا ذلك لموسى (عليه السلام)، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة وأن يضربوا القتيل ببعض أجزائها فيحيا ثم يخبر عن القاتل، وقد ذبحت البقرة وضربوا القتيل فأحياه الله وأخبر عن

القاتل (وكان ابن أخيه) بالإشارة إليه ثم مال ميتا، فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد، وفي رواية "فأخذوا الغلام القاتل فقتلوه".

المعنى: اذكروا يا بني إسرائيل حين قال لكم نبيكم موسى إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فكان جواب آبائكم الوقح لنبيكم أن قالوا: أتهزأ بنا يا موسى؟، قال موسى التجئ إلى الله أن أكون من الذين يهزءون في موضع الجد وتبليغ أحكام الله.

وفي هذه القصة مثال نأخذ منه العظة والعبرة، وهو كثرة الإلحاف في السؤال مما يقتضي التشديد في الأحكام، ومن ثم نهينا عن ذلك بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ المائدة: ١٠١.

وأنهم أمروا بذبح بقرة (أي بقرة كانت)، لأنها من جنس ما عبدوه (وهو العجل) ليهون عليهم ما كانوا يرون من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم ما كان في نفوسهم من حب عبادته.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٨)

فَارِضٌ: الفارض المسنة التي انقطعت ولادتها.

وَلَا بِكْرٌ: البكر الصغيرة التي لم تحمل بعد.

عَوَانٌ: والعوان متوسطة السن.

المعنى: فلما رأوه جادا في طلبه وأن ذلك من أمر ربه، قالوا أرسل لنا ربك عن سنها، فقال لهم: إنها بقرة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة بل هي وسط بينهما، فامتثلوا لأمر الله وقوموا بتنفيذه... ولا يخفى ما في هذا من التحذير والتنبيه على ترك التعنت، وكان يجب عليهم عدم التشدد والإلحاف في السؤال، والمبادرة إلى الطاعة، ولكنهم أبوا إلا إلحافا واستقصاء دون مبرر.

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ (٦٩)

فَاقِعٌ لَّوْنُهَا: لونها أصفر ناصع (شديد الصفرة).

المعنى: شددوا فشدد الله عليهم، حيث سألوا عن لون البقرة المراد ذبحها، فأجابهم موسى بأن الله يقول: إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة تعجب الناظرين إليها (من صفاء لونها)، وتجلب السرور لمن يشاهدها، وفي هذا تشديد عليهم لأنهم ضيقوا على أنفسهم الخناق، وتعنتوا في السؤال وطلب التحديد، وكان يكفيهم أي لون لو امتثلوا من أول الأمر.

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ (٧٠)

المعنى: لم يكتفوا بما سألوا... بل تنطعوا وتشددوا في السؤال وجاوزوا الحد المعقول فقالوا معتذرين: إن البقر تشابه علينا، فادع لنا ربك يبين لنا شأن هذه البقرة، وإنا إن شاء الله لمهتدون إلى البقرة المراد ذبحها ولو لم يقولوا ذلك لم يهتدوا إليها أبداً.

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧١)

لَا ذَلُولٌ: أي بقرة مطيعة ومروضة.

تُثِيرُ الْأَرْضَ: أي تقلب الأرض للزراعة.

مُسَلَّمَةٌ: أي سليمة من العيوب، أو سليمة اللون أي خالصة الصفرة.

المعنـى: حين طلبوا من موسى زيادة الإيضاح، أجابهم موسى بأن البقرة التي أمروا بذبحها بقرة لم يسبق لها عمل في حرث الأرض ولا سقيها، وسالمة من العيوب، وليس فيها علامة ولا لون غير الصفرة الصافية والفاقعة فلما سمعوا ذلك قالوا: الآن جئتنا بالبيان الواضح، وأخذوا يبحثون عن البقرة المتصفة بهذه الأوصاف المتقدمة فلم يجدوها إلا عند يتيم صغير بار بأمه فساوموه فاشتط حتى اشتروها منه بملئ جلدها ذهباً، وما كان امتثالهم قريب الحصول لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٧٢)

فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا: أي فاختلفتم واختصمتم في شأنها وتدافعتم الجريمة بأن اتهم بها كل فريق غيره.

مُخْرِجٌ: مظهر.

مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ: ما تخفون وتسترون من أمر القتيل.

المعنى: وإذا قتلتم يا بني إسرائيل نفسا وتخاصمتم وتدافعتم بشأنها، وأصبح كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره، والله مظهر ما تخفونه من أمر القتل.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٣)

كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ: أي كما أحيا الله هذا القتيل بقدرته، فكذلك يحي الموتى يوم القيامة.

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ: يريكم دلائل كمال قدرته على إحياء الموتى.

المعنى: فقلنا إضربوا القتيل ببعض البقرة، فضربوه فأحياه الله وأخبر عن قاتله، وكما أحيا هذا القتيل أمام أبصاركم، يحيي الموتى من قبورهم ويريكم دلائل قدرته لتتفكروا وتتدبروا وتعلموا أن الله على كل شيء قدير.

وقصة البقرة في تلك الآيات أشارت إلى قضية البعث بعد الموت، وكذا أشارت إلى أهمية تحري الدقة في الكسب الحلال، فقد كان رجلاً يبتغي الحلال ووجه الله في كل ما يفعل، وعندما حضرته الوفاة كانت ثروته هي بقرة صغيرة، وكان ابنه طفلاً، فطلب من الله سبحانه وتعالى أن يحفظ البقرة لابنه حتى يكبر، وأطلق البقرة في المراعي وقال لزوجته إني لم أجد يداً أأمن من يد ربي استودعته البقرة الصغيرة، وأسلم الروح بعدها... وبعد أن كبر الابن حكت له أمه ما حدث، فقال الابن اللهم رب إبراهيم ويعقوب رد علي ما إستودعك أبي، ثم انطلق إلى الحقل يبحث عن البقرة فوجدها... وكانت هذه هي البقرة التي ذكرت أوصافها لبني إسرائيل... فذهبوا ليشتروها فقال الابن لن أبيعها إلا بملئ جلدها ذهباً، فدفعوا له، وهكذا نجد أن صلاح الأب يجعل الله حفيظاً على أولاده يرعاهم وييسر لهم أمورهم.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٤)

قَسَتْ قُلُوبُكُم : القسوة الصلابة واليبس.

يَتَفَجَّرُ: يخرج بكثرة.

يَشَّقَّقُ: يتفتح.

يَهْبِطُ : يتردى وينزل.

خَشْيَةِ: الخشية الخوف.

المعنى: وصف الله حال بني إسرائيل بعد أن رأوا من آياته التي آتاها موسى (عليه السلام) ما رأوا (مثل فرق البحر، وانفجار الماء من الحجر، ورفع الجبل، وإحياء القتيل إلى نحو ذلك من الآيات التي شاهدوها)، فوصفهم الله (سبحانه وتعالى) بقساوة القلوب حتى أصبحت لا تلين، فلم يستجيبوا ولم تخشع قلوبهم، بل غلظت وتصلبت وبقيت على جفوتها، فهي كالحجارة الصلبة في قسوتها... بل إنها أشد قسوة منها (لأن الحجارة قد تلين وتتأثر، فهناك أحجار تتفجر منها المياه الكثيرة فتجري أنهارا، وأخرى تتشقق فيخرج منها الماء عيونا فوارة، ومنها ما يتأثر بقدرة الله ويذعن لمشيئته فيتردى من أعلى الجبال خضوعاً وامتثالاً لإرادة الله).

أما قلوبكم أيها اليهود فإنها لا تتأثر بالمؤثرات والمواعظ، فكانت أقسى من الحجارة، بل أشد قسوة منها، وما الله بغافل عما تعملون فيأخذكم بالعذاب، وهو لكم بالمرصاد حافظ لأعمالكم ومحصيها عليكم ثم يجازيكم عليها، وهو جل شأنه يربيكم بصنوف النقم إذا لم تجد فيكم ضروب النعم، ولا يخفى ما في هذا من التهديد والوعيد.

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥)

أَفَتَطْمَعُونَ: الخطاب للرسول (ﷺ) وأصحابه، والطمع تعلق النفس بإدراك مطلوب تعلقاً قوياً.

فَرِيقٌ مِنْهُمْ: المراد بالفريق جماعة من الذين كانوا مع موسى يوم الميقات.

ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ : يغيرونه ويبدلونه.

سبب نزول هذه الآية: نزلت هذه الآية في الأنصار، الذين كانوا حلفاء لليهود وبينهم جوار ورضاعة، وكانوا يودون لو أسلموا، فأنزل الله تعالى "أفتطمعون أن يؤمنوا لكم..." الآية.

المعنى: يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين فيقول أفتطمعون يا معشر المؤمنين أن يسلم اليهود ويدخلوا في دينكم، وقد كان طائفة من أحبارهم من السبعين رجلاً (الذين كانوا مع موسى عليه السلام يوم الميقات) وسمعوا كلام الله، ثم بدلوه من بعد ما فهموه وهم يعلمون أنه الحق (حيث غيروا آيات التوراة بالتبديل أو التأويل من بعد ما فهموها وضبطوها بعقولهم، وهم يعلمون أنهم يرتكبون جريمة) أي أنهم يخالفونه على بصيرة لا عن خطأ أو نسيان (حيث تعمدوا التحريف والتبديل في التوراة)... فهؤلاء الذين بين أظهركم من بقايا نسلهم أحرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحق، وهم لا يسمعونه من الله وإنما يسمعونه منكم، ولقد حرفوا صفة نبيكم محمد (ﷺ) ونعته وهم به عالمون.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٧٦)

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا: أي إذا لقى منافقوهم أصحاب الرسول.

قَالُوا آمَنَّا: آي آمنا برسالة محمد وأنه المنعوت عندنا في التوراة.

بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ: أي بما بين لكم في التوراة من نعمت محمد.

لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ: أي ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه.

المعنى: وإذا تقابل المنافقون منهم مع المؤمنين (المسلمين) قالوا مخادعين! إنا آمنا بأن محمد هو الرسول المبشر به، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: كيف تحدثون أتباع محمد بما أنزل عليكم في التوراة وتتزلق ألسنتكم بعبارات تفيد خصومكم فتتذكرون لهم أوصاف محمد ونبوته (التي يجب أن تبقى سراً مكتوماً وباباً مغلقاً لا يقف عليه أحد من المؤمنين)، أفلا تعقلون أن هذا خطأ وضرر علينا نحن معشر اليهود، حيث ستكون الحجة للمؤمنين عليكم في الآخرة في ترك إتباع الرسول

محمد مع العلم بصدقه... أفا ليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما فتح الله عليكم وبين لكم في التوراة بما يكون لهم فيه حجة عليكم؟

والقائلون ذلك هم اليهود لمن نافق منهم المؤمنين.

﴿ أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٧)

المعنى: أي أيقول اللائمون ما قالوا ويكتمون من صفات النبي (ﷺ) ما كتموا ويحرفون من كتابهم ما حرفوا، ولا يعلمون أن الله تعالى لا يعذب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ويعلم السر وأخفى، وأنه محيط بجهرهم وسرهم وسيجازيهم على أعمالهم في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨)

أُمِّيُّونَ: جمع أمي وهو من لا يقرأ ولا يكتب.

أَمَانِيَّ : جمع أمنية أي أكاذيب وأباطيل.

المعنى: هذا شأن من عرف الكتاب وقرأ التوراة (وهم العلماء والأحبار)، أما الأميون منهم فإنهم لا يعرفون عن دينهم إلا أكاذيب سمعوها ولم يعقلوها (مثل أنهم شعب الله المختار، وأن الأنبياء منهم يشفعون لهم، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة هي مدة عبادة العجل)، فهم جهلة أميون لا يعرفون عن التوراة إلا قراءة ألفاظ من غير فهم للمعنى ولا تدبر له بحيث يظهر أثر ذلك في العمل، وما هم في كل ذلك إلا واهمون.

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩)

فَوَيْلٌ: الويل العذاب الشديد والهلاك، وقيل الويل واد في جهنم.

الْكِتَابَ: يعني الكتاب المحرف.

بِأَيْدِيهِمْ: من تلقاء أنفسهم من غير أن يكون منزلاً.

لِيَشْتَرُوا بِهِ: أي بما كتبوا.

ثَمَنًا قَلِيلًا: عرضا من أعراض الدنيا.

مِمَّا يَكْسِبُونَ: مما كانوا يأخذونه.

المعنـــى: أي العذاب الشديد والهلاك لهؤلاء الذين ينسخون التوراة بأيديهم فيغيرون فيها صفة النبي (ﷺ)، ويكتبون كتباً من تلقاء أنفسهم (من غير أن تكون منزلة)، ثم يقولون للأميين هذه من التوراة التي جاءت من عند الله ليأخذوا بهذا الافتراء ثمناً دنيوياً وعرضاً زائلاً إن مال أو رياسة أو جاه)، فالهلاك لهم بما يأخذون من ثمرات افترائهم.

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٠)

تَمَسَّنَا: تصيبنا.

عَهْداً: وعدا بما يزعمون.

المعنى: ومن افتراءاتهم أنهم يدعون أن النار لا تمسهم إلا في أيام قليلة (وهي أربعون يوماً مدة عبادتهم العجل)، أو أنها لن تمس يهودياً مهما ارتكب من المعاصي (إلا أياما معدودة)، فقل لهم يا محمد: هل تعاهدتم مع الله على ذلك فاطمأننتم أن الله لا يخلف عهده، أم أنكم تفترون الكذب عليه؟

فالمس يعني اللمس الخفيف، أو اقتراب شيء من شيء، ولكن لا يحس أحدهما بالآخر إلا إحساساً خفيفاً جداً لا يكاد يذكر... فإذا وضعت أناملك على يد شخص يقال مسسته (ولكنك لم تستطع بهذا المس أن تحس بحرارة يده أو نعومة جلده)... ولكن اللمس يعطيك إحساساً بما تلمس... فهم أخذوا أقل الأقل في العذاب، وأقل

الأقل في الزمن (أياما معدودة فقط) وذلك على حسب زعمهم... وهذا دليل على غبائهم لأن مدة المس لا تكون إلا لحظة فقط... ولكنها أما في وضعها الشيطان في عقولهم.

وجاء الرد من الله (سبحانه وتعالى) على كذبهم قائلاً "بلى"، وهي حرف جواب (مثل نعم تماماً)، ولكن "بلى" حرف جواب في النفي (أي ينفي الذي قبله)، بينما نعم تأتي بعد الإجابة، فإذا قال إنسان لك ليس لك عندي شيء وقلت نعم، فمعناها أنه صحيح أنك ليس لك عنده شيء... أما إذا قلت بلى، فمعنى ذلك أن لك عندي شيئاً أو أشياء، ولذلك جاءت كلمة "بلى" في الآية لتنفي أن النار سوف تمسهم أياماً معدودة فقط على حسب زعمهم.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١)

وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ: سدت عليه مسالك النجاة بأن مات على شركه.

أَصْحَابُ النَّارِ: الملازمون لها.

خَالِدُونَ: يبقون دائماً.

المعنى: ليس الأمر كما ذكرتم، بل تصيبكم النار وتصيب غيركم وتخلدون فيها بما اكتسبتم، فقد شرع الله حكما عاماً هو: أن كل من اقترف معصية وأحاطت به سيئاته وخطيئاته، وأخذت بجميع جوانب إحساسه ووجدانه (حتى كأن الخطيئة سور حوله من كل جانب)... فمن فعل ذلك فأولئك هم البعيدون في الضلال، وهم أصحاب النار الملازمون لها، وهم فيها باقون دائماً وخالدون فيها، ومنهم أنتم أيها اليهود المنافقون.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨٢)

المعنى: وأما الذين صدقوا الله ورسوله وامتلأت قلوبهم بالإيمان، وظهر أثر ذلك على جوارحهم، فعملوا الصالحات، وأدوا ما يفرضه عليهم إيمانهم، أولئك جديرون بدخول الجنة، خالدين فيها جزاء لهم على ما قدموا في دنياهم من صالح الأعمال.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٨٣)

الْمِيثَاقَ: العهد المؤكد باليمين غاية التأكيد، فإن لم يكن مؤكدا سمي عهدا.

إِحْسَانًا: برا وصلة وعطفا.

ذِي الْقُرْبَى: صاحب القرابة، والإحسان إليه صلة القرابة.

الْيَتَامَى: جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه وهو صغير، فإذا بلغ زال عنه اليتم.

الْمَسَاكِينِ: المسكين هو العاجز عن الكسب.

وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا: أي قولوا حسنا كالصدق ولين القول والخلق وخلافه.

تَوَلَّيْتُمْ: أعرضتم عن الميثاق.

المعنى: يبين الله (سبحانه وتعالى) مدى مخالفة اليهود للتوراة، وأنهم مفترون مخادعون في إيمانهم، حيث أخذ الله عليهم العهود المؤكدة في التوراة وعلى لسان موسى، وغيره من الأنبياء، بأنهم لا يعبدون إلا الله سبحانه وتعالى، وأن يعطفوا على الوالدين ويحسنوا إليهما في المعاشرة، وأن يبروهما (جزاء ما قدما لهم من إحسان في التربية)، كما أمروا كذلك بالعطف على الأقارب واليتامى (الذين مات آباؤهم وهم صغار لم يبلغوا الحلم بعد)، وكذلك بالمساكين (العاجزين عن الكسب) كل بما يناسبه ويقدر عليه من غير حرج ولا مشقة، كما أمروا بالقول الحسن وحسن العشرة والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة (لأنها عماد الدين)

والمداومة عليها بشرائطها وأركانها، وأن يؤتوا الزكاة (ليكون هناك تكافل اجتماعي فيما بينهم ويطهروا أنفسهم من رزيلة الشح والبخل)، هذا هو ما أخذ الله العهد عليهم بالوفاء به وعدم التقصير في أدائه والتزامه... ولكن اليهود أعرضوا عن طاعة ربهم وامتثال أوامره (إلا قليلا منهم من الأسلاف والأخلاف)، وهذا هو شأن اليهود دائماً في الإعراض وعدم الوفاء.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤)

لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ: السفك الصب والإراقة أي لا يقتل بعضكم بعضا.

أَقْرَرْتُمْ: اعترفتم بلزوم الميثاق.

وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ: أي تعترفون بذلك.

المعنى: واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن لا يقتل بعضكم بعضا ولا يريق دمه بغير حق شرعي، ولا يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم وأوطانهم، وفي تعبير القرآن بقوله "لا تسفكون دماءكم" إشارة إلى أن دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر بعينه حتى إذا سفكه كأنه قتل نفسه إشارة إلى وحدة الأمة وتضامنها، وأن ما يصيب واحدا منها فكأنما يصيب الأمة جمعاء، فيجب أن يشعر كل فرد منها بأن نفسه هي نفس الآخرين، ودمه دمهم... ثم أقررتم أيها اليهود المعاصرون بالعهد المؤكد الذي أخذه الله عليكم، واعترفتم به ولم تنكروه بألسنتكم، بل شهدتم به وأعلنتموه بالحجة عليكم قائمة.

وقد يراد: وأنتم أيها الحاضرون تشهدون على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق وقبوله، وشهودكم الوحي الذي نزل به على موسى.

﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٨٥)

الْإِثْمِ: الذنب

الْعُدْوَانِ: الاعتداء.

أُسَارَى: أسرى

خِزْيٌ : ذل وهوان

المعنى: كانت "بنو قريظة" و"بنو النضير" من اليهود، فحالفت بنو قريظة الأوس، وحالفت بنو النضير الخزرج، وكانت الحرب إذا نشبت بين الأوس والخزرج (حيث كانوا أعداء قبل الإسلام)، قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي من الفريق الآخر، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من أثاث ومتاع ومال (وذلك حرام عليهم في دينهم وفي نص التوراة)، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها إفتكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة... وهذا ما نعاه الله على اليهود بقوله "تقتلون أنفسكم"، ثم أنتم بعد ذلك التوكيد في الميثاق تنقضون العهد فيقتل بعضكم بعضا ويخرج بعضكم بعضا من ديارهم مع أنهم إخوانكم في الدين واللغة والنسب واللغة متعاونين مع الغير بالذنب والعدوان ومعصية الرسول، وإن أخذوا أسرى حرب تنقذوهم بالمال، مع أن الإخراج والقتل محرم عليكم في التوراة فكيف تفعلونه؟ وبأي حق تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا ذل وهوان في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عن أعمالكم، بل سيجازيكم عليها.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (٨٦)

اشْتَرَوُا: استبدلوا

المعنى: أولئك اليهود الذين يفعلون هذا أثروا هذا أثروا الحياة الدنيا (كالرياسة الكاذبة والمال الفاني وخلافه) على نعيم الآخرة الدائم، وكانوا بهذا كمن اشترى الدنيا بالآخرة فلن يخفف عنهم عذاب جهنم، لأن خطاياهم قد أحاطت بهم من كل جانبن فسدت عليهم باب الرحمة، وأعمالهم قد سجلت عليهم الشقاء، فكيف يجدون مع كل هذا شافعاً ينصرهم أو وليا يدفع عنهم ما حل بهم من النكال والوبال في جهنم وبئس القرار.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ... بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧)

الْكِتَابَ: التوراة.

قَفَّيْنَا: أتبعنا وأردفنا.

الْبَيِّنَاتِ: المعجزات.

بِرُوحِ الْقُدُسِ: بالروح المطهرة وأراد به جبريل عليه السلام، لأن القدس هو الله وروحه جبريل كما في قوله تعالى " قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ".

فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ: كعيسى ومحمد عليهما السلام.

وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ: وقتلتم فريقاً (كزكريا ويحيى عليهما السلام) اللذين قتلهما أسلافكم.

المعنى: لقد أرسلنا إليكم موسى وأتيناه التوراة، وبعثنا إليكم على أثاره عدة رسل منهم عيسى ابن مريم الذي أمددناه بالمعجزات وأيدناه بروح القدس (وهو جبريل عليه السلام الذي يؤيد الله تعالى به أنبيائه)، وأرسلناه بعد ظهور كثير من الرسل، ولم يكن حظه بينكم أحسن من حظ سابقيه، فقد كنتم كلما جاءكم رسول من هؤلاء بما لا تهوى أنفسكم تستكبرون عن إتباعه، ففريق منهم كذبتموه، وفريق آخر قتلتموه (مثل قتلهم ذكريا ويحيى عليهما السلام)، وهناك قصة راقصة سالومي التي أرادت إغراء يحيى (عليه السلام) فرفض أن يخضع لإغرائها، فجعلت مهرها أن يأتوها برأسه، فجاؤها برأسه على صينية من الفضة.

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨)

غُلْفٌ : مغشاة بأغطية وأغلفة.

لَّعَنَهُمُ: طردهم.

فقليلا ما يؤمنون: أي لم يؤمنوا إلا إيمانا قليلا وهو إيمانهم ببعض الكتاب.

المعنى: وقالوا قلوبنا مغلفة بأغطية مانعة من تفهم ما جئت به يا محمد (وذلك حينما دعاهم الرسول إلى الإسلام)، ولم تكن قلوبهم مغلفة كما يزعمون ولكنهم استكبروا وأثروا الكفر على الهدى، فأبعدهم الله من رحمته لإصرارهم على الضلال والعصيان، ولم يؤمن منهم إلا القليل.

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩)

يَسْتَفْتِحُونَ: يستنصرون بالرسول محمد (ﷺ) على أعدائهم.

المعنى: فقد كان اليهود (وعندهم في التوراة نعت النبي صلى الله عليه وسلم وبيان زمانه)، يمنون أنفسهم بالنصر على المشركين وكانوا يقولون "اللهم أنصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان الذي نجد نعته في التوراة"، فلما جاءهم النبي (ﷺ) مصدقا لما عندهم من التوراة أنكروه، واستكبروا وأثروا عرض الحياة الدنيا على الآخرة، فسجل الله عليهم الطرد والإبعاد من رحمته لجحودهم بالحق بعد أن تبين لهم.

واليهود في كفرهم كانوا أحد أسباب نصرة رسول الله (ﷺ) لأن قبيلتي الأوس والخزرج عندما بعث الرسول، قالوا: هذا النبي الذي يهددنا به اليهود وأسرعوا يبايعونه... فكأن اليهود سخرهم الله لنصرة الإسلام وهم لا يشعرون.

والرسول (ﷺ) كان يذهب إلى الناس في الطائف، وينتظر القبائل عند قدومها إلى مكة في موسم الحج ليعرض عليهم الدعوة، فيصدونه ويضطهدونه... وعندما شاء الله أن تنتشر دعوة الإسلام جاء الناس إلى مكة (ومعهم الأوس والخزرج) إلى رسول الله (ولم يذهب هو إليهم) وأعلنوا مبايعته والإيمان برسالته ونشر دعوته، دون أن يطلب عليه الصلاة والسلام منهم ذلك، ثم دعوه ليعيش بينهم في دار الإيمان... كل هذا تم عندما شاء الله أن ينصر الإسلام بالهجرة إلى المدينة وينصره بمن أتبعوه.

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (٩٠)

فَبَاءُوا: رجعوا.

بِغَضَبٍ: الغضب أشد من اللعن.

المعنى: بئس الشيء التافه الذي باع به هؤلاء اليهود أنفسهم بكفرهم بالقرآن الذي أنزله الله على محمد (ﷺ) حسداً وطلباً لما ليس لهم، وكراهة أن ينزل الله

الوحي من فضله على من يختاره من عباده، فرجعوا وهم مستوجبون لغضب من الله زيادة على غضبه عليهم لكفرهم بالأنبياء قديما، ولهم عذاب مذل مهين.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٩١)

بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ: بالقرآن.

بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا: أي بالتوراة.

وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ: أي يكفرون بالقرآن.

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ: غير مخالف للتوراة.

المعنى: وإذا قيل لهم بما أنزل الله من القرآن وصدقوه وإتبعوه، قالوا: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة فقط، ويكفرون بالقرآن مع أنه هو الحق موافقا لما معهم من كلام الله، فقل لهم يا محمد إذا كان إيمانكم بما في التوراة صحيحا فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم فعلا مؤمنين؟... فليس في دينكم الأمر بالقتل فكيف تكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض؟... فالكل من عند الله إن كنتم مؤمنين حقاً.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٩٢)

بِالْبَيِّنَاتِ: المعجزات التي تؤيد نبوته.

الْعِجْلَ : الذي صنعه لهم السامري من الذهب وجعلوه إلها وعبدوه.

المعنى: لقد كفرتم أيها اليهود بكتبكم وأنكرتم دينكم، ورجعتم إلى الشرك ونبيكم موسى بين ظهرانيكم، فلقد جاءكم بالمعجزات الناطقة بصدق نبوته، وعندما ذهب لمناجاة ربه قمتم بعبادة العجل ورجعتم إلى الوثنية والشرك، وهذا أشد أنواع الظلم (إن الشرك لظلم عظيم) وأي ظلم أفدح أو أعظم من الإشراك بعبادة الله الواحد القهار.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٩٣)

بِقُوَّةٍ: بجد ونشاط.

وَاسْمَعُوا: سماع طاعة.

قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا: أي سمعنا قولك وعصينا أمرك.

وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ: أي خالط قلوبهم حب العجل كما يخالط الشراب الجسد، والإشراب مخالطة المائع الجامد.

المعنى: اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ورفعنا فوقكم جبل الطور (بجنوب سيناء)، وقلنا لكم خذوا ما أتيناكم بعزم وحزم وإلا طرحنا الجبل فوقكم فقلتم: سمعنا قولك وعصينا أمرك (فقد خالط حب العجل قلوبهم وامتزج بدمائهم كما يدخل الصبغ في الثوب والماء في البدن بسبب كفرهم).

فإن كان إيمانكم بالتوراة يأمركم بهذا فبئس هذا الذي تزعمون بأن إيمانكم يأمركم، وحاشا للإيمان أن يكون آمراً بالإشراك بالله.

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤)

الدَّارُ الآخِرَةُ: الجنة

خَالِصَةً : خاصة بهم.

المعنى: قل لهم يا محمد إن كانت الجنة خالصة لكم من دون الناس، وأن الله سيجازيكم بها بعد الممات وتنعمون بها دون غيركم (فهذا مصير حسن)، فلماذا لا تتمنون الموت لتصلوا إلى هذا النعيم المقيم إن كنتم صادقين في دعواكم؟... ولكنهم على العكس غير صادقين في ذلك، فقد حكى القرآن عنهم أنهم أحرص الناس على الحياة، وأن أحدهم يود أن يعمر ألف سنة، وفي ذلك تكذيب صريح لزعمهم الباطل... وأنهم كاذبون ويعلمون أنهم كاذبون... لذلك فهم يهربون من الموت ولا يتمنونه أبدا، وذلك بعكس العشرة المبشرين بالجنة (مثل عمار بن ياسر في الحرب في حنين كان ينشد وهو يستشهد غدا ألقى الأحبة محمدا وصحبه).

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٩٥)

المعنى: ولكن اليهود (لعلمهم بالمصير الذي ينتظرهم) لن يتمنوا الموت أبدا، لأنهم ارتكبوا أفظع أنواع المعاصي، فأشركوا بالله، وعصوا رسله، وقتلوا الأنبياء بغير حق، فهم ظالمون لأنفسهم بهذه الأعمال، والله محيط بهم وبما يعملون وسيجازيهم على كذبهم وافترائهم.

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩٦)

المعنى: ولتجدن اليهود أحرص الناس على أن يعيشوا أطول مدة في الحياة وذلك أكثر من حرص المشركين على الحياة، برغم إيمانهم بالكتاب التوراة وزعمهم بأن الجنة خالصة لهم من دون الناس، ولكن مهما مكث في الحياة، ومهما ازداد تشبثه بها (ولو عمر فيها ألف عام أو أكثر) فليس ذلك بمبعده عن الجزاء الذي ينتظره، وهو العذاب الأليم، فالله تعالى بصير بعلمهم وعملهم وسيجازيهم على كفرهم وفجورهم.

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٧)

روى أن اليهود قالوا للنبي (ﷺ) "إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي، فمن صاحبك حتى نتبعك؟ قال: جبريل، قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال ذاك عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالخصب والسلام وبالرحمة تابعناك، فأنزل الله الآية.

المعنى: قل يا محمد لليهود الذين عادوا جبريل حتى حملتهم معاداته على الكفر بك، قل لهم لا حق لكم في معاداته، لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه، وإنما جاء به بأمره تعالى مصدقاً لما سبقه من الكتب وهادياً ومبشراً للمؤمنين بالخير العظيم، وعداوة من هذا شأنه عداوة لله تعالى.

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٩٨)

المعنى: من كان عدوا لله مخالفا لأمره عنادا، أو كان عدوا لأحد من الملائكة والرسل فقد كفر، وكان الله له عدوا (أي معاملا له معاملة العدو بسبب كفره وجحوده وعداوته لهؤلاء المقربين عند الله، والله عدو الكافرين جميعاً).

وتخصيص جبريل وميكائيل بالذكر (وإن كانا داخلين في جملة الملائكة) لبيان فضلهما وعلو منزلتهما.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ (٩٩)

بَيِّنَاتٍ : واضحات لا خفاء فيها.

الْفَاسِقُونَ: الخارجون عن طاعة الله.

المعنى: إن آيات القرآن واضحة الدلالة على معانيها وعلى كونها من عند الله جل شأنه،وإنما كفروا بها لأنهم متمردون في كفرهم ومصرون على ضلالهم، وعندما ظهر لهم الحق فاستحبوا العمى على الهدى (حسدا لمن ظهر الحق على يديه) عناداً ومكابرة منهم.

﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٠)

المعنى: قيل أن اليهود عاهدوا أن خرج وبعث الرسول (محمد) لنؤمنن به ولنكونن معه على مشركي العرب، فلما بعث كفروا به... وهكذا حال اليهود فكلما عاهدوا عهدا (بينهم وبين الله أو بينهم وبين رسول الله) تركه فريق كبير منهم ولم يوف به، لأن اليهود موسومين بالغدر ونقض العهود (أي كانوا كلما عاهدوا المسلمين عهداً نبذه فريق منهم لأن معظمهم لا يؤمن بحرمة عهد ولا بقداسة ميثاق).

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١)

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ: أي بمحمد (ﷺ) نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب: هم علماء اليهود الذين كانوا في زمن النبي (ﷺ).

كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ: المراد بكتاب الله التوراة.

المعنى: ولما جاءهم رسول من عند الله (هو محمد عليه الصلاة والسلام) بكتاب مصدق لما معهم من التوراة (حيث القرآن موافق للتوراة بما فيه من الأصول العامة كتوحيد الله، وإثبات البعث، وصدق الرسل، وحياة الآخرة، وقواعد التشريع وخلافه) نبذ فريق من اليهود ما ذكر في التوراة عن هذا الرسول كأنه لم يرد فيها، ولم يعلموا شيئاً عنه.

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠٢)

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ: أي نبذوا كتاب الله واتبعوا ما كانت تقوله الشياطين من السحر.

عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ: على عهد ملك وزمان سيدنا سليمان، وما عمل سليمان بالسحر فإن العمل به كفر، والنبي معصوم منه.

وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا: باستعمالهم للسحر.

هَارُوتَ وَمَارُوتَ: ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس ببابل (وهي بلد بالعراق) وكانا يقولا للناس إن هذا السحر الذي نصفه لك إنما هو امتحان من الله وابتلاء فلا تستعمله للإضرار ولا تكفر بسببه، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس فقد نجا، ومن تعلمه ليلحق ضرره بالناس فقد هلك وضل.

سبب نزول الآية:

لما ذكر رسول الله (ﷺ) سليمان في المرسلين قال بعض أحبار اليهود ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبيا.. والله ما كان إلا ساحراً، فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ... ﴾.

المعنى: قام فريق من علماء اليهود وأحبارهم (الذين نبذوا التوراة تجاهلاً منهم بما هم به عالمون) بإتباع السحر (الذي تلته الشياطين على زمن سليمان بن داود) وعملوا به، وذلك هو الهلاك والضلال المبين.

وقد زعموا أن سليمان (عليه السلام) هو الذي جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كرسيه، ثم استخرجها الناس وتناقلوها، وهذا إفك وبهتان كبير، وما سحر سليمان (لأنه لو فعل ذلك لكان كافرا) وهو نبي، والأنبياء معصومون من الخطأ، ولكن الشياطين (من الإنس والجن) الذين نسبوا إليه ما انتحلوه من السحر ودونوه وعلموه الناس هم الذين كفروا.

والحكمة من تعليم الملكين (هاروت وماروت) الناس السحر هو أن السحرة كثروا في ذلك العهد، واخترعوا فنوناً غريبة من السحر (وربما زعموا أنهم أنبياء)، فبعث الله تعالى الملكين ليعلما الناس وجوه السحر (حتى يتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة للأنبياء والرسل)، ويعرفوا أن الذين يدعون النبوة كذباً، إنما هم سحرة لا أنبياء، وأن هذا اختبار من الله لهم، ولا يعملوا بالسحر ما يضرهم، فتعلم الناس من الملكين ما كانوا يعتقدون أنه يفرق بين المرء وزوجه، أو هو تمويه من حيلة، أو تأثير نفسي وغير ذلك مما يحدث عنده التفريق غالباً، ولم ينتصح الناس بنصيحة الملكين، واستخدموا ما تعلموه من السحر في الكفر والخداع، والتضليل، والإغواء والتمويه.

فكان هؤلاء الشياطين الفجرة، إذ تقولوا هذه الأقاويل على النبي سليمان، واتخذوا من افتراءتهم، وأساطيرهم ذريعة لتعليم اليهود السحر، وما هم بضارين بسحرهم هذا من أحد، ولكن الله هو الذي يأذن بالضرر إن شاء، وأن ما يؤخذ عنهم ليضر من تعلمه في دينه ودنياه ولا يفيده شيئاً، وهم أنفسهم يعلمون حق العلم أن من اتجه هذا الاتجاه لن يكون له حظ في الآخرة، ولبئس ما اختاروه لأنفسهم لو كانت بهم إثارة من علم.

لذلك لابد من وضع ضوابط صارمة ورشيدة لعملية البحث العلمي بحيث ينصرف إلى المجلات المفيدة حقاً، وإلا كان في بعض حالاته إهداراً للطاقة البشرية من جهة، وللمال العام من جهة أخرى، ومولداً للمزيد من المضار الناتجة عنه من جهة ثالثة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٣)

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا: أي لو أنهم آمنوا برسول الله (ﷺ).

وَاتَّقَوْا: أي تجنبوا المعاصي المحكية عنهم.

لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ: لكان ثوابهم عند الله خيرا لهم مما شروا به أنفسهم.

المعنى: ولو أنهم آمنوا إيماناً صادقاً بالتوراة، وفيها البشارة بمحمد (ﷺ) والأمر بإتباعه، ولو أنهم خافوا مقام ربهم، وامتثلوا أوامره، وأذعنوا لمشيئته، واجتنبوا نواهيه، لكان هذا الثواب العظيم الذي ينتظرونه من الله (جزاء على أعمالهم الصالحة) خيراً لهم من التمادي في أمور السحر والشعوذة، وما يلقونه من أساطير ويضمرونه من حيث لو كانوا يميزون النافع من الضار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٤)

رَاعِنَا: أي راقبنا واسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه.

انظُرْنَا: أي انتظرنا، وأمهلنا، وانتظر ما يكون من شأننا.

وَاسْمَعُوا: وأحسنوا الاستماع حتى لا تحتاجوا إلى طلب المراعاة.

المعنى: كان المسلمون يقولون لرسول الله (ﷺ) إذا ألقى عليهم شيئا من العلم: راعنا يا رسول الله (أي تأن بنا حتى نفهمه ونحفظه)، وكانت الكلمة عند اليهود (راعنا كلمة سب من الرعونة وهي الحمق)، فلما سمع اليهود هذه الكلمة من المسلمين خاطبوا بها رسول الله (ﷺ) مريدين سبه (وهي تعني عندهم الحمق والسفه)، فنهى الله المسلمين عنها، وأمرهم بكلمة تماثلها في المعنى وتختلف في اللفظ (وهي أنظرنا)، واسمعوا أيها المؤمنون القرآن سماع قبول، وللكافرين واليهود عذاب مؤلم شديد.

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١٠٥)

المعنى: ما يحب الكافرين من اليهود والمشركين من عبدة الأصنام الخير لكم، كما يرى المشركون في نزول القرآن منجما (على حسب الظروف والحوادث) قوة للإسلام، ورسوخاً لقواعده، ويودون أن يزول دينكم وتتردى دولتكم في مزالق الفناء والهلاك.

والله لا يقيم وزنا لما يرجو الكافرون ويودون لكم، فالله يختص بالنبوة ونزول الوحي من يصطفي من عباده (فالله أعلم حيث يجعل رسالته)، وهو جل شأنه صاحب الإحسان والمنة، وكل عباده غارق في بحار نعمته، فلا ينبغي لأحد أن يحسد أحداً على خير أصابه.

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٠٦)

مَا نَنسَخْ : النسخ في اللغة الإزالة.

نُنسِهَا : أي إذهاب الآية من ذاكرة النبي (ﷺ) بعد تبليغها إياه.

سبب نزول الآية:

نزلت هذه الآية حين قال المشركون واليهود: ألا ترون أن محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا، فقد أمر في حد الزنى إيذاء الزانين باللسان (حيث قال: فأذوهما)، ثم غيره وأمر بإمساكهن في البيوت حيث قال: (فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت)، ثم غيره بقوله (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة)، فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، يتناقض بعضه بعضاً (ومقصدهم من ذلك الطعن في الدين ليضعفوا عزيمة من يريد الدخول فيه)... وحد الزنا من الأمور الهامة، ولذلك كان من الحكمة أن يكون الحكم تدريجياً (من الإيذاء باللسان إلى الإمساك والحبس في البيوت... إلى الجلد والرجم)، وذلك كما حدث في التدرج في حكم شرب الخمر وكذلك حكم التعامل بالربا وغيره.

وقد بيّن الله (سبحانه وتعالى) وجه الحكمة في النسخ، وأنه من عنده (وليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم).

المعنى: نزل القرآن الكريم منجما (على حسب الحوادث والظروف)، والنسخ في لسان الشرع بيان انتهاء الحكم المستفاد من الآية المتلوة، وحكمته أن الأحكام ما شرعت إلا لمصلحة الناس (وهي تختلف باختلاف الزمان والمكان)، فإذا شرع حكم في وقت كانت الحاجة إليه ماسة، ثم زالت الحاجة فمن الحكمة نسخه وتبديله بحكم يوافق الوقت الآخر، فيكون خيراً من الأول أو مثله في فائدته للعباد، ومعنى الآية: ما تغير حكم آية أو ننسيكها إلا آتينا بما هو خير منه لمصلحة العباد بكثرة الثواب أو مثله فيه.

﴿ أَلَمْ تَعْلَم أَنَّ اللهَّ لَهُ مُلْك السَّمَوَات وَالْأَرْض وَمَا لَكُمْ مِنْ دُون اللهَّ مِنْ وَلِيّ وَلَا نَصِير ﴾ (١٠٧)

وَلِيّ: يتولى شئونكم.

نَصِير: معين ينصركم.

المعنى: ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض (وهما تحت قبضته ومطويات بيمينه)، والعباد أهل مملكته، وعليهم طاعته، والامتثال لأمره، والإذعان لمشيئته، فله أن ينسخ ما شاء من الأحكام، ويقرر ما شاء منها على حسب المصلحة العامة، وعلى وفق علمه وحكمته، وليس للعبد من دونه ولي يعينه ولا نصير ينصره.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾ (١٠٨)

وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ: أي يختار الكفر بدل الإيمان.

فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ: أي تنكب الطريق القويم.

سبب النزول: روى أن رافع بن خزيمة، ووهب بن زيد قالا للنبي (ﷺ) أئتنا بكتاب من السماء، وفجر لنا الأنهار لكي نتبعك.

المعنى: أتريدون أن تسألوا رسولكم أن يأتيكم بمعجزات فوق ما جاءكم به، فيكون مثلكم مثل اليهود الذين سألوا موسى ما لا يجوز سؤاله تعنتا؟، كقولهم "أرنا الله جهرة"، ومن يوغل في العناد ويؤثر الضلال على الهدى والإخلاص للحق فقد حاد عن الطريق السوي القويم.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٩)

فَاعْفُوا: العفو ترك العقاب على الذنب.

وَاصْفَحُوا : الصفح هو الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه (حيث يشمل ترك العقاب وترك اللوم وغيره).

المعنى: تمنى كثير من أهل الكتاب أن يصرفوكم عن توحيد الله، والتصديق بمحمد (ﷺ)، ويرجعونكم كفاراً كما كنتم، وذلك حسداً لكم من بعد ما تبين لهم الحق، وأن محمداً على الحق وبما ورد عندهم في كتبهم من بشارات، فأعرضوا عنهم ومروا على لغوهم مرور الكرام، حتى يأذن الله لكم بمسلك آخر حيالهم، فهو سبحانه القادر على أن يمكنكم منهم، وهو على كل شيء قدير.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٠)

مِّنْ خَيْرٍ: من طاعة وعمل صالح

تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ: أي تجدوا ثوابه وأجره عند الله في الدنيا والآخرة.

المعنى: حافظوا على عمودي الإسلام (وهما الصلاة والزكاة)، وداوموا عليهما لما في الصلاة من توثيق عرى الإيمان، وإعلاء كلمة الدين، وسمو النفس بمناجاة الله، واستشعار عظمته وقدرته، وكذا الزكاة تؤكد الصلة بين الأغنياء والفقراء، كما أنها تزكية لنفوسكم، وتطهير لقلوبكم، وتحصين لأموالكم.

وعموماً فإن ما تقدموا لأنفسكم (من عمل صالح وطاعة لله) تجدوا جزاءه عند الله كاملاً وافياً، والله محيط بأعمالكم، لا تخفى عليه خافية، وهو سبحانه وتعالى مجازيكم عليها (إن خيرا فخير، وإن شرا فشر).

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١١)

هُودًا : جمع هائد، والهائد هو التائب، وتعني اليهود

نَصَارَى: أتباع عيسى المسيح.

سبب النزول:

تبارى فريقان (من يهود المدينة ووفد نصارى نجران) عند النبي (ﷺ)، وكذب بعضهم بعضا، فقال اليهود لبني نجران: لن يدخل الجنة إلا اليهود، وقالت بنو نجران لليهود: لن يدخل الجنة إلا النصارى، فعقيدة كل من الفريقين في الآخر كذلك.

المعنى: قال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، فهذه تلك أحلامهم وأمانيهم، فقل يا محمد لكلا الفريقين (اليهود والنصارى) أئتوني بالحجة الساطعة على ما تزعمون إن كنتم صادقين في دعواكم والبرهان الدليل على صدق دعواكم.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١٢)

بَلَى: كلمة تذكر جوابا بالإثبات نفي سابق، مثل قولهم "لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى" بلى يدخلها من لم يكن هودا ولا نصارى، فكل من عمل للجنة وأخلص في عمله فهو من أهلها.

مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ: إسلام الوجه لله هو الانقياد والإخلاص له في العمل.

المعنى: يرد الله (سبحانه وتعالى) على دعوى اليهود والنصارى من أن الجنة مقصورة عليهم فقط... بل كل من أخلص دينه لله وانقاد له وأذعن لأمره وهو محسن في عبادته وعمله وإيمانه فله أجره الذي وعده الله له، وهؤلاء المحسنين لا خوف عليهم في الآخرة من العقاب ولا يحزنون عندما يحزن المقصرون على تضييع العمر وسيدخلون الجنة بإذن الله تعالى.

هذا وقد ذكر القرآن الكريم ١١ فئة قال عنهم إنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وهؤلاء هم بحسب تسلسل الآيات وأرقامها وسورها:

١- ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٣٨).

٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة٦٢).

٣- ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ١١٢).

٤- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٢٦٢).

٥- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٢٧٤).

٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٢٧٧).

٧- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران ١٦٩ و ١٧٠).

٨- ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأنعام ٤٨).

٩- ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف ٣٥).

١٠- ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس ٦٢).

١١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأحقاف ١٣).

جعلنا الله من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١١٣)

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ: هم المشركون.

المعنى: قالت اليهود ليس النصارى على شيء من الدين الصحيح مع أنهم يتلون التوراة التي تبشر بالمسيح وتذكر من الأصناف مالا ينطبق إلا عليه، وبذلك كفروا بالمسيح، وكذلك قالت النصارى ليست اليهود على شيء من الدين الصحيح، ومن ثم أنكروا نبوة موسى المتمم لشريعتهم (وكلاهما يستدل بأسفاره)، وكذلك يقول المشركون من العرب (الذين لا يعلمون شيئا عن الكتب المنزلة) في اليهود والنصارى ما يقوله كلاهما في الآخر (وليس للمشركين كتاب)، ولقد صدقوا جميعاً في ذلك... فليس منهم فريق على حق، وسيتبين لهم ذلك حينما يحكم الله بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، ويجازيهم على أعمالهم وتصرفاتهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١٤)

فِي خَرَابِهَا: تخريبها وهدمها وتعطيلها.

خِزْيٌ: ذل أو قتل أو سبي.

سبب النزول:

تشير هذه الآية إلى ما وقع من قبطس الروماني من دخوله بيت المقدس بعد رفع المسيح بنحو سبعين عاما، وقيامه بتخريب بيت المقدس وهدم هيكل سليمان (عليه السلام) وحرق بعض نسخ من التوراة، وقيل أن هذه الآية نزلت في مشركي العرب حين منعوا النبي وأصحابه من دخول مكة والطواف حول الكعبة.

كما قيل أنه إخبار بما سيقع من غارة الصليبيين على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين، وصدهم عن المسجد الأقصى، وتخريبهم كثيراً من المساجد، فالكلام عام في كل من خرب مسجداً، أو سعى في تعطيل مكان معد للصلاة والعبادة.

المعنى: لا أحد أظلم ممن منع الناس من عبادة الله في بيوت الله وعمل لخرابها بالهدم كما فعل الرومان ببيت المقدس، أو بتعطيلها عن العبادة كما فعل كفار قريش حينما منعوا النبي وأصحابه من دخول مكة والصلاة في المسجد الحرام، وما ينبغي لأولئك أن يدخلوا بيوت الله إلا وهم في خشية وخضوع فضلا عن التجرؤ على تخريبها أو تعطيلها، أولئك الذين يفعلون هذا لهم خزي في الدنيا بما يعقبه الظلم من الفساد المؤدي إلى الذل والهوان، ولهم في الآخرة عذاب النار.

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١١٥)

المعنى: لله مكان شروق الشمس ومكان غروبها والمراد جميع الأرض من مشرقها إلى مغربها، وإذا كان المشركون قد منعوا المسلمين من الصلاة في المسجد الحرام فلن يمنعهم هذا من الصلاة والعبادة ي أي مكان يتوجهون فيه إلى الله فإنه معهم أينما يكونوا، وأن ملك الله (جل شأنه) واسع لا يحده حد، فيصح أن يتوجه إليه العبد في كل مكان، وهو عليم بالمتوجه إليه أينما كان، فاعبدوه حيثما كنتم وتوجهوا إليه أينما حللتم.

وقد نزلت هذه الآية قبل الأمر بالتوجه إلى الكعبة، واستقبالها في الصلاة، وفيها إبطال لما كان يعتقده أرباب الملل السابقة من أن العبادة لا تصح إلا في الهياكل والمعابد.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ (١١٦)

سُبْحَانَهُ: تنزيها له عما قالوا.

كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ: منقادون مذعنون لمشيئته

المعنـى: نزلت هذه الآية لما قالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وقال المشركون الملائكة بنات الله (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا)، فسبحانه جل شأنه منزه عن أن يكون له ولد... بل له ملكوت السموات والأرض خلقا، وملكا وتصريفا، وكل له منقادون، ولا يمتنعون عن مشيئته.

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١١٧)

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ: أي خالقهما ومبدعهما، لا على مثال سابق.

المعنـى: إن الله (سبحانه وتعالى) أجل من أن يحتاج إلى نسل أو يتخذ ولدا ينفعه في الكبر، فهو تعالى لا يدركه زمن، ولا يحده مكان (كالمخلوقات)، فالأرض قبضته، والسموات مطويات بيمينه، لا يستعصى عليه شيء، فهو الذي أبدع السموات والأرض، وأوجدهما من العدم وإذا كان هو المبدع لهما والموجد لجميع من فيها، فكيف يصح أن ينسب إليه شيء منهما، على أنه مجانس له تعالى عن ذلك علوا كبيرا، وإذا أراد الله إحداث أمر وإيجاده، فإنما يقول له كن فيكون، والكلام تمثيل، وتنبيه لتعلق إرادته بإيجاد الشيء، فيعقبه وجوده.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١١٨)

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ: من المشركين.

لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ : أي هلا يكلمنا الله كما يكلم الملائكة، أو يوحي إلينا بأنك رسوله.

أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ: أي تأتينا حجة على صدقك.

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ: حيث قالوا لموسى أرنا الله جهرة، وقول النصارى للمسيح: هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟

تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ: أي تماثلت قلوبهم في العمى والعناد.

يُوقِنُونَ: يطلبون اليقين بلا عناد واستكبار.

المعنى: يصر المشركون على كفرهم (كفار قريش)، فيطلبون من الرسول (ﷺ) مثل ما طلبته الأمم السابقة، فقد قالوا: لن نؤمن لك يا محمد إلا إذا كلمنا الله بأنك رسوله، أو يرسل إلينا ملكا فيخبرنا بذلك، وهم ما يستهدفون إلا عناداً واستكباراً، وبيان أنه ليس بأحسن منهم حالاً... ومثل هذه الأسئلة التي لا يراد بها طلب الحقيقة، وإنما يقصد بها التعنت والعناد، وقد قالها من قبلهم اليهود لموسى (حيث قالوا: أرنا الله جهرة)، و(لن نصبر على طعام واحد)، وقال مثلها النصارى للمسيح (هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين...)... فهذه أقوال صدرت عنهم عناداً وتعنتاً وليس لكشف غامض وجلاء حقيقة.

وإننا لم نتركك يا محمد بلا آيات باهرات، وحجج دامغات، فقد بينا للناس الآيات على يديك بما لا يدع مجالاً للريب لدى طالبي الحق بالدليل والبرهان، ولديهم الاستعداد للعلم والإيمان، ولن يكون هذا إلا لمن صفت نفوسهم، وسلموا من العناد والمكابرة.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (١١٩)

بِالْحَقِّ: الحق هو الشيء الثابت المتحقق الذي لا شك فيه.

وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ: أي أننا أرسلناك بالحق، لتبليغ ما أرسلت به، فإنما عليك البلاغ، ولست مسئولاً عمن كفر.

أَصْحَابِ الْجَحِيمِ: هم الملازمون لجهنم.

المعنى: أراد الله (سبحانه وتعالى) تسلية النبي (ﷺ) بقوله: إنا أرسلناك بالحق رحمة للعالمين، تبشر المؤمنين بالجنة والنعيم المقيم، وتنذر الكافرين من عذاب أليم، وقد أرسلناك بحقائق يقينية، لا تصل فيها الأوهام... وليس عليك إلا تبليغ الرسالة، ولا تسأل عن عدم إيمان من لم يؤمن بك من العصاة والكفار الذين يخلدون في العذاب العظيم، عذاب جهنم وبئس المصير.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٢٠)

مِلَّتَهُمْ: دينهم

قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ: أي أن دين الإسلام هو الهدى إلى الحق.

أَهْوَاءَهُم: أقوالهم الباطلة الزائفة.

بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ: من الوحي، أو من البيان بأن دين الله هو الإسلام، وأن قبلة الله هي الكعبة.

مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ: أي مالك من الله من معين يتولى أمرك، ولا نصير يدفع عنك غائلة العذاب.

المعنى: ولن ترضى عنك يا محمد الطائفتان (اليهود والنصارى) حتى تترك الإسلام المنير وتتبع دينهم، وقل لهم يا محمد إن الإسلام هو الدين الحق، وما عداه فهو ضلال، وليس ثمة هدى في غيره لأنه ناسخ لما قبله.

فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على دين الله الذي بعثك به هو الهدى وهو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل، ولئن اتبعت يا محمد أهواء أهل الكتاب وأباطيلهم بعد الذي جاءك من عند الله من البيان الواضح والأدلة القاطعة على أن الإسلام هو الدين الحق فليس لك من الله من ولي يعصمك من عذابه ولا نصير يدفع عنك غضب الله وسخطه.

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٢١)

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ: هم اليهود والنصارى والمراد المؤمنون منهم.

يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ: يقرأونه كما أنزل لا يغيرونه، ولا يحرفونه، أو يتبعونه حق إتباعه.

أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ: أي يصدقون بما جاء فيه (أي في كتابهم دون المحرقين)

وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ: سواء بالتحريف أو الكفر بما يصدقه.

الْخَاسِرُونَ: الهالكون.

المعنى: من أقام كتاب الله من أهل الكتب المنزلة (التوراة والإنجيل ويقصد اليهود والنصارى) على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، ويؤمنون بما في مضمونه، ولا يغيرون ما فيه (من نعت محمد صلى الله عليه وسلم أو البشارة به) أولئك يصدقون بمحمد (لأن في التوراة نعته وصفته، وفي الإنجيل البشارة به)، ومن يجحد ما في الكتاب (من فرائض الله، ونبوة محمد) فأولئك هم الخاسرون في الدنيا والآخرة (حيث اشتروا الضلالة بالهدى).

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢)

الْعَالَمِينَ: هم أهل زمانهم.

المعنى: يا بني إسرائيل اذكروا أيادي لديكم وصنائعي عندكم، واستنقاذي إياكم من أيدي عدوكم فرعون وقومه، وإنزالي عليكم المن والسلوى في تيهكم، وتمكيني لكم في البلاد (بعد أن كنتم أذلاء مقهورين)، واختصاص الرسل منكم، وتفضيلي إياكم على عالم من كنتم بين ظهرانيهم في زمانكم (أيام كنتم في طاعتي، بإتباع رسولي إليكم وتصديقه، وتصديقي فيما جاءكم به من عندي)، ودعوا التمادي في الضلال والغي.

﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١٢٣)

المعنى: واخشوا يا معشر بني إسرائيل (المحرفين للتوراة، والمكذبين برسولي محمد، والمنكرين الجاحدين لما جاء به من القرآن الذي الحق والهدى)، إخشوا يوماً شديد الهول والبطش والعقاب للكافرين الذين حادوا عن الصراط المستقيم عناداً واستكباراً، ففي هذا اليوم لا تغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة شيئاً، ولا يقبل منها فداء تنجو به من عذاب النار، ولا تنفعها شفاعة، ولا يجد الكافرون في هذا اليوم معيناً يأخذ بيدهم، ولا ناصراً لهم من دون الله.

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤)

وَإِذِ ابْتَلَى: الابتلاء الاختبار

بِكَلِمَاتٍ: اختبر الله إبراهيم بأوامره ونواه.

فَأَتَمَّهُنَّ: فأداهن وعمل بهن.

إِمَامًا: نبياً.

قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي: يعني أجعل من ذريتي أئمة.

قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ: أي سأجعل الصالحين من ذريتك أئمة من دون الظالمين فإنهم لا ينالون عهد الإمامة.

المعنى: أذكر يا محمد حين اختبر الله عبده (إبراهيم الخليل)، وكلفه بجملة من التكاليف الشرعية (أوامر ونواه) وقيل أن الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن (هن فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجة نمرود في الله، وصبره على قذفهم إياه في النار ليحرقوه، والهجرة من وطنه حين أمر بالخروج عنهم، وما أبتلي به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه)، فقام بهن خير قيام وأداها أحسن أداء، فكان جزاؤه من الله أن قال له: إني جاعلك إماما (أي نبياً ترشدهم وتؤمهم في دينهم وتفصل بينهم في شئون دنياهم)، فقال إبراهيم لربه، وجاعل بعض ذريتي كذلك أئمة (أي أنبياء)، فأجاب الله تعالى بأنه لا ينال عهده بالإمامه والنبوة الظالمين، الذين دنسوا أنفسهم بالمعاصي فليسوا أهلا لعهد الله إليهم بالنبوة والإمامة، وإنما ينال عهد الله من كملت أخلاقه، وصفت روحه وصلح عمله.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (١٢٥)

مَثَابَةً: مرجعا ومآبا.

وَأَمْنًا: موضع آمن لا يتعرض لأهله بسوء أو أذى.

مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ: المكان الذي فيه الحجر الذي كان يقيم عليه إبراهيم عند بناء البيت، وهو على المشهور تحت المصلى المعروف الآن.

مُصَلًّى: مكان صلاة.

وَعَهِدْنَا: أي وأمرنا.

طَهِّرَا بَيْتِيَ: أي الكعبة إضافة إليه تشريفاً وتفضيلاً وتخصيصاً.

لِلطَّائِفِينَ: أي الدائرين حوله.

وَالْعَاكِفِينَ: المعتكفين به الملازمين.

وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ: المصلين.

المعنى: واذكر يا محمد حين جعلنا الكعبة المشرفة مرجعاً للناس يقبلون عليه من كل جانب (من جميع أنحاء العالم)، وهو مكان آمن يأمن من لجأ إليه (وذلك لما أودع الله في قلوب العرب من تعظيمه وإجلاله وجعل الناس يقصدونه لأداء المناسك فيه)، وقلنا للناس اتخذوا من مقام إبراهيم (وهو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم لبناء الكعبة) مصلى أي صلوا عنده، وكذلك أمرنا إبراهيم وولده إسماعيل بأن يصونا البيت مما لا يليق بحرمته، ووصيناهما بتطهيره من كل رجس معنوي (كالشرك بالله، وعبادة الأصنام، وكاللغو والرفث) والتنازع فيه حين أداء العبادات (كالطواف به، والسعي بين الصفا والمروة)، والعكوف فيه (أي التزامه والصلاة فيه)، والمراد تهيئته تهيئة صالحة، وتطهيره من كل رجس حسي أو معنوي (لأنه مقر للطائفين والعاكفين والمصلين).

وقيل سبب تسمية إبراهيم ابنه إسماعيل أن إبراهيم (عليه السلام) كان ينادي ربه بقوله: إسمع يا إيل (أي يا الله بالسريانية) فلما رزقه ربه بإبنه سماه بما دعاه إسمعيل.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٢٦)

اجْعَلْ هَـٰذَا : إشارة إلى مكة المكرمة.

أَضْطَرُّهُ: الاضطرار هو الإكراه.

الْمَصِيرُ: المرجع.

المعنى: واذكر يا محمد دعاء إبراهيم ربه أن يجعل مكة وما حولها من الوادي، بلداً آمناً تسوده الطمأنينة، وأن يرزق أهله من الثمرات أطيبها، ومن الخيرات والبركات أحسنها (وقد خص إبراهيم بدعائه المؤمنين فقط)، ولكن الله أعلمه أن الرزق في الدنيا يستوي فيه المؤمن والكافر، وقد استجاب الله تعالى دعاء إبراهيم (عليه السلام)، ورزق مؤمني البلد من الثمرات، كما رزق كفارهم أيضاً ومتعهم في حياتهم الدنيا القصيرة، ثم يضطرهم في الآخرة (كرهاً لا اختياراً) إلى عذاب النار وبئس المصير.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧)

الْقَوَاعِدَ : جمع قاعدة وهي الأساس.

المعنى: واذكر يا محمد وقت أن رفع إبراهيم أساس البيت العتيق (يعاونه في ذلك ابنه إسماعيل)، وهما يدعوان الله عز وجل "ربنا تقبل منا هذا العمل الخالص لوجهك الكريم فأنت السميع لدعائنا، العليم بنياتنا في جميع أعمالنا".

هذا والكعبة ليست هي البيت ولكنها هي المكين الذي يدلنا على مكان البيت، حيث البيت كان موجوداً قبل إبراهيم (عليه السلام) حيث وضعته الملائكة قبل أن يخلق آدم، حيث قال الله للملائكة "إبنوا لي بيتا في الأرض يتعوذ به من سخطت عليه من بني آدم ويطوف حوله كما طفتم حول عرشي فأرضى عنه كما رضيت عنكم" فبنوا هذا البيت. وبعد هبوط آدم إلى الأرض أعد هذا البيت ليتوب الناس إلى ربهم وليقيموا الصلاة ويتعبدوا فيه، ثم جاء الطوفان (الذي غمر الأرض في عهد

نوح) فأخفى معالمه، فأراد الله (سبحانه وتعالى) أن يظهره ويبين مكانه للناس، وحين أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل الرضيع وتركهما في بيت الله الحرام (ولم يكن قد بنى الكعبة في ذلك الوقت) ذكر البيت كما في قوله تعالى ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ سورة إبراهيم: ٣٧.

وبعد أن أصبح إسماعيل شاباً يافعاً قام بمعاونة أباه في بناء الكعبة كعلامة تدل الناس على بيت الله الحرام، وعندما أراد إبراهيم أن يقيم القواعد من البيت كان يكفي أن يقيمها على قدر طول قامته، ولكنه أتى بالحجر ليزيد القواعد بمقدار ارتفاع الحجر، ويريد الله سبحانه وتعالى بمقام إبراهيم واتخاذه مصلى أن يلفتنا إلى أن الإنسان المؤمن لابد أن يعشق التكاليف... فلا يؤديها شكلاً، ولكن يؤديها يحب ويتحايل ليزيد تطوعاً من جنس ما فرض الله عليه.

وأما بنيان قريش للبيت ذكر عن معمر عن الزهري "حتى إذا بنوها وبلغوا موضع الركن اختصمت قريش في الركن (أي القبائل على رفعه"، حتى شجر بينهم، فقالوا: تعالوا نحكم أول من يطلع علينا من هذه السكة، فاصطلحوا على ذلك، فاطلع عليهم رسول الله (وهو غلام عليه وشاح نمرة أي شملة مخططة)، فحكموه فأمر بالركن فوضع في ثوب ثم أمر سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية الثوب، ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن، فكان هو يضعه (ﷺ).

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٨)

مُسْلِمَيْنِ: أي منقادين لك خاضعين لجلالك.

أُمَّةً: الأمة جماعة من الناس.

مَنَاسِكَنَا: المناسك جمع منسك من النسك وهو غاية الخضوع والعبادة، وشاع استعمال المناسك في معالم الحج وأعماله.

وَتُبْ عَلَيْنَا: تاب العبد إلى ربه إذا رجع إليه، وتاب الله على العبد أي رحمه وأحسن إليه.

المعنى: يكمل إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام) دعائهما إلى الله فيقولا "ربنا اجعلنا مسلمين لك أي اجعلنا خاضعين لك منقادين لحكمك، واجعل من ذريتنا من يسلم وجهه لك ويخضع لعظمتك وعلمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا، وتب علينا وارحمنا فإنك عظيم المغفرة واسع الرحمة يا أرحم الراحمين.

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩)

وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ : أي ابعث في الأمة الإسلامية رسولاً منهم.

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ: أي يعلمهم القرآن، وأسرار الأحكام الدينية ومعرفة مقاصد الشريعة.

وَيُزَكِّيهِمْ : يطهرهم بالتوحيد من الشرك وعبادة الأوثان وسائر الرذائل والنقائص.

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ: أي الغالب على أمره، والذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

المعنى: يتابع إبراهيم وابنه إسماعيل دعائهما إلى الله فيقولا "ربنا وابعث في الأمة الإسلامية رسولاً منهم (ليكون أشفق عليهم ويكونوا قد خبروه وعرفوا منشأه وأخلاقه الفاضلة ونحو ذلك مما هو من صفات النبوة ومقوماتها، وشروط صحتها)، ويقرأ عليهم آيات دينك، ويعلمهم القرآن وما به تكمل نفوسهم (من العلوم والمعارف وأسرارها وأحكامها)، ويطهرهم من دنس الرذائل ورجس الشرك، فأنت الرب القوي العزيز الذي لا يغلب ولا يقهر، والحكيم في تدبيره وأفعاله.

وقد أجاب الله دعوتهما وأرسل خاتم النبيين محمد (ﷺ) رسولاً منهم.

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠)

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ: أي لا يترك دين إبراهيم (عليه السلام) إلا من ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره وبتركه الحق إلى الضلال.

وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ : أي وقد اخترنا إبراهيم (عليه السلام) وجعلناه خالياً من الأدناس.

فِي الدُّنْيَا: بالنبوة والحكمة.

فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ: أي في الآخرة من الفائزين بالجنة ونعيمها.

سبب نزول الآية:

روى أن عبد الله بن سلام دعا إبني أخيه (سلعة ومهاجرا) إلى الإسلام، وقال لهما: قد علمتما أن الله تعالى قال في التوراة "إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد، من آمن به فقد اهتدى، ومن لم يؤمن به فهو ملعون"، فأسلم سلعة وأبى مهاجرا.

المعنى: لا تجد أحد يُعرض عن دين إبراهيم إلا شخص امتهن إنسانيته وألغى عقله، وأذل نفسه واستخف بها، فكيف تحتقرون عقولكم وتدعون أولياء من دون الله لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً، ولقد اصطفاه الله واجتباه في الدنيا وجعله أبا الأنبياء، وإنه في الآخرة لمن المشهود لهم بالتقوى والاستقامة والمقربين الصالحين.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣١)

أَسْلِمْ: أي أخلص في العبادة.

المعنـى: فقد استجاب إبراهيم لأمر ربه حينما طلب الله إليه أن يذعن وينقاد لطاعته، بما أراه من الآيات، وأقام له من الأدلة النقلية والعقلية، والشواهد الحسية الدالة على وحدانيته، فلبى الدعوة وقال: أخلصت ديني لله الذي فطر الخلق جميعا، وأسرع بالانقياد والامتثال شأن الخلصاء المصطفين الأخيار وقال: أسلمت لرب العالمين وأذعنت لإرادته.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١٣٢)

وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ: التوصية إرشاد غيرك إلى ما فيه خير وصلاح له (من قول أو فعل) على جهة التفضل والإحسان، والمراد به لموصى به الملة.

وَيَعْقُوبُ : أي ووصى بها يعقوب بنيه أيضا.

يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ: أي اختار لكم دين الإسلام.

فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ: أي فاثبتوا على الإسلام حتى يأتيكم الموت وأنتم مسلمون مخلصون بالتوحيد.

المعنى: ووصى إبراهيم بنيه بإتباع ملة الإسلام، وكذلك وصى حفيده بنيه هو الآخر أن يتبعوا دين الإسلام (دين الانقياد والطاعة والتوحيد لله)، والذي اختاره لهم وأمرهم بالثبات عليه، وحذرهم عن مفارقته حتى يلقوا ربهم بالموت على دين الحق والهدى، فيفوزوا برضوان الله وينالوا السعادة الحقة الأبدية.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٣٣)

سبب نزول الآية:

ورد أن اليهود قالوا للنبي (ﷺ) أن يعقوب وصى بنيه يوم موته باليهودية، فأنزل الله هذه الآية تكذيباً لهم.

المعنى: إنكم أيها اليهود لم تكونوا حاضرين وقت أن احتضر يعقب وقال لبنيه: أي شيء تعبدون بعد موتي؟ قالوا له: نعبد إلهك الواحد الأحد الفرد الصمد، وهو إله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحداً ونحن له مسلمون وخاشعون له بالعبودية والطاعة.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٤)

المعنى: رد الله (سبحانه وتعالى) على اليهود إدعاءهم أنهم شعب الله المختار، وأنهم من نسل الأنبياء (إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب) فقال: تلك أمة قد خلت (أي جيل قد سلف ومضى)، لها ما كسبت وقد مضت أيامهم الصالحات، وأنتم وإن كنتم من نسلهم فإنكم لم تعملوا مثل ما عملوا... بل كنتم شر خلف لخير سلف.

فإن أعمالهم الصالحة لهم وليس لغيرهم ممن لم يسير على نهجهم ولم يتبع طريقهم، ولم يهتد بهديهم، فجزاء عملهم مقصور عليهم، وأما أنتم فلكم ما كسبتم من سيئ الأعمال... وإن سنة الله في عباده ألا يجزي أحدا إلا بكسبه وعمله، ولن تؤاخذوا بأعمال غيركم، ولن يفيدكم شيء منها، ولن يكون لكم إلا ما تزودتم به في الدنيا للآخرة.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥)

المعنــى: قالـت اليهـود للمـؤمنين: كونـوا هـودا تهتـدوا وتـدخلوا الجنـة، وقالـت النصارى للمؤمنين: إتبعوا النصرانية تفوزوا بالهداية إلى الطريق المستقيم... فرد الله على زعمهم الزائف وبين أنهم ضالون ومضلون وأمر الرسول (ﷺ) أن يقول لليهود والنصارى في الرد عليهم: "لا نكون كما قلتم بل نكون على ملة إبراهيم الصحيحة التي لم يلحقها تبديل ولا تغيير ولن يلحقها أبداً"، ثم عرض الله بهم فقال: وما كان إبراهيم من المشركين... أما أنتم فلقد أشركتم بالله غيره (حيث قالت اليهود عزير ابن الله، وقالـت النـصارى المـسيح ابـن الله)، فـلا فـرق إذن بيـنكم وبـين مـن يعبـدون الأصنام.

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦)

الأسباط: جمع سبط وهو ولد الولد، والمراد هنا أولاد يعقوب، والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب من بني إسماعيل.

المعنــى: يـأمر الله (سبحانه وتعـالى) المؤمنين أن يقولـوا لمـن دعـاهم إلـى ديـن اليهوديـة أو النصرانية: آمنا بـالله وحده ربـا، وبـالقرآن (الذي أنزلـه علـى نبينا محمد) كتاباً وأمناً، كذلك آمنا بالصحف التي أنزلها الله إلى إبراهيم وعمل بها وأقرها ودعا إلى الإيمان بها كلا من إسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط (أحفاد يعقوب)، كما أمنا أيضاً بالتوراة التي أنزلها الله على موسى، وبالإنجيل الذي أنزله على عيسى، وآمنا كذلك بكل الكتب التي نزلت على جميع النبيين، ذلك لأن مصدر الجميع واحد، وهو الله (سبحانه وتعالى) أنزلها على قلوب النبيين والمرسلين، وجميعها تدعو إلى عبادة الله وحده، ولا يوجد اختلاف بينها، وكلها يؤكد بعضها البعض... أما نحـن فآمنـا بـالجميع، لا نفـرق بـين أحـد مـنهم ونحـن لربنـا مـسلمون ومخلـصون ومنقادون لأمر الله وخاضعون لحكمه.

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١٣٧)

شِقَاقٍ: بمعنى الخلاف بينهم.

المعنـى: إن آمن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) بنفس ما أمنتم به معشر المؤمنين فقد اهتدوا إلى الحق كما اهتديتم، وإن اعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه، فاعلم أنهم يريدون عداوتك وخلافك، وليسوا جادين من طلب الحق في شيء، وسيكفيك شرهم وأذاهم ويعصمك منهم يا محمد، فهو تعالى يسمع ما ينطقون به، ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم من المكر والشر.

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (١٣٨)

صِبْغَةَ: المراد الدين، ووجه تسمية الدين صبغة لأن الدين يطهر صاحبه من دنس الكفر ويغير طباعه إلى أحسن (مثل الصبغ الذي يغير لون الثوب إلى لون آخر ويدخل خلاله ويحليه).

المعنـى: ما نحن عليه من الإيمان هو دين الله الذي صبغنا به وفطرنا عليه فظهر أثره علينا كما يظهر الصبغ في الثوب، فقد صبغنا الله بصبغة الإيمان وطهر نفوسنا من دنس الشرك وأدران الوثنية، ذلك الدين الذي تحولنا به من شتات إلى أمه، ومن ذوي أخلاق رذيلة إلى أصحاب أخلاق حميده، وانتشلنا من شريعة الغاب إلى شريعة خير كتاب. ولا أحد أحسن من الله صبغة (أي دينا)، ونحن نعبده (جل وعلا)، ولا نعبد أحداً سواه.

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ (١٣٩)

أَتُحَاجُّونَنَا : أي تخاصموننا وتجادلوننا في الله (سواء في شأن الله أو في دين الله أن اصطفى نبياً من العرب؟

مُخْلِصُونَ: أي من أخلص العبادة لله، ولم يطلب بها غير وجه الله.

المعنى: يعلم الله (سبحانه وتعالى) نبيه وعباده المؤمنين أن يقولوا لليهود والنصارى (الذين ينكرون أن يصطفى الله سبحانه نبياً من العرب): نحن ننكر عليكم مجادلتكم لنا في دين الله، زاعمين أنكم أبناء الله وأحباؤه، وأن الأنبياء منكم دون غيركم؟، لأن النبوة إن كانت تفضيلاً من الله (سبحانه وتعالى) على بعض عباده، فلا فرق بيننا وبينكم في ذلك... فهو ربنا وربكم يتفضل علينا كما يتفضل عليكم، وإن كانت النبوة مرتبة على العمل الصالح، فلنا أعمالنا الصالحة كما لكم، غير أننا نزيد عليكم في هذا الشأن، وهو أننا نخلص العمل لله وحده، ولا نبتغي به رياء ولا سمعة، أما أنتم فقد جعلتم لله شركاء، فنحن أولى بالنبوة منكم.

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٠)

وَمَنْ أَظْلَمُ: لا أحد أظلم

مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ : المراد اليهود والنصارى (الذين أخفوا شهادة الله في كتبهم لمحمد بالنبوة) أو اليهود (أخفوا شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية أي بالإسلام في التوراة).

بِغَافِلٍ: الغافل الذي لا يفطن للأمور إهمالاً منه.

المعنى: أم تدعون يا معشر أهل الكتاب (اليهود والنصارى) أن هؤلاء الرسل (سواء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب) وأحفادهم كانوا يهوداً أو نصارى؟ فهل أنتم أعلم بديانتهم أم الله؟ وقد شهد الله لهم بملة الإسلام وبرأهم من اليهودية

والنصرانية، فكيف تزعمون أنهم على دينكم؟، ولا أحد أظلم ممن أخفى وكتم ما اشتملت عليه آيات التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله،... ثم يهدد الله (سبحانه) أهل الكتاب بأنه لن يترك أمرهم سدى، وأنه سيجازيهم على أعمالهم فلا تخفى عليه خافية.

﴿ تِلْكَ أُمَّة قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٤١)

المعنى: هذه الآية تكررت في الآية رقم (١٣٤) السابقة، ولقد تكررت لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف... أي إذا كان أولئك الأنبياء (على فضلهم وجلالة قدرهم) يجازون بكسبهم فأنتم أحرى أن تجازون بما كسبت أيديكم وعليكم ما اكتسبتم، ودعوا الإتكال على فضائل الآباء والأجداد، لأن كل نفس قدمت على الله يوم القيامة، فإنما تسأل عما كسبت وأسلفت، دون ما أسلف غيرها، فكل نفس بما كسبت رهينة.

الجزء الثاني

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١٤٢)

السُّفَهَاءُ : الجهال، يريد المنكرين تغيير القبلة (من اليهود والمنافقين والمشركين)، والسفاهة بمعنى اضطراب العقل طيشاً وجهلاً، واضطراب الأخلاق فساداً.

مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ: أي ما صرفهم عن التوجه في الصلاة عن بيت المقدس، وذلك لأن النبي (ﷺ) كان يصلي بمكة إلى الكعبة، ثم لما هاجر إلى المدينة أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس (وذلك امتحاناً لليهود) ثم حول بعد ذلك إلى الكعبة.

المعنى: سيقول ضعفاء العقول والإيمان (من اليهود والمشركين والمنافقين) أي شيء جرى لهؤلاء المسلمين، فصرفهم عن قبلتهم التي كانوا عليها (وهي الكعبة قبلة النبيين والمرسلين من قبلهم)، فقل لهم يا محمد أن الجهات كلها لله، فليست صخرة بيت المقدس بأفضل من سائر الصخور في جوهرها، وإنما يجعل الله تعالى للناس قبلة لتكون جامعة لهم في عبادتهم، وقد بلغ الأمر باليهود أن قالوا للرسول: إرجع إلى قبلتنا نتبعك ونؤمن بك، وما أرادوا بذلك إلا فتنة الرسول والطعن في الدين، وقالوا: إنه رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها، وليرجعن إلى دينهم أيضاً، وذلك حسب تفكيرهم واعتقادهم الخاطئ.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٤٣)

أُمَّةً وَسَطًا: الوسط العدل والفضيلة، والزيادة عن ذلك إفراط، والنقص عنه تفريط وتقصير، وكلاهما مذموم.

وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا: أي ما رددناك إلى القبلة التي كنت عليها (وهي الكعبة بمكة) إلا لنعلم من يتبع الرسول إمتحاناً للناس وابتلاء ولنعلم الثابت على الإسلام ممن يرجع إلى ما كان عليه من الكفر فيرتد لضعف إيمانه.

عَلَىٰ عَقِبَيْهِ: العقب مؤخرة القدم، والمراد يرد عن الإسلام.

المعنى: كما هديناكم إلى الإسلام، كذلك جعلناكم يا معشر المؤمنين أمة وسطا (أي عدد لا خيارا) بلا إفراط ولا تفريط في أي شأن من شئون الدين والدنيا، فهي تحافظ على المادة والروح، وتعطي لكل منهما حقه في حدود الاعتدال، وكذلك وسط في معاملاتها للفرد والجماعة، فلا تجعل الفرد يطغى على الجماعة (بتعنته

وطغيانه)، ولا تلغي شخصية الفرد في الجماعة، وذلك لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلغتهم، ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم الرسالة، وما أمرناك بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة، إلا لنختبر إيمان الناس فنعلم من يصدق الرسول ممن يشكك في الدين ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه، وإن كان هذا التحويل شاقاً وصعباً إلا على الذين هداهم الله، وما صح ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يثيبكم عليها، وذلك حين سألوا النبي (ﷺ) عمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة إلى الكعبة فنزلت الآية، ولقد سمى الله تعالى "الصلاة" "إيماناً" في قوله ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي صلاتكم لأن الإيمان لا يتم إلا بها، ولأنها تشتمل على نية وقول وعمل، وأن الله تعالى عظيم الرحمة بعباده، لا يضيع أعمالهم الصالحة التي فعلوها.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٤)

فَوَلِّ وَجْهَكَ: أي فوجه وجهك.

شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ: أي جهة الكعبة.

لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ: أي التحويل إلى الكعبة هو الحق لتضمن كتبهم أنه (ﷺ) يصلي إلى القبلتين.

سبب نزول الآية:

كن النبي (ﷺ) يتشوق إلى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، ذلك لأن الكعبة قبلة أبيه إبراهيم (عليه السلام)، ولأن الكعبة أقدم القبلتين، ولأن ذلك أدعى إلى إيمان العرب (وهم الذين عليهم المعول في إظهار هذا الدين) لأنهم أكثر الناس استعداداً لقبوله، كما أن الكعبة كانت مفخرة لهم، وأمنا ومزاراً، ومطافاً، إضافة لذلك

فإن اليهود كانوا يقولون: يخالفنا في ديننا ويتبع قبلتنا ولولا ديننا لم يدر أين يستقبل القبلة، فكره النبي (ﷺ) قبلتهم حتى روى أنه قال لجبريل (عليه السلام): وددت لو أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها، وجعل الرسول يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالذي كان يرجوه فأنزل الله تعالى هذه الآية.

المعنى: كثيراً ما رأينا تردد بصرك يا محمد جهة السماء (تشوقاً لتحويل القبلة)، فلنوجهنك إلى قبلة تحبها (وهي الكعبة قبلة أبيك إبراهيم)، فتوجه في صلاتك نحو الكعبة المعظمة، وحيثما كنتم أيها المؤمنون فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة أيضاً، وإن اليهود والنصارى ليعلمون أن هذا التحويل للقبلة حق من عند الله، ولكنهم يفتنون الناس بإلقاء الشبهات، والله لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها وفيه وعيد وتهديد لهم.

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٥)

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ: أراد ذوي العناد منهم.

بِكُلِّ آيَةٍ: برهان وحجة على أن الكعبة قبلة.

وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ: حيث اليهود تستقبل بيت المقدس، بينما النصارى تستقبل مطلع الشمس لا يرجى توافقهم، ولا يرجى موافقتهم لك، والمراد به المؤمنين الذين يخشى عليهم أن تؤثر فيهم أهواء اليهود والنصارى، فلا يتصور عقلا أن النبي المعصوم يتبع أهواء اليهود والنصارى.

المعنى: يقول الله تعالى مخاطبا الرسول (ﷺ): لئن جئت اليهود والنصارى بكلل معجزة على صدقك في أمر القبلة ما إتبعوك يا محمد ولا صلوا إلى قبيلتك، ولست أنت بمتبع قبلتهم بعد أن حولك الله عنها (وهذا لقطع أطماعهم الفارغة) حيث قالت

اليهود: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره تغريرا له عليه السلام، كما أن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود، وكذلك اليهود لا يتبعون قبلة النصارى (لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد)، مع أن الكل من بني إسرائيل، ولئن فرض أنك سايرتهم على أهوائهم، واتبعت ما يهوونه ويحبونه بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي، تكون ممن ارتكب ظلم كبير (والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير، وإلا فحاشاه صلى الله عليه وسلم من إتباع أهواء الكفرة والمجرمين، وهو من باب التهييج للثبات على الحق).

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤٦)

يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ: أي يعرفون محمد (ﷺ) أنه رسول الله معرفة لا شك فيها ولا شبهة، كما لا يشتبهون في معرفة أبنائهم، وذلك لما عندهم من صفاته المكتوبة في التوراة والإنجيل.

المعنى: وإن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ليعلمون أن التحول إلى القبلة حق، ويسلمون بأنك النبي المنعوت في كتبهم بنعوت في جملتها أنه (ﷺ) يصلي إلى الكعبة، وأن معرفتهم نبوتك وقبلتك كمعرفتهم أبناءهم (معرفة لا شبهة فيها)، بل أن معرفتهم لك أقوى وأشد من معرفة أبناءهم (فقد ينسب الولد إلى الأب وليس منه)، وأن فريقاً منهم ليكتمون هذا الحق وهم يعلمونه علماً يقيناً من كتبهم.

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٤٧)

الْمُمْتَرِينَ: الشاكين.

المعنى: ما أوحاه الله إليك يا محمد من أمر القبلة والدين هو الحق، فلا تكونن من الشاكين، والخطاب للرسول والمراد به أمته من كانوا غير راسخي الإيمان وممن

يخشى عليهم أن يغتروا بزخرف القول من أولئك المخادعين الذين جعلوا همهم إشعال الفتنة بين المؤمنين.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٤٨)

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا: أي أن لكل أهل ملة قبله هو مول وجهه إليها.

فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ: فبادروا وتسابقوا بالطاعات وقبول الأوامر.

أَيْنَمَا تَكُونُوا: أي حيثما توجدوا أنتم وأهل الكتاب.

يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعًا: يأتوا جميعا يوم القيامة للحساب والجزاء.

المعنى: لكل فريق من الأمم قبلة هو مول وجهه إليها في الصلاة، فإبراهيم وإسماعيل كانا يوليان وجهيهما نحو الكعبة، وبنو إسرائيل كانوا يستقبلون صخرة بيت المقدس، والنصارى كانوا يستقبلون المشرق، فأي شبهة تتجه من المفترين في أمر تحويل القبلة؟... وكيف يكون ذلك مسوغاً للطعن في النبي وشريعته؟... فليست القبلة ركناً من أركان الدين، وليس فيها شيء من التفاضل، وإنما التفاضل في فعل الطاعات، وعمل الخيرات... فبادروا إلى فعلها، وتسابقوا فيها حتى تحرزوا السبق، بدل أن تجادلوا وتعترضوا على تحويل القبلة، والله (سبحانه وتعالى) يستوي عنده كل مكان، فأينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً يوم القيامة، ولن يفلت منه أحد، فيحاسبكم على أعمالكم، فهو لا يعجزه أن يحشر الناس يوم الجزاء، مهما بعدت بينهم المسافات، وتناءت بهم الديار والجهات، وفي هذا تهديد للمنكرين المفترين.

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٤٩)

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ: ومن أي بلد خرجت للسفر.

فَوَلِّ وَجْهَكَ: اتجه إذا صليت للمسجد الحرام.

وَإِنَّـهُ لَلْحَـقُّ : وأن هذا الأمر باستقبال المسجد الحرام للحق الذي لا مرية فيه، فحافظ عليه.

المعنى: ومن أي مكان خرجت، وفي أي بقعة حللت، فول وجهك في صلاتك شطر المسجد الحرام.

وليس في ورود الأمر (مثنى وثلاث) تكرار، بل تأكيد للأمر بتحويل القبلة في صور مختلفة، ليعلم أن التوجه إلى الكعبة ليس خاصاً بوقت دون وقت، ولا مكان دون مكان (سواء في الحضر أو السفر أو غيره)، ولقد بنى القرآن على كل أمر ما يناسبه، فمع الأول أثبت أن الذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه الحق، ومع الثاني بين أنه الحق الثابت من عند الله، ومع الأمر الثالث بين الحكمة في تحويل القبلة.

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٥٠)

لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ: لئلا يكون لليهود عليكم حجة، لأن في كتابهم أن الحرم هو قبلة إبراهيم، فإذا صليتم إليه لا تكون لهم حجة عليكم.

إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ: أي إلا المعاندين منهم فإنهم يقولون: ما تحول إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحبا لبلده، ويوشك أن يرجع إلى دينهم.

وَاخْشَوْنِي: واحذروا عقابي إن خالفتم أمري.

وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ: أي أمرتكم باستقبال الكعبة لئلا يكون للناس عليكم حجة، ولإتمام النعمة عليكم (بهدايتي إياكم إلى قبلة أبيكم إبراهيم وإرادتي هدايتكم).

المعنى: والتزم أمر الله في القبلة واحرص عليه أنت وأمتك، فول وجهك شطر المسجد الحرام من كل مكان خرجت إليه في أسفارك، واستقبلوه حينما كنتم من أقطار الأرض، سواء مسافرين أو مقيمين.

وأعاد الأمر (فول وجهك) مرة ثالثة عناية بأمر هذا التولي وليرتب عليه الحكم والمنافع الثلاث التالية:

١- ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ فأهل الكتاب يعرفون أن النبي المبشر به عندهم قبلته الكعبة، وجعل القبلة إلى بيت المقدس دائما طعن في نبوته، والمشركون من العرب كانوا يرون أن نبياً من ولد إبراهيم (عليه السلام) جاء لإحياء ملته، ولا ينبغي أن يستقبل غير بيت ربه الذي بناه جده إبراهيم، ولذا جاء التحويل من بيت المقدس موافقاً لما يرونه، إلا الذين ظلموا منهم (أي الذين ظلموا أنفسهم الذين لا يهتدون بكتاب ولا يؤمنون بحججه) ومثلهم لا يقام لهم وزن، فلا تخشوهم، واخشوني (أي لا تخالفوا ما جاءكم به رسولي عني) فأنا القادر على جزائكم بما وعدتكم.

٢- ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾: فلا شك أن محمد بن عبد الله نبي عربي، ومن ولد إبراهيم (عليه السلام)، والكتاب المنزل عليه عربي، وقد ظهر النبي في العرب وهم أهله وعشيرته، وكانوا إذا آمنوا يحبون أن تكون وجهتهم الكعبة، وأن يحيوا سنة إبراهيم في تعظيم البيت الحرام لأنه معبدهم، وموطن عزهم وفخارهم، لذلك كان التحويل إلى الكعبة نعمة تامة من الله عليهم، وليتم نعمته عليهم، وأظهرت حقيقة المؤمن الصادق من المنافق.

٣- ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي وليعدكم بذلك إلى الاهتداء بالثبات على الحق، فإن الفتن (التي أثارها السفهاء على المؤمنين في أمر القبلة)، أظهرت قوة الحق وثباته، وضعف الباطل وخضوعه، ومحصت المؤمنين، ومحقت الكافرين.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١)

يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا: أي يقرأ عليكم القرآن.

وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ: يعني معانيه وحقائقه.

وَيُـزَكِّيكُمْ: ويطهركم بالتوحيد من الشرك وعبادة الأوثان، وأدران الرذائل التي كانت متفشية في العرب (من وأد البنات، وقتل الأولاد تخلصاً من النفقة، وسفك الدماء لأوهن الأسباب).

وَالْحِكْمَةَ: أي السنة.

وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ: وذلك من أخبار الماضين وأحوالهم، ومن الشرائع وسير الأنبياء، وأخبار عالم الغيب وخلافه.

المعنى: ولأتم نعمتي عليكم برجوعكم إلى البيت (المسجد الحرام) الذي جعلته قبلة لكم، وأرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آيات القرآن، ويطهر نفوسكم من دنس الشرك وعبادة الأوثان، ويفقهكم في الدين، ومعارف القرآن، والعلوم النافعة، والسنة الكاشفة لما في أحكام القرآن من الأسرار والمنافع، ويعلمكم مع الكتاب والسنة أحوال الأمم الماضية، وسير الأنبياء، والشرائع، والإخبار بالغيب.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٢)

المعنى: فاذكروني أيها المؤمنون بالطاعة وامتثال أوامري، والإذعان لإرادتي، والتسبيح وقراءة القرآن، والتفكر في ملكوت السموات والأرض لتستدلوا بهما على قدرتي، وتتخذون منها برهاناً على وحدانيتي وعظمتي، فأذكركم بالثواب والإحسان، وإفاضة الخير، وفتح أبواب السعادة والنصر، واشكروا لي ما أسبغت عليكم من النعم، وتوجيهها إلى ما وجدت وخلقت لأجله، ولا تكفرون بجحد هذه النعم وعصياني ومخالفة أمري.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَّ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣)

المعنى: استعينوا أيها المؤمنون على إقامة دينكم والدفاع عنه، وعلى كل ما تأتون وما تذرون بالصبر، وتوطين النفس على احتمال المكاره، واستعينوا كذلك بالصلاة التي هي عماد الدين وأم العبادات، وفيها لقاء المؤمن الخاشع بربه.

وإنما خص الصبر والصلاة بالذكر، لأن الصبر أشد الأعمال الباطنة على البدن، والصلاة أشد الأعمال الظاهرة عليه (حيث فيها خشوع واستسلام لله، واستشعار لعظمة الخالق)، وقد روى أنه (ﷺ) كان إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة.

وذكر في نهاية الآية أن الله مع الصابرين أي ناصرهم، ومجيب دعوتهم، ومن كان الله ناصره فلا غالب له، أما الجازع فقلبه لاه عن ذكر الله.

﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾(١٥٤)

المعنى: يؤكد الله في هذه الآية أن الاستشهاد في سبيله نعمة كبرى، وهو تعالى يحثنا على مجاهدة الكفار، ويحرضنا على قتالهم، ويأمرنا ألا نرهب الموت في سبيل نصرته، فمن مات شهيدا تمتع بحياة عالية أرقى من حياة الدنيا وأخلد منها.

والقول بأن الشهداء أموات (على غرار الناس) جهل بحقائق الأمور وموطنها... بل هم أحياء في عالم غير عالمنا، ولكن لا نشعر بحياتهم (إذ ليست في عالم الحس الذي يدرك بالمشاعر)،... بل هي حياة غيبية عالية تمتاز بها أرواح الشهداء على سائر أرواح الناس... فهم أحياء في قبورهم حياة ينعمون بها، ويرزقون رزقاً على كيفية (الله أعلم بها لأنها ليست كالحياة المتعارف عليها في الدنيا)، ونحن لا نشعر بذلك، لأنها حياة لا تدرك بالمشاعر، ولكنها حياة خاصة لا ندرك كنهها، وقد حدثنا عنها الدين على لسان الوحي الصادق في القرآن الكريم، فيجب أن نؤمن بها.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾(١٥٥)

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ: لنمتحنكم أو لتصيبنكم إصابة من يختبر أحوالكم.

وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ: ذهاب بعضها بالهلاك والخسران.

وَالثَّمَرَاتِ: نقص الثمرات قلتها بسبب إصابتها بالآفات والأمراض، وقيل نقص الثمرات بموت الأولاد، لأن الولد ثمرة الفؤاد.

المعنــى: والله لتصيبنكم أيها المؤمنون ببعض ضروب المحن والخوف من الأعداء، ونزول القحط بكم، وتعذر الحصول على الزاد، والنقص في الأموال بضياعها، وفي الأنفس بموتها وقتلها وبموت الأولاد، وفي الثمرات بقلتها... وقيل أنه بلغ من جوعهم أن كانوا يتبلغون بثمرات يسيرات (ولاسيما في غزوة الأحزاب وتبوك).

وبشر الصابرين، لأن الصبر درع المؤمن، وسلاحه الذي يتغلب به على الشدائد والمشاق، ولن يعصمكم في هذا الابتلاء القاسي إلا الصبر، فبشر الصابرين على المصائب والبلايا بجنات النعيم.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(١٥٦)

إِنَّا لِلَّهِ: أي مملوكون لله يتصرف فينا بما تقتضيه حكمته.

وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ: راجعون إلى الله في الآخرة ليجازينا على صبرنا.

المعنى: الذين إذا أصابتهم مصيبة احتملوها، وآمنوا بأن الخير والشر من الله، وأن الأمر كله لله تعالى، ويقولون شأننا شأن العبيد لذات الله العلية القدسية، فعلينا أن نذعن لمشيئته وأن نستسلم لإرادته، وأن نرضى بقضائه وقدره، محتسبين الأجر عنده، قائلين إنا ملك لله، وإنا إليه راجعون فيجازينا على أعمالنا، فله الشكر على النعماء والسراء، وعلينا الصبر عند البلاء والضراء، وعنده وحده المثوبة والجزاء.

وورد في حديث عن الرسول (ﷺ) قال "ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون إلا أجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرا منها، وروى عن عمر بن الخطاب قال "ما أصابتني مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم: الأولى أنها لم تكن في ديني، الثانية أنها لم تكن أعظم مما كانت، الثالثة أن الله يجازي عليها الجزاء الكبير.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(١٥٧)

صَلَوَاتٌ : الصلاة من الله تعالى مغفرة ورحمة.

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ: أي هم المهتدون للحق والصواب واستسلموا لقضاء الله.

المعنى: أولئك الصابرون لهم البشارة الطيبة من ربهم بالمغفرة والإحسان على ما فعلوا، ولهم الرحمة الواسعة تجدون أثرها في برد قلوبهم (عند نزول المصيبة وحلول المحن)، وأولئك هم المهتدون إلى الحق والصواب، ومن ثم استسلموا لقضاء الله وقدره لهم لم يغلبهم الحزن، ولم يستولى عليهم الجزع)، ففازوا بخير الدنيا وراحة الضمير، ونعموا بسعادة الآخرة، ورضوان من الله أكبر.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهَّ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَّ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾(١٥٨)

الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ : جبلان بمكة يسعى فيه الحجاج.

مِن شَعَائِرِ اللهَّ : شعائر جمع شعيرة وهي العلامة، أي من أعلام مناسك الحج.

فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ: حج البيت قصده، أو اعتمر أي زاره، والعمرة الحج الأصغر.

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ: أي لا حرج عليه ولا إثم.

أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا : أي يسعى بينهما.

تَطَوَّعَ خَيْرًا: أي الإكثار من الطاعة بالزيادة على الواجب.

سبب نزول الآية:

روى أن كان على جبل الصفا صنم يقال له "أساف"، وعلى جبل المروة صنم يقال له "نائلة"، وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة ويمسحون عليهما (تعظيماً للصنمين)، فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام، ومحقت الأوثان، تحرج المسلمون من السعي بينهما لأجل فعل الجاهلية، فنزلت الآية.

المعنى: جعل الله (تعالى) الكعبة مثابة للناس وأمنا، فكما رفع شأنها بجعلها قبلة للمسلمين، رفع أمر الجبلين (الصفا والمروة) فجعلهما تعالى من مناسك الحج، فيجب السعي بينهما سبع مرات، وإن كان منكم من يرى في ذلك حرجاً (لأنه من عمل الجاهلية)، ولكن الحق أن ذلك من معالم الدين وشعائره، فلا إثم على المحرم (بحج أو عمرة) أن يطوف بهذين الجبلين، ومن ثم لا خوف من السعي بينهما، وإذا كان المشركون كانوا يطوفون بهما كفراً، فإنكم تسعون بينهما طاعة وقربة لله وإيمانا بالله وتصديقاً برسوله محمد (ﷺ)، ومن تطوع خيراً، وأكثر من الطاعة (بالزيادة على الواجب) فإن الله تعالى شاكر له ومثيبه على عمله، وهو تعالى محيط بعمله، علم بنيته (وكانت سيدتنا هاجر أم إسماعيل قد ترددت بين الجبلين الصفا والمروة سبع أشواطاً لتطلب الماء لولدها بعد أن تركهما إبراهيم عليه السلام عند بيت الله الحرام، وقد وجدت الماء بعد ذلك عند قدم رضيعها إسماعيل.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَات وَالْهُدَى مِنْ بَعْد مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَاب أُولَئِكَ يَلْعَنهُمْ اللَّه وَيَلْعَنهُمْ اللَّاعِنُونَ ﴾(١٥٩)

يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا : الكتمان تارة يكون بستر الشيء وإخفائه، وتارة أخرى يكون بإزالته ووضع آخر مكانه، وقد فعل اليهود كليهما في التوراة، فقد أخفوا حكم رجم الزاني، وأنكروا بشارة التوراة بمحمد (ﷺ)، وأنكروا نبوة عيسى (عليه السلام) وزعموا أنها لغيره، وأنهم لا يزالون إلى الآن ينتظرونه.

مِنْ الْبَيِّنَاتِ: من الآيات الواضحات التي تدل على صدق نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه، وعلى الرجم وتحويل القبلة.

وَالْهُدَى : أي الأحكام التي يهتدي بها.

اللَّاعِنُونَ: هو الملائكة والمؤمنون من الثقلين (الجن والإنس).

سبب نزول الآية: نزلت هذه الآية في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد (ﷺ)، وآية الرجم وغيرها من الأحكام.

المعنى: إن أهل الكتاب الذين كتموا أمر الإسلام، وأمر محمد (ﷺ)، وهم يجدون بشارة محمد مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل ظاهرة واضحة، أولئك يصب الله عليهم غضبه، ويبعدهم من رحمته، ويطردهم من حظيرة غفرانه، ويدعو عليهم الداعون من الملائكة ومؤمني الثقلين (الجن والإنس) بالطرد من رحمة الله تعالى.

﴿ إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(١٦٠)

تَابُوا: أي رجعوا عن الكتمان.

وَأَصْلَحُوا: أي أصلحوا أعمالهم وأرشدوا قومهم إلى تلك الآيات الواضحات عن النبي (ﷺ) ودينه، والهدى الذي جاء به.

وَبَيَّنُوا: أي جاهروا بعملهم الصالح، وأظهروا حقيقة ما كتموه وما بدلوه من قبل عما نزله الله من الكتاب حتى يكونوا أسوة طيبة لغيرهم.

أَتُوبُ عَلَيْهِمْ: أي أقبل توبتهم.

المعنى: إلا من تاب منهم ورجع عن كتمان كلام الله، وأصلح ما أفسده (بأن أزال ما وضعه من عنده، وتدارك ما فاته من إظهار الحقيقة من نعت الرسول وأمر الإسلام، وأقر بنبوة محمد وصدق ما جاء به من عند الله)، وأصلح حال نفسه

(بالتقرب إلى الله بصالح الأعمال)... هؤلاء التائبون يقبل الله توبتهم (رأفة منه ورحمة)، وهو سبحانه الرحيم بالمقبلين عليه، يغمرهم برحمته، ويشملهم بعفوه، ويصفح عما كانوا قد اقترفوا من المعاصي والآثام.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾(١٦١)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ: المراد بهم الذين ماتوا من الكاتمين الذين لم يتوبوا.

وَالنَّاسِ: المراد بهم المؤمنون.

المعنى: إن الذين أصروا على الكفر وماتوا وهم كفار (دون توبة)، عليهم اللعنة، وتحل عليهم كلمة الطرد من رحمة الله، وعليهم لعنة الملائكة والمؤمنين (من الإنس والجن) أجمعين.

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾(١٦٢)

خَالِدِينَ فِيهَا: أي خالدين في النار.

يُنْظَرُونَ: يمهلون ويؤجلون، أي يعجل لهم العذاب من غير إمهال أو تأجيل.

المعنى: إن الذين ماتوا على الكفر (من غير توبة ورجوع إلى الله) سيمكثون في جهنم ويخلدون فيها، ولا يخفف عنهم العذاب، ولا يمهلون ليتوبوا ويعملوا صالح الأعمال، حيث يلاقيهم العذاب حال مفارقة الحياة الدنيا.

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾(١٦٣)

المعنى: إن إلهكم المستحق للعبادة إله واحد، لا نظير له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا معبود بحق إلا هو جل وعلا مولى النعم ومصدر الإحسان، وهو الرحمن الرحيم بخلقه المسدى إليهم جميع النعم.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١٦٤)

وَبَثَّ: نشر وفرق، يقال بث الخبر أي نشره وأذاعه.

دَابَّةٍ: الدابة ما دب على وجه الأرض من جميع الخلق من الناس وغيرهم.

يَعْقِلُونَ: ينظرون بعيون الإدراك والتفكر، ويعتبرون فيستدلون بالشواهد الحسية وعجائب المخلوقات على قدرة موجدها، وحكمة مبدعها، ووجدانية منشئها.

سبب نزول الآية:

أنزلت آية ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ على النبي (ﷺ) بالمدينة، فقالت كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

المعنى: لقد أبدع الله (سبحانه وتعالى) في خلق السموات والأرض وأحكم صنعهما، وأودع في خلقهما من العجائب والعبر، ما يقوم دليلاً على ألوهيته، وبرهاناً وشاهداً على وحدانيته،... ومن ذلك سير النجوم والكواكب في مداراتها بانتظام وإحكام (دون تزاحم أو صدام)، تبعث الحرارة والنور لهذا العالم، وقد خلق الأرض وما فيها من تعاقب الليل والنهار، وتفاوتهما (طولاً وقصرا، ونوراً وظلمة)، وما يترتب على ذلك من المنافع التي لا تحصى، وما يجرى من السفن (وهي مليئة بالأثقال وما تحمله من الناس) فلا ترسب مع ثقلها، وكذا جريانها بالرياح مقبلة ومدبرة، وكذا تسخير البحر لحمل الفلك (مع قوة سلطان الماء وجيشان البحر)، وكذا نزول المطر الذي يحيى الحيوان ويسقي الأرض والزراع، وكذا توجيه الرياح إلى مهابها المختلفة، والسحاب المذلل بين السماء والأرض كيف تكون وتجمع؟ ثم تغرق بنزوله مطرا على الجهات التي أرادها له خالقه ومسخره.

من الذي خلق هذا الكون فأبدع صنعه، وأودعه سر مكنونه، وحيويته وجماله؟؟

إن في ذلك لآيات تدل على الوحدانية والقدرة، وتبرهن على أن هذا الكون البديع لابد له من خالق مبدع أبدعه، وحكيم أحكم صنعه وأتقن خلقه... نعم إن في ذلك لآيات بينات لقوم ينظرون بنور اليقين، ويعتبرون فيستدلون على عظمة الله في خلقه وقدرته وإبداعه في صنعه.

توضيح علمي للآية: معنى الإعجاز في خلق السموات والأرض:

السماء إسم ما علانا وارتفع فوق رؤوسنا، وهو يعني هذا الكون بأسره الذي من حولنا، ويقول العلماء أن الكون نشأ بانفجار ذرة سوبر فريدة من نوعها (تعرف باسم المنفردة الكونية Singula Rity) تمييزا لها عن المنفردات الأخرى الموجودة حالياً في الكون من الثقوب السوداء (حيث تنهار عندها كافة قوانين الفيزياء)، وكان هذا الانفجار منذ أكثر من ٢٠ ألف مليون سنة، وهنا نسأل من الذي أوجد تلك الذرة السوبر الفريدة من نوعها؟ أليس لكل مخلوق لابد له من خالق؟... ولقد تبع الانفجار منطقة كرة اللهب الضخمة التي امتدت لمسافة ألف مليون سنه ضوئية (حيث السنة الضوئية تساوي ١٠ مليون مليون كيلو متر)، ثم تبعها منطقة غامضة أشبه بالسحب الشديدة البياض (والتي تشبه معجون الأسنان) يعتقد أنها المنطقة التي تكونت فيها المجرات الأولى، وهذه المنطقة قد تمتد لمسافة تتراوح بين ٢ – ٣ بليون سنة ضوئية، تليها منطقة أخرى تضم الأجسام شبه النجمية "الكويزرات" والتي يعتقد أنها مجرات قديمة جداً تآكلت وتقلصت مادتها (حيث تطلق إشعاعات غزيرة)، ثم منطقة المجرات النشطة أو المجرات الراديوية التي تطلق أيضاً إشعاعات قوية (وقد تكون في سبيلها إلى التحول إلى كويزرات مستقبلا)، وعلى الحافة الخارجية للكون المتطور تقع المجرات العادية، ومنها مجرة درب التبانة التي ننتسب إليها، وكذلك تجمعات المجرات الكلوستر، وأيضاً مجموعات المجرات السوبر كلوستر، وحائط المجرات العظيم (الذي اكتشف عام ١٦٨٩ ويضم آلاف المجرات على شكل

قوس هائل)، وبالطبع فإن هذه المجرات العادية تعد حديثة نوعاً عن المجرات الراديوية أو الكويزرات.

وعموماً يوجد في الكون أكثر من مائة مليون مجرة، وكل مجرة من المجرات عادة تحتوي على مئات الألوف من الملايين من النجوم، فعلى سبيل المثال مجرة سكة التبانه (التي تنتمي إليها الأرض) تحتوي على مائة ألف مليون نجم، والشمس أحد هذه النجوم في مجرتنا.

أي أن الكون كله نتج من انفجار ذرة سوبر وتناثرت سحابات الغبار التي كونت الأجرام كلها والكواكب، ورفعت الأجرام فوق بعضها البعض بالقوى الطاردة المركزية، كما شدت إلى بعضها البعض برباط الجاذبية.

ولقد تكونت الأرض التي كانت جزء من الشمس وانفصلت عنها من نفس مادة الكون (سحابات الغبار والأتربة ذات الحرارة العالية جداً)، والتي تكثفت وازدادت التصاقاً وانكمش حجمها برد سطحها وتجمد، بينما رسبت المعادن الأكثر كثافة لتكون باطن الأرض المنصهر إلى يومنا هذا، ويقدر العلماء عمر الأرض التي تعيش عليها بأكثر من ٥٠٠٠ مليون سنة، والأرض لا تساوي ذرة من هذا الكون العظيم، ولو أن حجمها (حجمها ١٠٨٣ مليون كيلو متر مكعب) كان أقل أو أكثر مما هي عليه الآن لاستحالت الحياة فوق الأرض... هذه بعض لقطات من الإعجاز في خلق السموات والأرض ولنا عودة لاستكمال ذلك.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾(١٦٥)

أَندَادًا: الأنداد جمع الند، وهو المماثل.

يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ: أي يعظمون الأنداد (كتعظيم الله) ويسوون بينه تعالى وبينهم في المحبة والطاعة.

أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ: أثبت على حبهم لله.

المعنى: ومن الناس (من تبلغ بهم الجهالة) أن يتخذ من غير الله رؤساء وأصناماً، ويعظمونهم ويخضعون لهم كحب المؤمنين لله (ولكن حب المؤمنين لله أشد من حب المشركين للأنداد)، ولو يرى الظالمون ويشاهدون (العذاب المعد لهم يوم القيامة) لعلموا أن القدرة كلها لله وحده، وأن عذاب الله شديد وأليم، فيومئذ يندمون ويتحسرون، حيث لا ينفع الندم ولا تجدي الحسرة.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾(١٦٦)

تَبَرَّأَ: أي التنصل والتباعد ممن يكره قربه وجواره.

الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا: يتبرأ ويتنصل الرؤساء المضلون من إضلال الأتباع.

وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ: أي تقطعت بهم الروابط والعلاقات التي كانت بينهم في الدنيا.

المعنى: ففي يوم الجزاء (يوم القيامة) يرجوا الأتباع أن ينجيهم رؤساؤهم المضلون (الذين أغووهم في الدنيا)، فيتنصل الرؤساء من إضلالهم (لأن الله قد ضاعف عذابهم، وحملهم أوزارا فوق أوزارهم)، فهم لذلك يتنكرون لأتباعهم ويتبرؤون منهم، ويقولون، ما دعوناكم لطاعتنا في معصية ربكم، وإنما هو هواكم وسوء تصرفكم، عندئذ تنقطع بينهم الأسباب، وتزول الروابط والصلات (التي كانت بينهم في الدنيا) ويصير بعضهم لبعض عدوا، وهذا لا يجديهم نفعاً، فقد حصل لرؤيتهم العذاب مائلا أمام أعينهم بما ارتكبوا من المعاصي، واقترفوا من الشرك، فأنى يفيدهم التبرؤ مما صنعوا؟

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾(١٦٧)

كَرَّةً: الكرة أي العودة والرجوع إلى الدنيا.

حَسَرَاتٍ: أي ندامات شديدة.

المعنى: وقال الأتباع ليت لنا كرة وعودة إلى الدنيا، فنسلك طريق الحق، ونتبع سبيل الله (بتوحيده، والاهتداء بقرآنه وسنة رسوله)، ونتنكر للرؤساء، ونتبرأ من باطلهم وإفكهم، كما تبرأوا منا يوم القيامة... وهكذا يريهم الله تعالى أعمالهم السيئة، فتكون حسرة عليهم ويندمون على ما فرط منهم، ويزج بهم في النار يخلدون فيها ولا يخرجون منها أبداً.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾(١٦٨)

المعنى: في هذه الآية الخطاب عام لجميع البشر، أي كلوا مما أحله الله لكم من الطيبات حال كونه مستطابا في نفسه، غير ضار بالأبدان والعقول، ولا يتعلق به حق للغير، ولا تقتدوا بالشيطان (الذي يوسوس لكم ويزين لكم الشر والمنكر)، إنه لكم عدو مبين ظاهر العداوة (كما كان لأبيكم آدم من قبل). فلا تتبعوه وخالفوه، حيث هو المحرض على ارتكاب المعاصي... فإذا عرض للإنسان داعي البذل لمعاونة بائس فقير، فهمت نفسه بالبذل ثم جاش في صدره خاطر الإمساك والتقتير، فليعلم أن هذا من وحي الشيطان فيما يسول له ويوسوس (من إرجاء البذل وكف اليد عن البذل والنجدة للفقير المحتاج إلى العون).

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(١٦٩)

بِالسُّوءِ: بالإثم.

وَالْفَحْشَاءِ: أقبح أنواع المعاصي والآثام.

المعنى: إنما يزين لكم الشيطان ما يضركم ومالا ينفعكم، ويزين لكم ويوسوس لكم أن تفعلوا ما يسوءكم في دنياكم وآخرتكم، وأن تقترفوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، كما يوسوس لكم الشيطان أيضاً أن تفتروا على الكذب وأن تقولوا على الله ما لا علم لكم به، فتدعون باطلاً وزورا أنه حرم أشياء لم يكن قد حرمها، وبذلك تعتدون على مقام الربوبية (بالتشريع)، وهذا أقبح ما يأمركم به الشيطان لأنه الأصل في إفساد العقائد وتحريف الشرائع.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾(١٧٠)

المعنى: وإذا قيل لمن اتبع خطوات الشيطان "إتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي، ولا تتبعوا من دونه أولياء"، جنحوا إلى التقليد، وتمسكوا بما توارثوا عن آبائهم في العقيدة والعمل، ومن الجهل المطبق ترجيح إتباع الآباء على طاعة الله وإتباع هداه، فكيف إذا كان آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين، ولا يستنيرون بنور الهداية والإيمان.

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(١٧١)

يَنْعِقُ: أي ينادي ويصيح.

بِمَا لَا يَسْمَعُ: أي بما لا يدرك بالاستماع.

إلا دعاء ونداء: الدعاء للقريب، والنداء للبعيد، والفارق بين الكافر والضال، هو أن الأول الكافر يرى الحق ويعرض عنه ويصرف نفسه عن دلائله، فهو كالحيوان

يرضى بأن يقوده غيره ويصرفه كيف يشاء، والثاني (وهو الضال) يخطئ الطريق مع طلبه وجهله بمعرفته بنفسه أو بدلالة غيره.

المعنى: ومثل الكفار في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة ومثل من يدعوهم إلى الهدى كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها (فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تفهم الكلام أو تدرك المعنى الذي يقال لها)، فهؤلاء الكفار كالدواب السارحة لا يفهمون ما تدعوهم إليه، ولا يفقهون، فهم يسمعون القرآن ويصمون عنه الآذان، صم عن سماع الحق، بكم (أي خرس) عن النطق به، عُميُ عن رؤيته فهم لا يفقهون ما يقال لهم لأنهم أصبحوا كالدواب، لذلك فهم في ضلالهم يتخبطون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(١٧٢)

طَيِّبَاتِ: حلالات.

وَاشْكُرُوا للهِ: أي واشكروا الله على ما رزقكم وأحل لكم.

إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ : أي إن صح أنكم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه معطي النعم.

المعنى: وجه الله تعالى الخطاب إلى المؤمنين خاصة (لأنهم أحق بالفهم وأحرى بالاهتداء)، فطلب إليهم أن يأكلوا من الطيبات ومن لذيذ الطعام المستطاب الذي رزقهم إياه، وغير الخبيث الذي يجب البعد عنه، وأن يشكروا الله على ما أولاهم من نعمة التمكين من الطيبات وإباحة الاستمتاع بها، ومن نعمة الطاعة والامتثال لأمره، والإذعان لمشيئته تعالى، وذلك لكي تتم عبادتهم على وجه مرضي يدل على صدق عبوديتهم.

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١٧٣)

الْمَيْتَةَ: هي كل ما فارقته روحه من غير ذكاة مما يذبح.

وَالــدَّمَ: هـو المسفوح (أي السائل المصبوب)، وكانـت العرب تجعل الـدم فـي المصارين ثم تشويه وتأكله.

وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ: حرام أكله، وإنما خص اللحم بالذكر لأنه المقصود لذاته بالأكل.

وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ : أي ذكر عليه عن ذبحه غير اسم الله تعالى.

فَمَنِ اضْطُرَّ: إلى أكل شيء من هذه المحرمات.

غَيْرَ بَاغٍ: الباغي هو الطالب للشيء الراغب فيه.

وَلَا عَادٍ: العادي هو المتجاوز قدر الضرورة كما جاء في التنزيل.

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ : أي فلا ذنب عليه.

المعنـى: ليس المحرم ما زعمه المشركون أو اليهود، وإنما المحرم عليكم أيها المؤمنون ما لم يذبح من الحيوان (أي الميتة غير المذكاة حيث يبقى فيها دمها)، وكذلك حرم الدم المسفوح (أي الدم السائل المصبوب) حيث النفوس الطيبة تأباه، وكذلك حرم أكل لحم الخنزير (لأنه حيوان خبيث قذر لا يأكل إلا من النجاسات والقاذورات والطب يؤكد خطره على الصحة)، وكذلك حرم ما ذكر على ذبحه اسم غير الله تعالى (من الوثن ونحوه) على أن من اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات لجوع ولا يجد يدفعه غيرها، أو أكره على أكلها فلا بأس عليه ولا حرج ولا حرمة، (لأن الضرورات تبيح المحظورات، وترفع الحرج وتدفع الإثم والحرمة)، وعلى المؤمنين ألا يسلكوا سبيل الجاهلية (من استطابة هذه المحرمات التي جاء بها الإسلام وأثبت العلم ضررها على الصحة، وعلى المضطرين إلى تناولها ألا يتجاوزوا ما يسد الحاجة ويدفع الجوع، وإنما ذكر قوله (غير باغ ولا عاد) لئلا يتبع الناس أهواءهم في تفسير الاضطرار إذا وكل إليهم تحديده، وأن الله غفور رحيم أي أن الله يستر خطايا عباده في تقدير الضرورة إذ وكل ذلك إلى اجتهادهم، وهم مجازون على نياتهم، والله تعالى رحيم بعباده، حيث رخص لهم في تناول هذه

المحرمات عند الضرورة، ولم يوقعهم في الحرج والعسر وجعل الضرورة تقدر بقدرها.

توضيح علمي للآية لماذا حرم الله الميتة والدم ولحم الخنزير:

فلقد أقر العالم بسبق القرآن له بهذه الآية الكريمة، والتي لم يصل العلم إلى ما قالت به إلا بعد ما يربو على أربعة عشر قرناً من الزمان، وبعد اكتشاف الميكروبات ومعرفة الجراثيم والكائنات الدقيقة التي لم يكشف العلم عنها إلا بعد اختراع أجهزة التكبير والتصوير.

١- **من حيث الميتة:** هي كل دابة ماتت ولم يزكها الإنسان لأجل أكلها، والميتة تضر الإنسان لاحتباس الدم فيها وتزاحم الميكروبات عليها وتكاثرها بها، وبذلك تصبح ضارة بصحة الإنسان وتصيبه بالأمراض المختلفة عندما يأكلها.

كما قد تكون ماتت بسبب مرض أو علة أو فسدت جسمها فصارت غير صالحة للحياة (حيث يكون قد خبث لحمها وتلوث بالجراثيم المرض، مثل مرض الحمى القلاعية وخلافه) فيخشى من نقل مرضها إلى الإنسان، حيث من المعروف علمياً أن الحيوانات الميتة التي يحبس فيها الدم تكون أكثر قابلية للتعفن، ولذلك عند ذبح الذبيحة يراعى التزكية أولا عليها، ثم ذبحها وإراقة الدماء منها والتخلص من الدم قبل سلخها والاستفادة من لحومها.

٢- **من حيث الدم:** وهو الدم المراق الجاري من الحيوان الحي (عند جرح عضو فيه)، أو الدم السائل منه عند ذبحه (بخلاف الدم الجامد مثل الكبد والطحال فهما حلال)، أما الدم المتبقي في بعض أجزاء اللحم الطيب بعد التزكية عليه فلا حرمة فيه، وذلك لأن التحفظ من هذا الدم فيه مشقة عسيرة ومخاطر كثيرة، ولذلك تجب زكاة الحيوان قبل أكله، وزكاته هنا هو التخلص من الدم (الذي في جسمه) والتسمية عليه حتى يصير حلالاً أكله، وقد كان العرب إذا جاع أحدهم يأخذ شيئاً

محدداً (من عظم أو حجر ونحوه) فيفصد به بعيره ويجمع ما يخرج من الدم فيشربه، والحكمة من تحريم الدم تشتمل على:

أ – حكمة تتعلق بالحيوان نفسه، فإن فصده بهذه الطريقة واستنزاف دمه (وهو حي) فيه إيذاء لكائن حي حتى ولو كان حيواناً (لأنه يحس ويتألم ولا يستطيع أن يشكو ويحتج، وهذا مناف لخلق الرحمة في الإسلام).

ب – حكمة تتعلق بالإنسان نفسه: فإن الدم (في حالة شربه) من الأشياء التي يستقزرهما الطبع الكريم، وتعافها النفوس النظيفة، كما يسبب الدم ضرر بالغ للإنسان وبجسمه، فوجود الدم في اللحم "الميتة" يساعد على نمو الميكروبات بها وسرعة فسادها كما ذكرنا، وقد تسبب التسمم للإنسان عند تناولها، كما أن وجود الدم بكثرة في أمعاء الإنسان يساعد على تكوين مركبات نشادرية تؤثر على المخ وتحدث تغيرات مرضية قد تصل إلى حد فقد الإحساس والغيبوبة، ويحدث هذا عادة نتيجة بلع الإنسان كميات كبيرة من دمه نتيجة نزف من المرئ أو الأمعاء، وحين يحدث قيء دموي (نتيجة تلف الكبد أو قرحة في الأمعاء أو الاثنى عشر) تتكون الأمونيا داخل تجويف الأمعاء وتصل (عن طريق الوريد البابي) إلى الكبد الذي يحولها إلى بولينا، ثم تقوم الكلى باستخلاصها من الدم وإفرازها في البول، وفي حالة تليف الكبد وهبوط وظائفه فإنه يفشل في تحويل الأمونيا إلى بولينا... ويؤدي ذلك إلى ارتفاع نسبة البولينا في الدم مما يصيب الكبد بالفشل الكبدي والكلوي، وحدوث تسمم للإنسان، وحدوث غيبوبة كبدية، وهذا ما يحدث نتيجة شرب الدم المسفوح أيضاً، حيث يؤدي إلى ارتفاع الضغط في الوريد البابي مما يتسبب عنه القيء الدموي، والغيبوبة الكبدية والتي قد ينشأ عنها مرض السيتور سريكور مما يسبب تلفاً في عضلة القلب أو العين أو المخ، وأعراض ذلك كله هبوط في القلب، وفشل في الدورة الدموية، ففقدان البصر أو شلل أو صداع وخلافه... وما أغنانا عن كل ذلك إذا ابتعدنا عن شرب الدم المسفوح.

٣- **من حيث لحم الخنزير**: فالخنزير يحتوي على كميات كبيرة من حمض البوليك ولا يفرز منه إلا القليل (نسبة لا تعدو ٣%، بينما يفرز الإنسان من حامض البوليك نحو ٩٠% منه)، ونظراً لاحتواء لحم الخنزير على هذه النسبة المرتفعة لذلك نرى أقلية يشكون من آلام روماتيزمية والتهابات المفاصل المختلفة، كما أن أليافه الغليظة تسبب عسر في الهضم، وهو من أصعب أنواع اللحوم ي الهضم (لاحتوائه على طبقات كثيرة من الدهن بين اللحم)، كما ثبت أن دهن الخنزير فيه مواد تساعد على تكوين الحصى في الكلى، كما أنها قد تسبب الإصابة بمرض السرطان، كما تحتوي عضلة لحم الخنزير على الطور المعدي من أطوار الدودة الشريطية "تينيا سوليم" والتي يبلغ طولها بين ٣ - ٦ أمتار، والتي تنتقل للإنسان خلال الغذاء به بويضات الدودة، وتتحرر اليرقة في الأمعاء للإنسان وتسري في الدم وقد تصل إلى المخ وتتحوصل هناك، ومن ثم قد تصيب الشخص من جرائها بتشنج عصبي ونوبات صرع، وقد تؤثر على البصر فيصاب الإنسان بالعمى وفقد البصر، كما يشعر الإنسان بالإحساس المستمر بالجوع، ومع شدة الشره للأكل والتغذية السريعة قد يصاب بالأنيميا ونقص الوزن، والإسهال، وقد يحدث إنسداد معوي منها، بالإضافة إلى ذلك فإن هناك العديد من الأضرار والأمراض الأخرى التي تنتج عن الخنزير وأكل لحومه، ومن تلك الأضرار والأمراض:

أ - احتواء لحم الخنزير على أعلى نسبة من الدهن (تصل إلى ٩١%) عن باقي الحيوانات المأكولة (بقر سمين ٣٥% دهن، ضأن سمين ٥٦%)، والتي تجعله أصعب اللحوم هضماً وأكثرها ضرراً.

ب - احتواء لحم الخنزير على طفيل فاشيوليس بوسكي الذي يسبب اضطرابات هضمية وإسهالاً للإنسان، وقد يتورم الجسم كله بعد ذلك ويؤدي إلى وفاة الشخص.

جـ - الإصابة بدودة جايجا نثورنكس: توجد هذه الدودة في أمعاء الخنزير وتصيب الإنسان بالعدوى وتسبب فقر الدم والاضطرابات الهضمية.

د – الإصابة بالحمرة الخنزيرية: حيث توجد هذه الطفيليات ي جلد الخنزير والتي تخترق جلد الإنسان (الذي يقترب من الخنزير أو يتداولها)، وتسبب الحمرة الخبيثة للإنسان (وهي التهاب جلدي يؤدي إلى إحمرار الجلد للإنسان مع حدوث حرارة للجسم وتوعك شديد)... وغير ذلك من الأضرار.

إضافة لذلك فإن غذاء الخنزير على القاذورات والنفايات والنجاسات ومجرد تذكر ذلك يجعل الطبع السليم ينفر من أكله، والإسلام دين الفطرة يدعو إلى تقبل كل ما هو سليم، كما إذا تتبعنا طباع الخنزير نجد أن أبرز صفاته الخسة، وعدم العفة، وعدم الغيره... فأكل لحمه يحمل نفس الصفات... ومثل هذه الصورة لا يرضاها الإسلام للإنسان المؤمن لذلك تم تحريم أكله.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١٧٤)

سبب نزول هذه الآية:

نزلت الآية في رؤساء اليهود وعلمائهم مثل كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف، وذلك لأنهم كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا، والمأكل، فلما بعث محمد (ﷺ) خافوا على ذهاب مأكلهم، وذهاب رياستهم، فكتموا صفة الرسول ونعته والآيات الدالة على نبوته في التوراة، وقد يراد بكتمانها كتمان معانيها (بأن كانوا يذكرون لها تأويلات باطلة ويصرفونها عن محاملها الصحيحة الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم).

المعنى: إن الذين يخفون ما أنزل الله من وحيه على رسله، أو يؤولونه ويحرفونه في مقابل ثمن قليل (مثل الرشا وخلافه) مما يستفيده الرؤساء من المرءوسين (وسمى قليلاً لأن كل عوض عن الحق فهو قليل وإن تمتع بثمن الباطل فذلك إلى أمد الحياة القصير)، فهؤلاء الذين يحرصون على حطام الدنيا، والرياسات الكاذبة،

والمكاسب الضائعة، ويأكلون لذيذ المطاعم، لا يأكلون في بطونهم إلا النار (أي ما يوجب الدخول في النار)، ومن شدة غضب الله عليهم أنه لا يكلمهم يوم القيامة، ولا يثنى عليهم بالخير (كما يفعل مع أهل الجنة)، وللكافرين عذاب شديد مؤلم في الدنيا والآخرة.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾(١٧٥)

اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ: أي أخذوا الضلالة بدل الهدى.

بِالْهُدَى: الهدى الشرائع التي أنزلها الله على لسان أنبيائه.

فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ: تعني أي شيء أصبرهم وجسرهم على النار حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل، وهذا استفهام قصد به التوبيخ والتقريع.

المعنى: أولئك هم الآثمون الذين اختاروا الضلالة على الهدى، واستبدلوا العماية بالإيمان، فاستحقوا العذاب في الآخرة بدل المغفرة... فعجباً لهم وأي عجب على إنهماكهم في العمل الذي يوصلهم إلى النار، إذ يصبرون على موجبات العذاب، ويستطيبون ما يؤدي بهم إليه.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾(١٧٦)

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ: ذلك العذاب بسبب أن الله.

نَزَّلَ الْكِتَابَ: أي التوراة.

وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ: أي اختلفوا في القرآن فقالوا سحر، وشعر، وأساطير الأولين.

لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ: لفي خلاف بعيد عن الحق.

المعنى: ذلك العذاب الأليم بسبب أن الله أنزل كتابه (التوراة) ببيان الحق، فكتموا وحرفوا ما فيه، واختلفوا في تأويله وتحريفه في خلاف بعيد عن الحق، كما اختلفوا في القرآن فقالوا عنه سحر، وشعر وأساطير الأولين، مما يستوجب لهم أشد العذاب يوم الحساب.

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(١٧٧)

الْبِرَّ: اسم جامع لكل خير.

وَالْمَسَاكِينَ: الفقراء المحتاجين.

وَابْنَ السَّبِيلِ: ابن الطريق، وهو المسافر المحتاج.

وَفِي الرِّقَابِ: إنفاق المال في فك الرقاب من قيد الرق.

الْبَأْسَاءِ: من البؤس، وهو شدة الفقر.

وَالضَّرَّاءِ: ما يضر الإنسان (من مرض أو فقد محبوب وخلافه).

وَحِينَ الْبَأْسِ: وقت شدة القتال.

المعنى: أراد الله (سبحانه وتعالى) أن يبين للناس كافة أن مجرد استقبال جهة معينة (في المشرق أو المغرب) هو قوام الدين وجماع الخير، ولكن ملاك الخير عدة أمور، بعضها من أركان العقيدة الصحيحة، وبعضها الآخر من أمهات الفضائل والعبادات، وهي على النحو التالي:

أولاً: الإيمان بالله ويوم البعث والنشور والحساب وما يتبعه يوم القيامة، والإيمان بالملائكة وبالكتب المنزلة على الأنبياء، والإيمان بالرسل أنفسهم.

ثانيـاً: بـذل المـال عـن رغبـة وطيـب نفس للفقراء مـن الأقـارب واليتـامى، ولمـن اشتدت حاجتهم وفاقتهم من الناس، وللمسافرين الذين انقطع بهم الطريق فلا يجدون ما يبلغهم مقصدهم، وللسائلين (الذين ألجأتهم الحاجة والضرورة إلى السؤال)، وكذلك إنفاق المال في فك الرقاب الأسيرة بالرق أو الأسيرة بالحرب.

ثالثاً: المحافظة على الصلاة وإقامتها كاملة تامة الأركان والشروط.

رابعاً: إخراج الزكاة المفروضة لمستحقيها الذين ذكروا في آية التوبة في قوله تعالى ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين...** ﴾

خامساً: الوفاء بالعهد (في النفس والمال)، فإن ذلك من آيات الإيمان، وضده وهو الخلف من آيات النفاق، كما ورد في الحديث الصحيح "آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان".

سادساً: الصبر في الأذى (ينزل بالنفس والمال والولد، ووقت مجاهدة العدو في مواطن الحرب)، فالصبر نصف الإيمان... بل هو الدليل والبرهان على كمال الإيمان وقوته، فالمؤمن يصبر في كل هذه المواطن ويحتسب أجره عند الله (في الفقر وشدته، والضر وإصابته، وحين القتال)، ولا شك أن هذه هي المواقف التي يظهر فيها الإيمان الكامل، فالذين يجمعون هذه العقائد الكاملة، والصفات الفاضلة، والأعمال الخيرة هم الذين صدقوا في إيمانهم، وهم الذين اتقوا ربهم حق تقاته فجانبوا الكفر، وتطهروا من الرذائل، وتكملوا بالكمالات النفسية، والفضائل الإنسانية التي تكسبهم محبة الله تعالى ونيلهم رضوانه الأكبر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١٧٨)

كُتِبَ عَلَيْكُمُ : أي فرض عليكم.

الْقِصَاصُ : لغة المساواة والمماثلة والعدل، وشرعاً أن يقتل القاتل (لأنه مساو للمقتول في نظر الدين).

فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ: أي إذا عفا ولي الدم عن القاتل، ورضي بالدية فلتكن مطالبته بها مطالبة جميلة فلا يعنفه.

وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ: أي وليؤد القاتل الدية من غير بخس ولا مماطلة.

ذَلِكَ: أي الحكم المذكور من العفو وأخذ الدية.

تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ: وذلك لأنه كان في التوراة القصاص لاغير، وفي الإنجيل العفو بغير بدل، فخير الله أمة الإسلام بين القصاص، أو العفو وأخذ الدية توسعة عليهم وتيسرا.

فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ : بأن قتل الجاني بعد العفو وقبول الدية.

سبب نزول هذه الآية:

كان بين حيين من العرب دماء في الجاهلية، وكان لأحدهما فضل وشرف (أهل القتيل) على الآخر (أهل القاتل)، فأقسم أهل القتيل لنقتلن الحر منكم بالعبد، والذكر بالأنثى، والأنثيين بالواحد، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله (ﷺ)، فأنزل الله هذه الآية، وأمرهم بالمساواة.

المعنى: يا أيها الذين آمنوا فرض عليكم أن تقتصوا للمقتول من قاتله بالمساواة دون بغي أو عدوان، واقتصوا من الجاني فقط، فإذا قتل الحر الحر فاقتلوه به، وإذا قتل العبد العبد فاقتلوه به، وكذلك تقتل الأنثى إذا قتلت الأنثى مثلا بمثل، ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني، فإن أخذ غير الجاني ليس بقصاص... بل هو ظلم واعتداء ومن تُرك له من دم أخيه المقتول شيء (بأن ترك وليه القود وأسقط القصاص راضيا بقبول الدية، فعلى العافي إتباع للقاتل بالمعروف بأن يطالبه بالدية بلا عنف ولا إرهاق، وعلى القاتل أداء للدية إلى العافي (ولي المقتول) بلا بخس أو مماطلة أو

إساءة في كيفية الأداء، ويجوز العفو عن الدية أيضاً كما قال تعالى ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ سورة النساء – آية ٩٢.

ذلك الحكم الذي شرعناه لكم (من العفو عن القاتل والاكتفاء بالدية) تخفيف ورخصة من ربكم ورحمة بكم (بالنسبة إلى حكم التوراة الذي يوجب القتل القصاص)، وأي رحمة أفضل من العفو والامتناع عن سفك الدماء، فمن اعتدى وانتقم من القاتل (بعد العفو والرضا بالدية)، فله عذاب أليم من ربه في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١٧٩)

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ: أي بقاء، لأن القاصد للقتل إذا علم من قتل يقتل، ترك القتل وامتنع عنه، فيكون فيه حفظ لنفسه بعدم تعريضها للقتل قصاصا، ويكون فيه حفظ وبقاء لغيره بكفه وعدوله عن قتله.

يَا أُولِي الْأَلْبَابِ: يا ذوي العقول.

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ: أي لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه.

المعنى: أن في القصاص (العدل والتكافؤ)، الحياة العظيمة للمجتمع تشع فيه الطمأنينة، والهدوء، والسكينة، وصيانة الناس من اعتداء بعضهم على بعض، فإن من علم أنه إذا قتل نفسا يقتل بها قصاصاً، امتنع عن القتل فيحفظ بذلك حياة من أراد قتله، ويحفظ في نفس الوقت حياة نفسه.

وهذا القصاص يمنع انتشار الفتن، واختلال الأمن، واضطراب النظام، وهو كذلك سبب في منع الجرائم واستئصال للشر.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾(١٨٠)

كُتِبَ عَلَيْكُمْ: أي فرض عليكم.

الْوَصِيَّةُ: أي التوصية، وتطلق على الموصي به (من عين أو عمل أو غيره).

بِالْمَعْرُوفِ: بالعدل، فلا يوصي للغني ويدع الفقير، ولا يتجاوز في وصيته الثلث مما يملك.

المعنى: فرض عليكم فيما شرعنا (لصالح الأسرة وحفظ كيانها)، شريعة الوصية، فعلى من ظهرت عليه إمارات الموت، وعلم أنه ميت لا محالة، وكان ذا مال يقتد به أن يوصي للوالدين والأقارب وصية عادلة، ولا يزيد على ثلث ماله، ولا يفضل غنياً لغناه، ويعدل في الوصية إلا لضرورة (كعجز في الكسب، أو خلافه)، فإن عدم العدل بسبب البغضاء والنزاع بين الورثة.

وليراع الموصي في ذلك ما يحسن ويقبل في عرف العقلاء، وهذا حقاً لازماً على المتقين لله، وقد كان هذا واجباً قبل نزول آية المواريث، ثم نسخ بآية المواريث.

﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١٨١)

فَإِنَّمَا إِثْمُهُ: أي إثم ذلك التبديل.

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ: سميع لما أوصى به الموصي، وعليم بتبديل المبدل.

المعنى: الوصية التي تصدر عن الموصي تكون واجبة، ولا يجوز تغييرها إلا إذا كانت الوصية خارجة عن العدل، ومن غير الوصية العادلة بعدما سمعها وشهد عليها، فإنما إثم التبديل على المبدل وقد برئت منه ذمة الموصي، وثبت له الأجر، وكان عند ربه مرضيا، والتغيير إما بإنكار الوصية، أو بالنقص فيها بعد أن علمها حق العلم، والله سميع لأقوال المبدلين والموصين، ويعلم نياتهم ويجازيهم على وفقها، فاحذروا عقابه، وارجوا ثوابه.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١٨٢)

فَمَنْ خَافَ : فمن علم

جَنَفًا : ميلا عن الحق والعدل بالخطأ في الوصية.

أَوْ إِثْمًا: ظلما.

فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ: بين الموصي لهم وهم الوالدان والأقربون.

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ: في هذا التبديل، لأنه تبديل باطل إلى حق.

المعنى: فمن علم من موصي ميلا عن الحق بالخطأ أو ميلا عن الحق عمداً فأصلح بين الموصي والموصى له، فلا ذنب عليه بهذا التبديل (لأنه تبديل باطل إلى العدل والحق)، وإن الله واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإصلاح.

وهذه الآية السابقة منسوخة بآية المواريث، وبقوله (ﷺ) "إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث). وبقى الأقارب غير الوارثين يستحب أن يوصي لهم من الثلث استئناساً بهذه الآية ولشمولها وتوكيدها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١٨٣)

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ: فرض عليكم.

الصِّيَامُ: الصيام في اللغة الإمساك والكف عن الشيء، وفي الشرع الإمساك عن الأكل والشرب وغشيان النساء، والكف عن جميع المفطرات من الفجر الصادق إلى غروب الشمس إيماناً واحتساباً، وإعداداً للنفس وتهيئة لها لتقوى الله ومراقبته في السر والعلن.

كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ: يعني الأنبياء والأمم منذ آدم (عليه السلام) وحتى محمد (ﷺ) خاتم النبيين وأمته الإسلامية.

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ: أي لعلكم تصلون إلى مقام التقوى فتمتثلون الأوامر وتجتنبون النواهي والمحارم.

المعنى: وكما كتبنا عليكم القصاص وشرعنا لكم الوصية العادلة لصلاح المجتمع، والحفاظ على وشائج الأسرة، فقد فرضنا عليكم الصيام تطهيراً لنفوسكم، وتقويما لشهواتكم، وقد كتبنا عليكم فريضة الصيام كما فرضناها على المؤمنين (من أنبياء وأمم السابقة منذ آدم (عليه السلام)، فلا يشق عليكم أمرها، واقبلوها، لأنها فريضة كتبت على الناس جميعاً تربية للعزائم، ورفعاً لروح التقوى، والإيمان، وتقوية للوجدان، والإرادة، وتهذيباً للنفوس.

توضيح لما في هذه الآية من إعجاز علمي:

فقد أكدت الدراسات العلمية في الشرق والغرب بأن الصوم وقاية وعلاج من خطر أمراض العصر، فضلاً عن أنه يجدد الأنسجة، ويؤدي إلى تآكل المواد الضارة الزائدة عن حاجة الجسم، حيث أن الصوم يطيل عمر الكائن الحي بصفة عامة، وقد ثبت أن جميع الكائنات الحية تصوم (سواء الإنسان أو الطيور أو الحشرات أو الحيوانات أو حتى النباتات تصوم بعد تمام نضجها وقبل حصادها)، كما يزيد من نمو الكائن الحي ويزيد من النشاط الذهني ويزيد حركة الهدم أثناء الصيام، ثم يزيد من حركة البناء (عند الإفطار) لتجديد الخلايا، كما أن الصيام فرصة للمعدة والأمعاء أن تظل خالية من أي طعام، وبهذا تهدأ حركات وإفرازات المعدة والأمعاء، ويمكن أن تكون هذه هي الفرصة الملائمة التي تشفى فيها القروح والجروح بالأغشية المخاطية، حيث يتوقف الامتصاص من الأمعاء، فلا يصل إلى الكبد أحماض أمينية أو جلوكوز، أو غيره (وذلك نتيجة لخلو الأمعاء من الطعام وبالتالي توقف الامتصاص ويتم التئام الجروح).

كذلك يتيح الصيام الفرصة للخلايا الكبدية للتخلص مما يكون قد ترسب في داخلها من دهنيات، كما ثبت أن الصيام يفيد في علاج مرضى السكر (حيث معدل السكر في الدم فيخفض أثناء الصيام).

كما يفيد الصيام في مقاومة الأمراض الجلدية (مثل الالتهابات وحب الشباب وغيره)، ويفيد كذلك في التخلص من السمنة (الوزن الزائد). كما يفيد الصيام أمراض القلب (مثل ترسيب الكوليسترول وتصلب الشرايين وغيره) نتيجة نقص المواد الدهنية بالصيام.

كما ثبت علمياً أن الصيام له قدرة عجيبة في إذابة أورام صغيرة (في بداية تكونها)، ويمنع تكوين الحصوات والرواسب الجيرية (حيث يحللها أولا بأول ويتخلص منها الجسم بالتالي).

كما ذكر أحد العلماء أن الصوم لشهر واحد في السنة هو أساس الحياة، فضلاً عن الفوائد النفسية التي تقي المرء من كثير من الأمراض العضوية... فالصوم خير في مجموعه.

وهكذا جعلت الآية لفظ "الخير" عاماً بما لا يمكن لأي باحث علمي أن يحيط بقدره، ومقدار حجمه وحدوده، وذلك في قوله تعالى ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة (١٨٤).

ويقول ابن القيم الجوزيه عن الصيام "الصوم جُنة من أدواء الروح والقلب والبدن، منافعه تفوت الإحصاء، وله تأثير عجيب في حفظ صحة الإنسان، وإذابة الفضلات، وحبس النفس عن تناول مؤذيانها، ثم إن فيه من إراحة القوى والأعضاء، وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١٨٤)

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ: أي أيام قلائل.

فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ : أي فليصم من أيام أخر بقدر ما أفطر من أيام.

وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ: الإطاقة هي القدرة على الشيء مع تحمل المشقة الشديدة، أي وعلى الذين يشق عليهم الصيام وهم يتحملونه بمشقة وجهد (مثل الشيخ المسن، والحامل والمرضع، والعامل في العمل المجهد الشاق وهو مضطر إليه).

فِدْيَةٌ: الفدية هي طعام مسكين من أوسط ما يطعمون منه أهليهم بقدر كفايته (أي أكلة واحدة مشبعة عن كل يوم يفطرونه).

فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا: أي زاد على مقادير الفدية.

وَأَن تَصُومُوا: وأن تصوموا أيها المطيقون بمشقة.

خَيْرٌ لَّكُمْ : أي خير لكم من الفدية وتطوع الخير وفائدة عظيمة لكم.

المعنى: فرض عليكم أيها المؤمنون الصيام (وهو رياضة روحية)، وإعداد وتهيئة للتقوى، بمراقبة الله في السر والعلن، وفي الصوم تدريب على الصبر وتحمل المشاق، في أيام معدودات قلائل في شهر رمضان من كل عام، ولن يكلفكم الصوم ما لا تطيقون، فمن كان مريضاً مرضاً يضر معه الصوم، أو كان في سفر، فله أن يفطر ويقضي الصوم بعد برئه من المرض، أو بعد عودته من السفر.

أما الذين يشق عليهم الصوم، أو يؤدونه بجهد ومشقة (مثل عمال المناجم، وأصحاب الأعمال المرهقة المضنية، والحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما...)، فكل هؤلاء يفطرون وعليهم الفدية (وهي إطعام مسكين من أوسط ما يطعمون منه أهليهم بقدر كفايته) أكلة واحدة عن كل يوم يفطرونه، ومن تطوع من المطيقين خيراً (أي زاد في مقدار الفدية)، فثوابه عائد إليه ومنفعته له.

وعموماً فإن تصوموا أيها المطيقون (مع تحمل المشقة ولو كنتم مرضى، أو مسافرين، أو مسنين، أو حوامل أو مرضعات) خير لكم من الفدية، لما في الصوم من رياضة الجسد، وتزكية النفس وتقوية للإيمان والتقوى، ومراقبة الله تبارك وتعالى.

وقد سبق توضيح الفوائد العديدة وعلاج كثير من الأمراض للإنسان بواسطة الصوم كما أشارت الآية الشريفة.

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١٨٥)

هُدًى لِّلنَّاسِ: أي يهديهم من الضلال.

وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ: وآيات ظاهرات مما يهدي إلى الحق ويفرق بينه وبين الباطل.

وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ : عدة ما فطرتم.

وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ: أي لتعظموه معلنين ذلك بالتكبير.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ: ولكي تشكروا نعمه ورخصه فتؤدوا فرائضه عليكم.

المعنى: كلمة رمضان جاءت من الرمض (وهو شدة الحر)، والرمضاء شدة حر الشمس، وسمي رمضان لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها، ولقد أراد الله (سبحانه وتعالى) أن يحببنا في صوم هذا الشهر الذي أنزل فيه القرآن منجما في ليلة القدر منه، ثم نزل مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة لهداية الناس إلى المنهج القويم، والصراط المستقيم، مع وضوح آياته وإرشادها إلى الحق المبين، وجعلها فارقة بين الحق والباطل على مر العصور وتوالي الأجيال، فمن أدرك هذا الشهر سليما معافى غير مريض، ومقيما غير مسافر فعليه صومه، ومن كان مريضاً يضر معه الصوم، أو كان في سفر فله أن يفطر، وعليه قضاء صيام ما أفطره من أيام الصوم، فإن الله لا يريد أن يشق عليكم في التكاليف، وإنما يريد بكم اليسر ودفع الحرج والمشقة بما شرع لكم من رخصة الفطر في الصيام والقضاء لأيام الفطر، وهكذا شأن الله معكم

أيها المؤمنون في جميع ما شرعه لكم من الأحكام، فجعل الله الدين يسراً لا حرج فيه ولا عنت، وبهذا لا يفوتكم شيء من بركات هذا الشهر، ولتكبروا الله على ما هداكم إليه من الأحكام التي فيها سعادتكم في الدنيا والآخرة، وذلك بذكر عظمته وجلاله، وقدرته وحكمته، وتشكروا نعمه العظيمة، فتعطوا كلا من العزيمة والرخصة حقها، فيكمل إيمانكم، ويرضى عنكم ربكم، ويتم هدايته عليكم، ويحيطكم بحسن توفيقه.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(١٨٦)

فَإِنِّي قَرِيبٌ: أي قريب علما وإجابه (لتعاليه عن القرب مكانا).

فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي: فليلبوا دعوتي إياهم للإيمان والطاعة.

لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ: أي لكي يهتدوا.

سبب النزول:

روى أن جماعة من الأعراب سألوا النبي (ﷺ) فقالوا: "أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟"، فأنزل الله هذه الآية.

المعنى: وإذا سألك يا محمد عبادي عني، فإني قريب منهم (أقرب إليهم مما يظنون) ومحيط بأعمالهم، وعليم بما يأتون وما يذرون، وأرقب أحوالهم، ودليل ذلك أن دعوة الداعي تصل إلي في حينها، وليس بيني وبينهم حجاب، ولا ولي ولا شفيع يبلغني دعاءهم وعبادتهم، أو يشاركني في إجابتهم، وإثابتهم، فإني أجيب بنفسي دعوة من يدعوني بلا واسطة (إذا هو توجه إلي وحدي في طلب حاجته)، لأنني أنا الذي خلقته، وأعلم ما توسوس به نفسه، وإذا كان الله (سبحانه وتعالى) يستجيب لدعوة الداعي، فليلبوا دعوته إياهم للإيمان والطاعة، فإن ذلك إرشادهم وسدادهم.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(١٨٧)

الرَّفَثُ: الجماع.

لِبَاسٌ: أي ستر عن الحرام، أي أن الزوجات مخالطات لأزواجهن مخالطة الثوب للجسد، بل أشد، فكل يستر صاحبه ويقيه من السوء.

تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ: أي تخونونها وتظلمونها بتعريضها للعقاب، ونقصان حظها من الثواب.

بَاشِرُوهُنَّ : أي جامعوهن فهو حلال لكم في ليالي الصوم.

وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ: واطلبوا ما قدره الله لكم وأثبته في اللوح المحفوظ من الجماع ليس لقضاء الشهوة فحسب، بل لابتغاء ما أراد الله من النكاح من التناسب وبقاء النوع الإنساني.

حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ : أي حتى يظهر لكم نور الفجر متميزاً من ظلام الليل.

سبب نزول الآية:

روى أنه كان في ابتداء الأمر بالصوم إذا أمسى الرجل حل له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلي العشاء الأخيرة، أو يرقد قبلها، فيحرم عليه ذلك إلى الليلة التالية، فواقع عمر بن الخطاب أهله بعدما صلى العشاء، فلما اغتسل أخذ يبكي

ويلوم نفسه، وأتى النبي (ﷺ) واعتذر إليه، فقام رجال واعترفوا بمثل ذلك، فنزلت الآية.

المعنى: أحل الله تعالى لكم في الليلة (التي تصبحون فيها صائمين) مباشرة نسائكم (لاختلاطكم بهن مخالطة الثوب للجسد، بل أشد فكل يستر صاحبه ويقيه من السوء)، وقد رخص لكم في مباشرتهن ليلة الصيام، لعلمه تعالى أنكم كنتم تظلمونها بتعريضها للعقاب بمباشرة نسائكم ليلة الصيام (وكان هذا محرم في صدر الإسلام)، فتاب عليكم وعفا عنكم، والآن وقد تبين لكم حل ذلك فلا تتحرجوا من مباشرتهن وتمتعوا بما أباحه الله لكم، وكلوا واشربوا وانكحوا في ليل الصيام حتى يتبين لكم بياض النهار من سواد الليل، وإذا ظهر ذلك فصوموا وأتموا الصيام حتى غروب الشمس (وهو ابتداء الليل).

ولا تباشروا نساءكم (سواء بالجماع أو اللمس مع الشهوة) وأنتم عاكفون في المساجد ليلاً أو نهاراً لأن الاعتكاف من العبادات التي يجب التفرغ لها والتجرد من شهوات النفس، ومقاربة النساء، مادام المرء ملتزماً بها... تلك حدود الله شرعها لكم، فلا تقربوها وحافظوا عليها، فهي أشبه بالحدود الفاصلة، فلا تتجاوزها خشية انتهاك حرمتها... وعلى هذا الطريق السوي (من بيان أحكام الصيام في عزيمته، ورخصته، وفائدة مشروعيته، وحكمته)، يبين الله آياته للناس ليعدهم لتقواه، ويباعدهم عن ارتكاب المحارم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١٨٨)

وَلَا تَأْكُلُوا: أي ولا تأخذوا أو تستولوا.

بِالْبَاطِلِ: أي بالوجه الذي لم يحل الله تعالى، وأكل الأموال بالباطل أي أخذه بدون رضا من يؤخذ منه المال.

بِالْإِثْمِ: بما يوجب الإثم كشهادة الزور، واليمين الكاذبة.

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ: وأنتم تعلمون أنكم على الباطل (حيث اقتراف الذنب مع العلم به أقبح).

المعنــى: لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذي لم يبحه الله تعالى، أو تدفعوها إلى الحكام رشوة ليعينوكم على أخذ طائفة من أموال الناس بالباطل وأنتم تعلمون أنكم تأكلون الحرام وليس لكم حق فيه، وكيف يجوز لمسلم أن يأكل مال أخيه المسلم بالإثم والزور والبهتان والرشوة والهدايا، وهو يعلم أنه حرام وأنه إنما يأكل النار في بطنه فبئسما يفعل من ظلم غيره، وظلم نفسه بتعريضها لغضب الله وسخطه ونقمته، فاطلبوا الكسب من الطرق المشروعة التي لا تضر أحدا، وفي الآية دليل على حرمة الرشوة، وأنها وسيلة دنيئة للتوصل إلى أكل أموال الناس بالباطل، وإلى إضاعة حقوق الغير إرضاء للشهوات الحقيرة، والمآرب الباطلة.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١٨٩)

الْأَهِلَّةِ: جمع هلال، وهو القمر في بعض حالاته (في ليلة أو ليلتين أو ثلاث من أول الشهر القمري).

مَوَاقِيتُ: جمع ميقات، والميقات هو الزمن المضروب لأمر من الأمور، كوقت الصلاة أو الصيام أو الحج مثلا.

وَلَيْسَ الْبِرُّ: أي ليست الطاعة والتقوى بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى، حيث كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا دارا من باب، وإنما يدخلون ويخرجون من فرجة وراءه ويعدون ذلك براً (أي طاعة وتقوى)، فبين الله لهم أنه ليس ببر (أي ليس ذلك بتقوى)، وإنما البر من اتقى المحارم.

سبب نزول الآية:

نزلت هذه الآية في معاذ بن جبل، وثعلبة بن غنم قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يصير كما بدأ؟... فأنزل الله هذه الآية، وكان هذا سؤالاً منهما عن وجه الحكمة في اختلاف حال الهلال بالزيادة والنقصان، ولما كانت العقول في ذلك الوقت لا تحتمل بيان القواعد الفلكية والجغرافية، صرف الله الجواب إلى حكمة أخرى ظاهرة، وهي أن الأهلة جعلت لتكون معالم للناس في معاملاتهم، وعباداتهم، فيعرفون بها أوقات زراعاتهم ومتاجرهم وآجال ديونهم ووقت صومهم وفطرهم، وعدة نسائهم، وأيام حيضهن وحملهن، ويعرفون بها مواقيت الحج، وهذا اللون من الجواب يسمى الأسلوب الحكيم، وهو تلقي السامع بغير ما يترقب، وهو من الأساليب البلاغية في القرآن الكريم.

المعنى: يسألونك يا محمد عن حكمة اختلاف الأهلة وفائدته، فأجبهم بأنها معالم للناس، وهي إمارات، تحدد أوقات المعاملات في معاشكم، وتبين آجال عقودكم، كما تحدد بدء صيامكم وإفطاركم، ومواقيت حجكم الذي هو من أركان دينكم، وليس جهلكم بحكمة اختلاف الهلال مدعاة للشك في حكمة الخالق، وكان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة لا عن سبب تزايدها في أول الشهر وتناقصها في آخره.

وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها (أي من فتحه وراءه) كما كنتم تفعلون في الجاهلية، ولكن البر هو تقوى الله، وإخلاص القلوب لخالق الكون، بالتخلي عن المعاصي، والتخلي بالفضائل وإتباع الحق، وأهل الخير، فأتوا البيوت من أبوابها، وليكن باطنكم عنوانا لظاهركم، واتقوا الله رجاء أن تفلحوا في أعمالكم وتصلوا غاية آمالكم، واطلبوا رضا الله، واخشوا عذابه.

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾(١٩٠)

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ: أي جاهدوا لإعلاء كلمة الحق والدين.

وَلا تَعْتَدُوا: أي بقتل من نهيتم عن قتله (من النساء والشيوخ والصبيان، ومن تفرغوا للعبادة في معابدهم ولم يشتركوا في قتالكم).

سبب نزول الآية:

هذه الآية نزلت في صلح الحديبية، وذلك أن الرسول (ﷺ) صده المشركون عن المسجد الحرام، ثم صالحوه على أن يرجع العام القادم ويخلو له مكة ثلاثة أيام يطوف فيها، ويفعل ما يشاء، فلما جاء العام التالي تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا ألا تفي لهم قريش وأن يصدوهم عن المسجد الحرام بالقوة، ويقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم في الحرم والشهر الحرام، فأنزل الله هذه الآية.

المعنى: قاتلوا لإعلاء دين الله من قاتلكم من الكفار، ولا تعتدوا عليهم وتبدأوا بقتالهم، ولا تقتلوا النساء والشيوخ والأطفال والمرضى، ولا من عكف منهم على العبادة في الأديرة والمعابد، ولا من ألقى إليكم السلم وكف عن حربكم، ولا تعثوا في الأرض فساداً (بالتخريب والتنكيل، وقطع الأشجار، وهدم البيوت، وإلحاق الضرر بالمرافق العامة)، فإن الله تعالى لا يحب من ظلم أو اعتدى.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾(١٩١)

حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ: أي حيث وجدتموهم (وثقفه أي أخذه وظفر به).

وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ: أي أخرجوهم من مكة (وقد وعدهم الله تعالى فتح مكة بهذه الآية) وقد فعل رسول الله (ﷺ) يوم الفتح بمن لم يسلم منهم.

وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ: أي فتنة المؤمن عن دينه أشد من قتله.

المعنــى: وإذا نـشب القتـال بيـنكم وبيـنهم، فـاقتلوهم أينمـا أدركتمـوهم ولا يـصدكم عنهم وجودكم في أرض الحرم، وأخرجوهم من مكة كما أخرجوكم منها (فالمشركين أخرجوا النبـي وأصـحابه منهـا قبل ذلك)، وبعد ذلك صـدوهم عـن دخولهـا للعبـادة، فرضـي النبي (ﷺ) والمؤمنون على شرط ألا يعارضوهم في دخولها فـي العام التالي لأداء النسك، وقد أوصـى الله رسوله أن يحافظوا علـى حرمة المسجد الحرام والبيت الأمين فلا ينتهكون هذه الحرمة إلا إذا انتهكها المشركون بالابتداء بالعدوان وقتال المسلمين، فقد أذن الله لرسوله وللمؤمنين فـي القتـال دفعـاً للعـدوان، وكـذلك جـزاء الكافرين المعتدين يعاملون بمثل أفعالهم ولا يراعى لهم حرمة لأنهم لا حرمة لهم.

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١٩٢)

فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ : أي فإن انتهوا عن الشرك وأسلموا فكفوا عنهم.

فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ: فإن يغفر لمن تاب وأناب ولم يعاجلهم بالعقوبة لما سلف منهم.

المعنى: فإن انتهوا عن الشرك وكفوا القتال، وانقادوا إلى دين الحق فإن الإسلام يجب ما قبله، والله تعالى يقبل توبتهم ويستر خطاياهم، ويمحو ذنوبهم، إذا هم تابوا عما ارتكبوا من شرك وعصيان، وذلك بفضل منه ورحمة، وإذا هم أحسنوا واتقوا.

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(١٩٣)

فِتْنَةٌ: أي شرك.

فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ: فإن انتهوا عن الشرك فلا تقاتلوهم (حيث لا عدوان إلا على الظالمين).

المعنـى: قاتلوا المحاربين منهم حتى تكسروا شوكتهم ولا يبقى شرك على وجه الأرض، ويصبح دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، فإن انتهوا عن قتالكم فلا تعتدوا عليهم، وإنما العدوان على من ظلم نفسه، ودنسها بالخطايا وتجاوز العدل قولاً وعملاً.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(١٩٤)

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ: أي إذا قاتلوكم في الشهر الحرام وهتكوا حرمة الشهر واستحلوا دماءكم فافعلوا بهم مثله وقاتلوهم.

وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ: فكل حرمة يجرى فيها القصاص، فمن هتك حرمة (أيا كانت) اقتص منه.

فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ: أي فعاقبوهم بعقوبة مماثلة لعدوانه.

وَاتَّقُوا اللَّهَ: في حال العقوبة فلا تعتدوا على من لم يرخص لكم العدوان عليه (من الشيوخ والأطفال والنساء، ومن تفرغ للعبادة من رجال الأديان في المعابد والأديرة).

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ: وذلك بالنصر والعون والإمداد لهم.

المعنى: وإذا اعتدوا عليكم في الشهر الحرام فلا تتقاعسوا عن قتالهم فيه، ففي الحرمات والمقدسات شرع القصاص، والمعاملة بالمثل، فمن اعتدى عليكم في مقدساتكم فادفعوا العدوان بمثله، واتقوا الله ولا تظلموا أحدا، أو تتجاوزوا الحدود، واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والتأييد.

وهذه الآية تنطوي على حكمة في أمر المسلمين بالقتال في الأشهر الحرم، ذلك أن المشركين قاتلوهم في ذي القعدة عام صلح الحديبية، فقيل لهم عند خروجهم

لعمرة القضاء وكراهتهم القتال في الأشهر الحرم، الشهر الحرام بالشهر الحرام، وهتكه بهتكه.

والممنوع الحرب الهجومية، والبدء بالقتال، أما الدفاع والأخذ بالثأر فليس ممنوعاً، فمن اعتدى عليكم (بحرب أو غيره) فجازوه بمثله، واعتدوا عليه اعتداء مماثلاً.

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(١٩٥)

وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ: أي ببذل المال بالجهاد في سبيل الله في هذه الآية، ولفظ في سبيل الله يتغير معناه بتغير المواقع في الآيات.

وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ: أي ولا تظلموا أنفسكم بتعريضها للهلاك والعذاب بترك الإنفاق في سبيل الله.

وَأَحْسِنُوا: أي أنفقوا في سبيل الله.

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ: حيث يجازيهم على إحسانهم.

المعنى: أمر الله المؤمنين بالإنفاق في الإعداد للقتال (حيث الإنفاق في الحروب وسيلة النصر وطريق الفوز)، فلا تقعدوا أيها المؤمنين عن القتال، وابذلوا الأموال، فإنكم إن بخلتم أحاط بكم العدو وقهركم، فكأنما ألقيتم أنفسكم بأيديكم إلى الهلاك، واحذروا عدم الإنفاق، وكذا الدخول في الحرب بغير استعداد... بل أعدوا لهم ما استطعتم من قوة، وحصنوا أنفسكم بالعلم والخلق، وإعداد الجيوش المدربة، وطهروا صفوفكم من ضعفاء النفوس (الذين يقبلون الرشوة من العدو، ويبيعون وطنهم لأعدائهم لقاء عرض زائل ومتاع فان)، فهؤلاء دعاة الهزيمة أشد خطراً من العدو.

وأحسنوا أيها المؤمنون في كل أعمالكم، وأتقنوها، ولا تهملوا إنفاق شيء منها، واعلموا أن الله يحب المحسنين ويثيبهم أحسن الثواب.

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(١٩٦)

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ: وأدوهما تامين بشرائطهما وفرائضهما لوجه الله تعالى.

فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ: الحصر والإحصار هو الحبس والتضييق، يقال حصره عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه.

الْهَدْيِ: يطلق على الجمع والمفرد، وهو ما يهديه الحاج والمعتمر إلى البيت الحرام من النعم، ليذبح ويفرق لحمه على الفقراء.

فَمَن لَّمْ يَجِدْ: أي لم يجد الهدي أو لم يقدر على ثمنه.

المعنى: وأدوا الحج والعمرة لله تامين كاملين ظاهراً (بأداء المناسك كلها على وجهها)، وباطناً (بالإخلاص لله تعالى دون قصد الكسب أو الرياء أو الشهرة).

وإذا قصدتم الحج والعمرة وأحرمتهم بهما فمنعكم (عدو أو مرض) من إتمام النسك فلكم أن تتحللوا من إحرامكم بأن تذبحوا ما تيسر لكم (من بقرة أو شاه)، والتصدق به على المساكين.

ولا تحلقوا رؤوسكم حتى تقوموا بأداء هذا النسك، ومن كان منكم مريضاً يحتاج إلى الحلق ويؤذيه ترك الحلق، أو به أذى من رأسه (من جراح أو صداع مثلاً) فعليه فدية أن حلق (وهي إما صيام أو صدقة أو نسك).

فإذا أمنتم من خوفكم من عدوكم أو برأتم من مرضكم الذي منعكم من حجكم أو عمرتكم، فمن استمتع، وانتفع بالتقرب إلى الله تعالى إلى وقت الانتفاع بأعمال الحج، فعليه ما استيسر من الهدي (أي عليه دم نسك شكرا لله تعالى الذي أتاح له الجمع بين النسكين)، ويأكل منه كالأضحية ويذبح يوم النحر، ومن لم يجد الهدي (لعدم وجوده، أو لعدم وجود المال الذي يشتري به الهدي)، فعليه صيام ثلاثة أيام في أيام الإحرام وتمتد إلى يوم النحر، وسبعة أيام إذا رجع من الحج إلى وطنه، أو شرع في الرجوع (فيجزئ الصوم في الطريق وهو راجع إلى وطنه) إلى عشرة أيام كاملة تجزئ عن الذبح وثوابها كثوابه من غير نقصان، وهذا على من لم يكن من أهل مكة أو الحرم، أو القريبين منه، وذلك لأن أهل الآفاق هم الذين يحتاجون إلى هذا التمتع لما يلحقهم من المشقة (بالسفر إلى الحج وحده، ثم السفر إلى العمرة وحدها)، أما أهل الحرم فليسوا في حاجة إلى ذلك (فلا متعة ولا قران لحاضر المسجد الحرام).

واخشوا أيها المؤمنون عذاب الله، وامتثلوا أوامره، والتزموا شرائعه، واعملوا على طاعته، واحذروا أن تتجاوزوا حدوده، واعلموا أن الله شديد العقاب لمن عصاه.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾(١٩٧)

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ: أي وقت أدائه أشهر معروفات، وهي شوال، وذي القعدة، وعشر من ذي الحجة.

فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ: أي أوجب الحج على نفسه.

فُسُوقَ: لغة التنابز بالألقاب، وشرعا الخروج عما حدده الشرع، وهو هنا في الحج مجاوزة المحرم حدود الشارع إلى ما كان مباحاً في الحل دون الإحرام (كالصيد، والطيب، والزينة باللباس المخيط).

جِدَالَ : الجدال المراء والخصام، ويكثر عادة بين الرفقة والخدم في السفر.

الزَّادِ: أي الأعمال الصالحة وما يدخر من الخير والبر.

التَّقْـوَى: هي ما يتقي به سخط الله وغضبه من أعمال الخير، والعزوف عن الفواحش والخطايا، وقيل المراد بالتقوى ما يتقي به شر السؤال من الزاد.

سبب نزول الآية: قيل أنها نزلت في أناس من أهل اليمن كانوا يخرجون للحج من غير زاد، ويقولون: نحن متوكلون، فيكونون عالة على الناس، فنهوا عن ذلك، وأمروا بإعداد الزاد اللازم للسفر، والمعنى خذوا الزاد إذا خرجتم إلى الحج فإن خير الزاد ما تتقون به سؤال الناس والتثقيل عليهم، وقيل أيضا: اتخذوا التقوى زادكم لمعادكم عند ربكم فإنها خير زاد لكم في الآخرة.

المعنى: وقت الحج هو تلك الأشهر المعروفة بين الناس من عهد إبراهيم (عليه السلام)، وهي شوال، وذي القعدة، وعشر من ذي الحجة، فمن أوجبه على نفسه (بالإحرام فيهن، أو بالتلبية، أو بسوق الهدى)، فليراع أدابه، وإن من آداب الحج أن يتنزه المحرم عن غشيان النساء، وعن ارتكاب المعاصي (من السباب، والمراء مع رفقته في الحج، وعن كل ما يجر إلى البغضاء والخصام) حتى يخرج المحرم ذكي النفس، طاهر القلب، متخلياً عن الرذائل ومتحلياً بالفضائل، حتى يكون أكثر استعداداً لعمل الخير، وأطوع لامتثال أوامر الشرع، والله يعلم ما تفعلون ليجازيكم بأعمالكم ويثيبكم على أفعالكم.

وتزودوا لآخرتكم بالتقوى والأعمال الصالحة الخيرة، وامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، فإن خير الزاد التقوى أي فإن ذلك خير ما يدخر من الخير، واستشعروا خشية الله فيما تأتون وما تذرون، وأخلصوا لله يا أصحاب العقول بأداء ما أوجبه الله عليكم من الفرائض تفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة.

وعليكم أيها المؤمنون أن تأخذوا بالأسباب، وأن تعدوا الزاد الذي يلزمكم في رحلة الحج (حتى لا تكونوا عالة على غيركم، ولا تعرضوا أنفسكم للمهانة

والذلة بالمسألة)، وأن من تقوى الله أن يحفظ الإنسان ماء وجهه، وأن يبقى على كرامته.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾(١٩٨)

جُنَاحٌ: حرج أو إثم، من الجنوح وهو الميل عن القصد.

أَن تَبْتَغُوا: أن تقصدوا وتطلبوا.

فَضْلًا : عطاء ورزقا منه بالربح في التجارة أيام الحج.

فَإِذَا أَفَضْتُم : الإفاضة من المكان أي الدفع منه، والمعنى أفضيتم أنفسكم ودفعتموها، ويقال أفاض في الكلام إذا انطلق فيه كما يفيض الماء ويتدفق.

عَرَفَاتٍ: موقف الحجاج في أداء النسك، وسمي بهذا الاسم لأن الناس يتعارفون فيه، وعرفه اسم اليوم الذي يقف فيه الحجاج بعرفات، وهو التاسع من ذي الحجة.

وَاذْكُرُوهُ: الذكر هو الدعاء، والتلبية، والتكبير، والتحميد.

وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ: أي من قبل الهداية.

لَمِنَ الضَّالِّينَ: أي الجاهلين لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه.

المعنى: لا حرج ولا إثم عليكم في التجارة والكسب المشروع أيام الحج (فإن التجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينية)، إذا لم يكن هي المقصود بالذات (حيث هي مع حسن النية)، وملاحظة أنه فضل من الله على عباده، ولكن التفرغ لأداء المناسك في تلك الأوقات أفضل، فإذا أفضتم أيها المؤمنون من عرفات مندفعين كالسيل العارم، بعد الوقوف بها، فاذكروا الله بعد المبيت بمزدلفة ليلة عيد الأضحى بالتلبية والتهليل والدعاء عند هذا المشعر الحرام، ولتمجدوا الله وتحمدوه وتكبروه

على هدايته إياكم إلى الدين الحنيف، والعبادة القويمة في الحج وغيره، وقد كنتم من قبل هداية الله لكم لمن الضالين الجاهلين لا تعرفون كيف تذكرونه.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١٩٩)

المعنى: كانت قريش وبعض القبائل في الجاهلية يقفون بالمزدلفة ترفعاً عن الوقوف بعرفة مع الناس، وكانوا يقولون "نحن أهل الله وسكان حرمه"، فأمر الله نبيه (ﷺ) أن يأتي المسلمون جميعاً عرفات، ثم يقفون بها، ويفيضون منها (إبطالاً لما كانت عليه قريش في الجاهلية)، ثم إذا باتوا بالمزدلفة أمرهم أن يفيضوا منها جميعاً، وفي الإفاضة مع الناس من مكان واحد تحقيق للمساواة وترك التفاخر، وعدم الامتياز على أحد (وذلك من أهم مقاصد الدين)، واستغفروا الله أيها المؤمنون مما أحدثتم من تغيير المناسك بعد أبيكم إبراهيم، وإدخال الشرك في أعمال الحج... إن الله تعالى واسع المغفرة والرحمة لمن يستغفره مع الإنابة إليه.

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾(٢٠٠)

قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ: أديتم أعمال الحج.

خَلَاقٍ: أي نصيب.

المعنى: إذا فرغتم من مناسك الحج وانتهيتم منها، فأكثروا من ذكر الله، وبالغوا فيه كما تفعلون بذكر آبائكم وتعدون مفاخرهم... وليكن ذكركم وتمجيدكم لله أشد ذكرا، لأنه تعالى ولي النعم عليكم وعلى آبائكم (حيث كان فريق من المسلمين ممن لم تصل أسرار الحج وحكمته إليهم يكون اهتمامهم كله في ذكرهم ودعائهم حظ الدنيا من الجاه والمال، والنصر على الأعداء وخلافه من حظوظ الدنيا الزائلة، وهؤلاء لا نصيب لهم في الآخرة مما أعده الله للمتقين من رضوانه).

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(٢٠١)

آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً: المراد بالحسنة في الدنيا الصحة والعافية، أو المرأة الصالحة، أو الأولاد البررة، أو العلم النافع، والعبادة، أو الأمن والتوفيق.

وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً: أي الجنة، أو رؤية الله تعالى يوم القيامة، أو العفو والمغفرة.

وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ: اصرف عنا عذاب النار.

المعنى: ومن الناس من يطلب خيري الدنيا والآخرة (وهو المؤمن العاقل)، وقد جمعت هذه الدعوة كل خير وصرفت كل شر، فالحسنة في الدنيا تشمل (الصحة والعافية، والدار الرحبة، والزوجة الحسنة، والرزق الواسع وخلافه)، والحسنة في الآخرة تشمل (الأمن من الفزع الأكبر، وتيسير الحساب، ودخول الجنة، والنظر إلى وجه الله الكريم وخلافه)، بالإضافة إلى أن يصرف عنهم الله تعالى عذاب النار ويقيهم منها.

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(٢٠٢)

نَصِيبٌ: أي حظ.

مِمَّا كَسَبُوا: سمي الدعاء كسبا لأنه من الأعمال.

وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ: يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد، فبادروا إلى الطاعات واكتساب الحسنات.

المعنى: هؤلاء الذين طلبوا سعادة الدارين (الدنيا والآخرة) لهم حظ وافر مما عملوا من الخيرات، والله سريع الحساب يحاسب الخلائق بقدر لمح البصر، وسرعة الحساب في الآخرة تكون بإطلاع كل إنسان على عمله، ويتم ذلك بسرعة وبلا إبطاء.

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾(٢٠٣)

فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ: وهي أيام التشريق بعد يوم عيد الأضحى (يوم النحر)، يرمي فيها الجمرات بمنى، والمراد بذكر الله فيها (بالتكبير في أدبار الصلوات وعند رمي الجمرات).

فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ: أي فمن استعجل بالرجوع من منى (واكتفى برمي الجمار في يومين فقط من أيام التشريق) فلا حرج عليه في ذلك، ومن مكث بعد الثلاثة أيام التي هي أيام الرمي (بأن زاد عليها يوماً مثلاً) فلا حرج عليه.

لِمَنِ اتَّقَى: ذلك لمن خشي في حجه محرمات الإحرام.

وَاتَّقُوا اللَّهَ: أي واخشوا عذابه.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ: واعلموا أنكم إليه تجمعون يوم القيامة للحساب والجزاء.

المعنى: بعد أن أمر الله (تعالى) بذكره عند المشعر الحرام بعد تمام المناسك (بعد أيام منى وهي الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة). وحيث كانوا لا يذكرون الله هناك ويذكرون مفاخر آبائهم، وقد أمرهم بذكره تكبيراً وتهليلاً وتمجيداً وثناء عليه في تلك الأيام، ومن المأثور من التكبير (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا، وسبحان الله تعالى بكرة وأصيلا)، ومن التلبية (لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لك، لا شريك لك)، وقد بينت السنة أن ذكر الله في هذه الأيام هو التكبير في أدبار الصلوات، وعند ذبح القرابين، وعند رمي الجمار. وروى أن رسول الله (ﷺ) وهو واقف بعرفه

أمر منادياً ينادي: "الحج عرفة، ومن جاء ليلة جمع مزدلفة قبل طلوع الفجر فقد أدرك أيام منى ثلاثة أيام، ومن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر بعد ثلاثة أيام فلا إثم عليه"، وروى أن الرسول (ﷺ) كان يكبر بمنى تلك الأيام (أيام التشريق) على فراشه، وفي مجلسه، وفي ممشاه في تلك الأيام جميعاً.

وتوضيحاً لذلك أن من تعجل وطلب الخروج من منى بعد يومين فقط من يوم النحر، واكتفى برمي الجمار فيهما، ولم يمكث حتى يرمي الجمار في اليوم الثالث، فلا إثم عليه بهذا التعجيل (حيث المطلوب أن يبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من أيام التشريق، ويرمى كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة عند كل جمرة سبع حصيات ورميها من ذكريات المناسك المأثورة عن سيدنا إبراهيم (عليه السلام)، وكذلك القرابين وعامة أعمال الحج وكذلك من لم ينفر حتى غربت شمس اليوم الثاني فعليه أن يبيت حتى يرمي اليوم الثالث من أيام التشريق (قبل الزوال أو بعده)، ثم ينفر ولا إثم عليه، بترك الترخيص ورجع مغفوراً له.

واتقوا الله أيها المؤمنون فيما فرض عليكم من فرائض، واعلموا إنكم إليه تحشرون فيجازيكم على أعمالكم، فالمحسن منكم يلقى جزاء إحسانه، والمسيء والمفرط يلقى جزاء إساءته وتفريطه.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾(٢٠٤)

مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ : يقال أعجبه الشيء أي راقه واستحسنه.

وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ: أي يحلف ويستشهد الله على أن ما في قلبه موافق لكلامه ليؤكد صدقه.

وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ: أي أشد الخصومة والجدال.

سبب نزول الآية: نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق (وكان حلو الكلام وحسن المنظر) وكان إذا قابل النبي (ﷺ) مدحه وأشاد بالإيمان، ويقول: إني لأحبك

ويحلف بالله على ذلك"، يقول هذا لينال في الحياة الدنيا ما ينال، وكان يقسم أنه صادق، ويعلم الله أنه كاذب في ذلك.

المعنى: ومن الناس فريق يعجبك قوله في الحياة الدنيا، مع أنه يضمر الحقد والحسد والكراهية في قلبه، ويظهر حلاوة الكلام في حديثه ومنطقه (حيث يحتالون بذلك لجلب المنفعة في الدنيا)، ويؤيدون لك زعمهم بأن الله يعلم صدق قلوبهم فيما تنطق به ألسنتهم، ويحلفون بالله أن ما في قلوبهم موافق لما يقولون، ولكنهم منافقين وكذابين في الحياة الدنيا فقط (حيث يخادعون الناس)، أما في الآخرة فالحاكم فيها علام الغيوب الذي يطلع على القلوب والسرائر، وهؤلاء شديدي الخصومة والعداوة لك ويجادلون بالباطل ويتظاهرون بالدين والصلاح بكلامهم المعسول بغية متاع قليل وعرض زائل.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾(٢٠٥)

وَإِذَا تَوَلَّىٰ: أي إذا انصرف عنك.

وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ: أي يحرق الزرع ويهلك المواشي.

المعنى: وإذا انصرف عنك ظهرت نفسه على حقيقتها، وأخذ يسعى في الأرض فسادا، فيهلك الأخضر واليابس، ويقضي على الزرع والحيوان، وقيل إذا تولى أمراً من الأمور سعى في الأرض فساداً، فيصبب الله عليه وعلى أمته (التي رضيت به إماما) أشد العذاب، فيمتنع الخير حتى يهلك الحرث، ويفنى النسل والحيوان.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالحرث النساء وبالنسل الأولاد، فيكون المراد أن المفسدين الذين يطمحون بأبصارهم إلى نساء الناس، أو يسعون في إفساد نظام البيوت (بما يلقونه من الفتن، ويدأبون عليه من التفريق)، لا يكاد تسلم بيوتهم من الخراب... فهم يضرون أنفسهم وأهليهم بضروب من الإيذاء، قد يعميهم الغرور عنها، أو عن كونها من سعيهم.

والله تعالى لا يرضى الفساد ولا يحبه، ولا يحب المفسدين، وهو جل وعلا لا ينظر إلى الصور والأقوال، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(٢٠٦)

اتَّقِ اللَّهَ: أي إخش عذاب الله وانتقامه.

أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ: حملته الأنفة وحمية الجاهلية، والعزة الكاذبة على فعل الإثم.

فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ: أي يكفيه أن تكون له جهنم فراشا ومهادا.

وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ: ولبئس الفراش جهنم.

المعنى: إذا وُعظ هذا الفاجر وذكِّر وقيل له انزع عن قولك وفعلك القبيح، حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم والتكبر عن قبول الحق، فأغرق في الإفساد، وأمعن ي العناد، فيكفيه أن تكون له جهنم فراشاً ومهاداً، وبئس هذا الفراش والمهاد، فلا راحة ولا اطمئنان.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾(٢٠٧)

يَشْرِي: يبيع ويبذل.

ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ: طلباً والتماساً لمرضاته.

سبب نزول الآية: نزلت هذه الآية في صهيب حين أراده المشركون على ترك الإسلام، وقتلوا نفرا كانوا معه، فاشترى نفسه بماله وأتى المدينة.

المعنى: ومن الناس فريق يبيع نفسه في سبيل الله، ويبذلها مرضاة لعزته وجلاله، في الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولا يتحرى إلا صالح الأعمال، وقول الحق مع الإخلاص فيهما، فلا يتكلم بلسانين، ولا يقابل الناس بوجهين، ولا يؤثر عرض الدنيا وزخرفها على ما عند ربه، والله تعالى رءوف بالعباد حيث كلفهم بالجهاد في سبيله فعرضهم بذلك لثواب الشهداء.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾(٢٠٨)

ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ: أصل السلم التسليم والانقياد، فيطلق على الصلح والسلام.

كَافَّةً: أي جميعاً.

عَدُوٌّ مُّبِينٌ: عدو ظاهر العداوة.

المعنى: يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في الإسلام بكليته في جميع أحكامه وشرائعه، فلا تأخذوا حكماً وتتركوا حكما (لا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة مثلاً)، فالإسلام كل لا يتجزأ، ولا تتبعوا طرق الشيطان وأغواءه فإنه عدو لكم ظاهر العداوة، ويدفعكم إلى هاوية الشقاق.

﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٢٠٩)

زَلَلْتُمْ : أي انحرفتم عن الحق.

الْبَيِّنَاتُ: الحجج الدامغة والأدلة الواضحة.

عَزِيزٌ: غالب على أمره.

حَكِيمٌ: في تدبيره، فيعاقب المسيئ، ويكافئ المحسن.

المعنى: فإن حدتم عن الصراط المستقيم، وانحرفتم عن جادة الحق والدين، واتبعتم طريق الشيطان (وهي طريق النزاع والخلاف والشقاق)، من بعد ما جاءتكم الأدلة النقلية والعقلية على صحة الدين (الذين دعيتم إليه جميعاً)، ومن بعد ظهور الشواهد الحسية على أنه طريق الحق... فاعلموا أنكم مؤاخذون بهذا الانحراف، لأن الله عزيز قوي قاهر فوق عباده، يعاقب من يصرف عن سبيل الحق، حكيم في تدبيره، يقدر العقوبة بقدرها، فيجزى كل إنسان بما كسبت يداه (إن خيراً فخير، وإن شراً فشر).

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾(٢١٠)

يَنظُرُونَ: ينتظرون.

يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ : أي يأتيهم عذابه.

ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ: أي يأتيهم عذاب الله في سحاب أبيض يعلوهم كالظلل التي تظل ما تحتها (وهو للتهويل)، حيث الغمام مظنه الرحمة، فإذا أنزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول.

وَالْمَلَائِكَةُ: وتأتي الملائكة الذين وكلوا بتعذيبهم.

وَقُضِيَ الْأَمْرُ: وتم أمر إهلاكهم.

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ: أي إلى الله ترجع أمور العباد، فيجازى كلا بما وعده به وأعده له.

المعنى: ماذا ينتظر هؤلاء المعرضون عن الإسلام لكي يقتنعوا؟ هل ينتظرون أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق، حيث تنشق السماء وينزل الجبار (عز وجل) في ظلل من الغمام وحملة العرش والملائكة (الذين لا يعلم كثرتهم إلا الله) ولهم زجل من التسبيح يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح، وانتهى أمر الخلائق بالفصل بينهم (فريق في الجنة وفريق في السعير)، وإلى الله وحده مرجع الناس جميعاً... والمقصود تصوير عظمة يوم القيامة وهولها وشدتها، وبيان أن الحاكم فيها هو ملك الملوك جل وعلا الذي لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وهو أحكم الحاكمين.

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(٢١١)

آيَةٍ بَيِّنَةٍ: أي معجزة ظاهرة.

نِعْمَةَ اللَّهِ : هي آياته الباهرة التي أتاها أنبيائه، وجعلها مصدر الهدى، والخلاص من العذاب.

الْعِقَابِ: عذاب يعقب الذنب.

المعنى: سل يا محمد بني إسرائيل (توبيخاً لهم وتقريعا) كم سقنا من أدلة قاطعة لأسلافهم فأنكروها... فكم شاهدوا مع موسى من معجزات باهرات وحجج قاطعات تدل على صدقه... ومع ذلك كفروا ولم يؤمنوا، ومن يبدل نعم الله بالكفر والجحود فإن عقاب الله له أليم وشديد، فهل لهم أن يتدبروا عاقبة أمرهم، ويعتبروا بتلك العظات البالغة، ويقلعوا عما هم عليه من الكفر والبغي خوفا من أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك من العذاب والوبال وسوء المآل... وهذا السؤال تقريع وتوبيخ لهم على طغيانهم، واستكبارهم، وكفرهم بعد وضوح الآيات.

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢١٢)

زُيِّنَ: زين له الشيء أي حسن له في عينه.

وَيَسْخَرُونَ : وسخر منه أي استهزأ به.

مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا: أي من فقراء المؤمنين.

وَالَّذِينَ اتَّقَوْا: وهؤلاء الفقراء الذين اتقوا الشرك.

فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لأنهم في عليين، وهم في أسفل سافلين.

المعنى: زينت الدنيا وحسنت في أعين الكفار وفتنوا بها، فأعرضوا عن الدين، وهم يستهزئون بفقراء المؤمنين (مثل عبد الله بن مسعود، وعمار وصهيب وغيرهم)، ويقولون: تركوا لذات الدنيا، وعذبوا أنفسهم بالعبادات، كما يسخرون من أغنياء المؤمنين (لأنهم لا يؤثرون نعيم الدنيا)، بل يستعدون لما بعد الموت (بتزكية نفوسهم

بالاعتقاد الصحيح المؤيد بالبينات)، والله تعالى جاعل الذين آمنوا أعلى مكاناً منهم في الآخرة (حيث هم في أعلى عليين)، والكفار في أسفل سافلين، هذا هو الجزاء في الآخرة، أما في الدنيا فإنها ليست محل جزاء (بل محل ابتلاء)، فإذا استعلى بعض الكافرين على بعض المؤمنين بعض الوقت في هذه الحياة القصيرة (بما يكون لهم من الأتباع والخدم والحشم والأعوان وخلافه، وبما يتمتعون من الأموال والرياش والمتاع)، فإن المتقين سيكونون أعلى منهم في تلك الحياة الأبدية (وذلك مقاما وأرفع منهم منزلة)، والله سبحانه وتعالى لا يهب الأرزاق على حسب الكفر والإيمان، بل يجريه تبعاً لسنن محددة، وقوانين معينة ترتبط بالتدبير الإلهي... فمن الناس من يزاد له الرزق استدراجاً... ومنهم من يقتر عليه اختباراً وابتلاء، والله تعالى يرزق من يشاء بلا تضييق ولا تقتير وعلى حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢١٣)

أُمَّةً وَاحِدَةً : الأمة هي الجماعة من الناس، وأمة واحدة أي متفقين على الحق وعلى كلمة واحدة.

فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ: أي أرسل الرسل.

مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ: أي مبشرين بالجنة من آمن، ومنذرين بالنار لمن كفر.

وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ: أي ليحكم الله بالكتاب الذي أنزله على رسله.

بَغْيًا بَيْنَهُمْ: أي حسدا بينهم، وظلما لحرصهم على الدنيا.

المعنى: كان الناس أمة واحدة على الإيمان والفطرة المستقيمة، فاختلفوا وتنازعوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتب بشرائعها ليحكم الله

بينهم بهذه الكتب المنزلة من عنده فيما اختلفوا فيه، ولم يختلف أهل التوراة والإنجيل إلا من بعد ما جاءتهم البينات (فكان اختلافهم ضلالاً وبغياً وحسداً)، ولكن الله تعالى هدى الذين آمنوا للحق بإرادته، فكانت هذه الأمة خير الأمم التي أخرجت للناس.

وإن الله (عز وجل) أنزل القرآن على الرسول محمد (ﷺ) متلبساً بالحق ليحكم الله بين الناس فيما اختلفوا فيه من أمور دنياهم ودينهم، وما اختلف في الحق أو في الكتاب إلا الذين أوتوا الكتاب المنزل لإزالة الخلاف وإزاحة الشقاق، فاختلفوا فيه وازدادوا في الخلاف... كل هذا من بعد ما جاءتهم البينات الواضحات، وما اختلفوا إلا حسداً وبغيا منهم.

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإن الله يهديهم ويرشدهم للذي اختلفوا فيه من الحق بإذنه وإرادته، تفضلاً منه ورحمة، والله يوفق من يشاء ويهديه إلى الطريق القويم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(٢١٤)

وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم: أي ولم تبتلوا بعد بمثل ما ابتلى به من قبلكم من المؤمنين، وهو متوقع ومنتظر حصوله لكم.

الْبَأْسَاءُ: الشدائد والخوف.

وَالضَّرَّاءُ: الأمراض والجوع.

وَزُلْزِلُوا : أي أزعجوا إزعاجا شديداً بما حاق بهم من رزايا ومحن.

سبب نزول الآية: نزلت هذه الآية في غزوة أحد حين غلب المشركون المؤمنين، وشجوا رأس النبي (ﷺ)، وكسروا رباعيته.

المعنى: هذا الخطاب من الله للذين هداهم إلى السلم والحق (وهم أهل الصدر الأول من المسلمين)، وفيه العبرة البالغة، والعظة لمن يأتي بعدهم، ويظنون أن مجرد إسلامهم فقط سيدخلون الجنة وبدون تعرضهم إلى الابتلاءات والامتحانات، فإن شأنهم كشأن من سبقهم من المؤمنين الذين ابتلوا وزلزلوا زلزالاً شديداً، وبلغ من شدة ما لاقوه أن استبطئوا النصر وقالوا: متى نصر الله، وابتهلوا إلى الله مستعجلين النصر، حتى استجاب الله لهم وأتاهم النصر القريب... فكونوا أيها المؤمنون كذلك في أيمانكم وصبركم وبلائكم في سبيل إعلاء كلمة الحق ونصرة الدين حتى يتنزل نصر الله عليكم جزاء إيمانكم وصدقكم.

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾(٢١٥)

مِنْ خَيْرٍ : من مال، وسمي به لأن حقه أن ينفق في وجوهه.

وَالأَقْرَبِينَ: هم الأولاد، وأولادهم، ثم الأخوة، ثم الأقرب فالأقرب.

سبب نزول الآية: نزلت هذه الآية عندما سأل ابن الجموح (وكان شيخاً كبيراً وله مال كثير) رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله ماذا نتصدق؟ وعلى من ننفق؟... فنزلت هذه الآية.

المعنى: يسألونك المؤمنون يا محمد ماذا ينفقون؟ وعلى من ينفقون؟ حيث الاتفاق يكون من المال الطيب، والمراد هنا نفقة المتطوع وليس الزكاة الواجبة، وبالنسبة لمقدار ما تنفقونه (سواء كثيرا أو قليلا من المال) فهو لكم، وثوابه خاص بكم، وعلى حسب ظروفكم، والمهم أن يكون ما تنفقونه خيراً وطيباً، ومن زاد في النفقة زاده الله في الأجر والثواب، والمهم النية الطيبة في إخراج النفقة.

وأما بالنسبة على من ينفقون؟ فإن خير النفقة ما كان للقرابة القوية كالوالدين والأقربين، فيقدم الأقرب فالأقرب (وذلك مثل الأولاد، وأولادهم، ثم الإخوة، ثم الأقرب فالأقرب)، ثم بعد الأقارب في بذل النفقة لليتامى المحتاجون (لعدم قدرتهم على

الكسب لصغر سنهم)، ثم المساكين، وأبناء السبيل للتكافل العام بين المسلمين فهم أعضاء أسرة واحدة.

وعموماً فإن ما تنفقوا في وجوه البر والطاعة (في أي مكان وأي زمان) على ما تقدم ذكرهم، فإن الله عليم به، لا يعذب عنه شيء سبحانه أحصى أعمال عباده، ولا ينسى حسابهم وإثابتهم على حسب نياتهم.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢١٦)

كُتِبَ عَلَيْكُمُ: أي فرض عليكم.

المعنى: فرض الله عليكم قتال الكفار فرض كفاية (إذا قام به بعض المسلمين كفى وسقط الطلب والإثم عن باقي الأمة)، أما إذا هاجم العدو بلاد المسلمين فاتحاً (فيكون القتال والجهاد فرض عين على كل المسلمين)، والقتال في حد ذاته مكروه لكم (لما يستتبعه من مخافة القتل والتهلكة إذا دارت رحى الحرب بينكم وبين أعدائكم الكفار، وأنتم الطائفة القليلة العدد التي تحمل لواء العدل والحق، بالإضافة إلى أن الإسلام أوجد في قلوبكم رأفة ورحمة وترجون أن يثوب الكفار إلى رشدهم وأن يدخل الإسلام قلوبهم.

فيا أيها المؤمنون لا يصح منكم أن تكرهوا الحرب والقتال لهذه الأسباب، فعسى أن تكرهوا شيئاً والواقع أنه خير لكم من حيث العاقبة في الدنيا والآخرة (حيث في الحرب إعلاء لكلمة الإسلام، ودفع الظلم، ورفع الراية الحق والعدل)، وعسى أن تحبوا شيئاً (كالقعود عن الجهاد)، وهو في الواقع شر لكم (فقد يطمع فيكم الأعداء ويحتلوكم)، والله يعلم ما غاب من مصالحكم عنكم، وأنتم لا تعلمون، فاستجيبوا لما دعاكم الله إليه، وقوموا بما فرضه عليكم موقنين أن الخير فيما أمركم الله به (سواء عاجلاً أو آجلاً).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٢١٧)

قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ: أي إثم كبير.

وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ: وصرف للناس عن دين الله.

وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ: أي وصد الناس عن المسجد الحرام.

وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ: أي النبي (ﷺ) والمؤمنون، حين أذوهم حتى هاجروا وتركوا مكة، (وإنما جعلهم الله أهله لأنهم، كانوا هم القائمين بحقوق المسجد دون المشركين).

أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ: أعظم وزرا من القتال في الشهر الحرام.

وَالْفِتْنَةُ: أي الشرك الذي أنتم عليه.

أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ: أي والشرك (أو امتحان المسلمين بأنواع التعذيب والأذى والبلايا لصرفهم عن دينهم)، أعظم وزراً من القتل، لأن الفتنة عن الدين تفضي غلى القتل الكثير في الدنيا، وإلى استحقاق العذاب الدائم في الآخرة.

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: أي بطلت أعمالهم الحسنة التي كانوا عملوها في الإسلام، وفي الدنيا فإن المرتد يقتل، ولا يرث غيره، وإذا قتل أو مات لا يورث، بل يكون ماله فيئا للمسلمين.

سبب نزول الآية:

بعث النبي (ﷺ) عبد الله بن جحش بن عمته على سرية قبل قتال بدر بشهرين في جمادى الآخرة، وذلك لتترصد عيرا لقريش فيهم عمرو بن عبد الله الحضرمي

وآخرون ممن يحملون تجارة لقريش، فلحق عبد الله ومن معه بالعير وقتلوا عمرو وآخر، وأسروا رجلين، واستاقوا العير وذلك في أول رجب (من أشهر الحرم التي يحرم فيه القتال) وذلك ظنا منهم أنهم في جمادى الآخرة، فلما قدموا على رسول الله (ﷺ) قال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، وأوقف توزيع الغنيمة، فاستغل المشركون هذا الحادث في الدعاية ضد الرسول حتى نزلت الآية.

المعنى: يسألونك يا محمد عن القتال في الشهر الحرام، فقل لهم: نعم أن القتال في الشهر الحرام إثم كبير، ولكن أكبر منه ما حدث منكم أيها المشركون (من صد عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام)، وما حدث منكم من إخراج المسلمين من مكة، ومحاولة تشكيككم لهم في دين الإسلام أكبر من كل قتل، فإن فتنة المسلمين في دينهم وتعذيبهم أكبر عند الله من القتل (مثل تعذيب عمار بن ياسر، وبلال وغيرهم) ... وأن ما فعله عبد الله بن جحش، وما يفعله المسلمون فيما بعد من القتال فيه مبني على قاعدة ارتكاب أخف الضررين إذا لم يكن من أحدهما بد، فالقتال في ذاته جرم عظيم، ولكنه يرتكب لإزالة ما هو أشد منه وأعظم.

واعلموا أيها المسلمون أن هؤلاء المشركين لا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا، ومن يضعف منكم ويرتد عن دينه ويمت على الكفر فأولئك يبطل الله أعمالهم الصالحة ويحبطها في الدنيا والآخرة، وتصير هباء لأن قلبه جلل بسواد الشرك، أما خسارة الدنيا فلما يفوته من ثمرات الإسلام العاجلة (حيث يقتل عند التمكن منه والظفر به، ولا يستحق موالاة المسلمين ولا نصرهم، ويحرم من الميراث)، وأما خسارة الآخرة فهو من أصحاب النار خالدين فيها.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢١٨)

آمَنُوا: ثبتوا على إيمانهم.

هَاجَرُوا: فارقوا الأهل والوطن.

وَجَاهَدُوا : من الجهد وهو المشقة.

يَرْجُونَ: أي يتوقعون المنفعة بعمل الأسباب التي سنها الله.

رَحْمَتَ اللَّهِ: أي ثوابه.

سبب نزول الآية:

نزلت الآية في عبد الله بن جحش وأصحابه، وذلك أن أصحاب السرية قالوا: يا رسول الله هل نؤجر على وجهنا هذا ونطمع أن يكون لنا غزو؟ فنزلت هذه الآية.

المعنى: أن المؤمنين الذين ثبتوا على إيمانهم، والذين هاجروا مع رسول الله (ﷺ) إعلاء لكلمة الحق والدين، والذين بذلوا جهدهم في مقاومة الكفار وتقوية المؤمنين، فأولئك ينتظرون عظيم ثواب الله لهم، وإن قصروا في شيء، لأن الله غفور يغفر الذنوب، رحيم يرحم عباده بالهداية والثواب.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾(٢١٩)

الْخَمْرِ: مأخوذ من خمر الشيء إذا ستره وغطاه، وسميت الخمر بها لأنها تستر العقل وتغطيه.

وَالْمَيْسِرِ: القمار، والميسر من اليسر (أي سهولة الكسب بلا مشقة ولا تعب).

إِثْمٌ: ذنب.

قُلِ الْعَفْوَ : العفو الفضل، والزائد عن الحاجة للإنسان ومن يعوله.

سبب نزول الآية:

قدم رسول الله (ﷺ) المدينة وهم يشربون الخمر ويمارسون الميسر، فسألوا الرسول عنها فنزلت الآية: فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال إثم كبير حتى كان

يوم فصلى رجل من المهاجرين وأم الناس في المغرب فخلط في قراءته، فأنزل الله آية أغلظ منها وهي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ سورة النساء/٤٣.

ثم نزلت آية أغلظ من ذلك بتحريم الخمر وخلافه، في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إلى قوله تعالى في الآية التي تليها ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ سورة المائدة٩٠، ٩١.

فقالوا انتهينا يارب.

المعنى: يسألونك يا محمد عن حكم الخمر والقمار، قل لهم أن فيها ضرراً كبيراً من إفساد الصحة، وزوال العقل، وضياع المال، وإثارة العداوة والبغضاء بين الناس، وفيهما منافع (كالتسلية والربح الهين في الميسر وخلافه) مما ذكر في منافع الخمر والميسر، لكن ضررهما أكبر من نفعهما، فاجتنوا هاتين الآفتين.

ويسألونك يا محمد: ماذا ينفقون؟ بمعنى أي جزء من الأموال ينفقونها؟ وأي جزء يمسكونها ويبقونها؟ ليكونا طائعين مذعنين لأمر الله فقل لهم يا محمد أنفقوا العفو (أي ما فضل وزاد عن حاجتكم وحاجة من تعولون".

ولقد أطلق القرآن لفظ "العفو" على ما فضل عن قدر الحاجة، والمراد بهذا العفو الزائد على الزكاة المفروضة من صدقات التطوع على الأفراد، وعلى المصالح العامة وجهات الخير والبر.

وفي حديث عن الرسول (ﷺ) قال "خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول"، كذلك يبين الله تعالى لكم الآيات فيما يشرع لكم، وما يحرم عليكم، وما يفرض عليكم من الفرائض، لعلكم تتفكرون فيما يعود عليكم من خير في الدنيا والآخرة.

توضيح لما في الآية من إعجاز علمي:

الحكمة في تحريم المخدرات والمسكرات وما فيها من إعجاز في القرآن:

إذا تدبرنا مراحل تحريم الخمر وما فيها من أضرار فإننا نصل إلى إعجاز فريد من نوعه، ذلك إعجاز يشمل نواحي كثيرة من أمور الإنسان... فهو إعجاز طبي، وإعجاز سياسي، وإعجاز اجتماعي وإعجاز تشريعي وإعجاز اقتصادي..

فمن ناحية الإعجاز التشريعي في مراحل تحريم الخمر:

فلقد جاء تحريم الخمر على مراحل زمنية متدرجة تتناسب مع ظروف المسلمين وعاداتهم في كل مرحلة، وتتدرج بهم خطوة خطوة مع تطور المسلمين وازدياد إيمانهم حتى تصل إلى التحريم الكامل للخمر في نهاية التشريع ونهاية المطاف... وهذا نموذج رائع وعظيم في التدرج بالقوانين والتشريعات حسب ظروف الناس وطبائعهم وعاداتهم وظروفهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والصحية مع مراعاة العامل النفسي للبشر عند سن تلك القوانين.

ومراحل تحريم الخمر تشمل على خمس مراحل هي:

أ) المرحلة الأولى: "مرحلة التمهيد":

حيث يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ البقرة/١٩٥. وقال رسول الله (ﷺ): "لا ضرر ولا ضرار" (رواه الإمام أحمد وابن ماجه حديث حسن)، ومن هذا المنطلق يجب أن يكون الإنسان بصيرا على نفسه فلا يفعل ما يؤذيها ويلحق بها الدمار والهلاك، كما أنه لا يحل للمسلم أن يتناول من الأطعمة أو الأشربة شيئاً يقتله بسرعة أو ببطء (كالسم بأنواعه) أو يضره أو يأذيه، ولا أن يكثر من طعام أو شراب يمرض الإكثار منه... فإن المسلم ليس ملك نفسه... وإنما هو ملك دينه وأمته، وكذلك حياته وصحته وما له ونعم الله كلها عليه وديعة عنده لا يحل له التفريط فيها.

ب) المرحلة الثانية للتحريم: (مرحلة الأسوة الحسنة للرسول ﷺ):

فلقد ضرب الرسول المثل الأعلى والمثل الأول في البعد عن الخمر وعدم الاقتراب منها حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب/٢١.

فكان المؤمنون الأوائل يقلدون الرسول (ﷺ) في كل سمات شخصيته... فهو المثل الأعلى لهم، وكان الرسول لا يشرب الخمر فكانت هذه المرحلة هي مرحلة القدوة والاقتداء والإتباع، وهي البذرة الأولى لمنع الخمر بعد ذلك.

جـ) المرحلة الثالثة للتحريم (مرحلة الإعلام):

حيث يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ البقرة/٢١٩.

وفيها يتحدث الناس عن الإثم الكبير والمضار العديدة للخمر، ثم يتبعون ذلك بالمنافع ويزنون المضار بالمنافع ويجدون المضار عديدة أكثر من منافعها، فالخمر مهلكة... فيتوقف بعضهم (قلة منهم) بعد الاستبصار في ذلك. وهنا يتجلى إعجاز طبي رائع ذكره القرآن قبل العلم بأربعة عشر قرناً من الزمان... ذلك أن للخمر أضرار كثيرة (إثم كبير) وأن بالخمر منافع وفوائد... ولكن ضررها أكثر من نفعها... وهذا تحليل منطقي وعلمي وطبي وعقلي يقبله العقل ويستجيب له المنطق السليم.

أما فوائد الخمر هي:

١- تمدد الأوعية الدموية التي ينشأ عنها احمرار الجلد (كما يتضح ذلك في الأفراد الذين يتناولون الخمر خاصة في الدول الأجنبية والأوروبية).

٢- كما يستخدم الكحول لتطهير وتعقيم الآلات الجراحية وإبر السرنجات وكذلك يستخدم الكحول في صناعات العطور والمواقد وغيرها.

٣- تعطي الإحساس بالدفء وإن كان يصحبه عادة هبوط قليل في ضغط الدم وزيادة في سرعة ضربات القلب.

٤- لعل أهم فائدة للخمر هي استخدامها في عمليات التخدير قبل إجراء العمليات الجراحية واستخدامها في كثير من الأدوية كمسكنات من الألم ومنوم وغيرها... والإسلام في هذه الحالة يبيح العلاج بالخمر عند الضرورة (الضرورات تبيح المحظورات) وحيث يقول تعالى ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ البقرة/١٧٣، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ الأنعام/١١٩.

فالضرر يزال، والضرورات تبيح المحظورات، ولذلك أجاز الفقهاء، أكل الميتة عند المخمصة وإساغة اللقمة بالخمر وبشرط أن يكون إباحة المحرم للضرورة مقصورة على القدر الذي يزول به الضرر وتعود به الصحة ويتم به العلاج.

والخمر: كل ما خامر العقل، أي كل ما ستر العقل وحجبه ولابسه وأخرجه عن طبيعته المميزة المدركة فهو خمر، وهي تعم كل مسكر اتخذ من العنب أو من سواه.

والخمر عند الفقهاء:

هي المانع المسكر خاصة سواء أكان متخذاً من الثمار (كالعنب، والرطب والتين) أو من الحبوب (كالحنطة والشعير) أو من الحلويات (كالعسل) وسواء أكان مطبوخاً أو نيئاً وسواء أكان معروفاً باسم قديم كالخمر والطلاء أو باسم مستحدث (كالعرق والكونياك والشمبانيا والويسكي والبيرة والفودكا وغيرها من الأنواع والأسماء الشائعة اليوم).

أما أضرار الخمر باختصار هي:

١) غياب المرء عن ذكر ربه واقترافه الإثم وارتكابه الذنب والمعصية دون إدراك (نسوا الله فأنساهم أنفسهم).

٢) قرحة المعدة أو قرحة الاثنى عشر والتهابات الجهاز الهضمي.

٣) احتقان الجهاز التناسلي والضعف الجنسي.

٤) التهاب الأعصاب المتطرفه المتعدد واليرقان وتليف الكبد.

٥) الإدمان حيث يصبح الإنسان أسير العادات السيئة مع عدم الاستجابة للتخدير العام.

وبذلك يتضح أن الخمر أضرارها أكثر من نفعها كما ذكر القرآن الكريم (سوف نتكلم عن أضرار الخمر بالتفصيل فيما بعد).

د) المرحلة الرابعة للتحريم للخمر (مرحلة المنع الجزئي):

حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ سورة النساء/٤٣.

فكانت هذه المراحل على فترات تقترب من ثلاث سنوات بين المرحلة والمرحلة، وينشر الوعي، ويرى بعض الصحابة أن الخمر محرمة... فالرسول (ﷺ) لا يقترب منها، والقرآن ينبه إلى مخاطرها ويمنع المسلمين من تعاطيها حتى يؤدوا صلواتهم. وإبان هذه المراحل يقوم الرسول بأوسع خطوات للفرد والأسرة والجماعة فتقوى شخصية الفرد والجماعة ويقوى الإسلام في قلوب المسلمين.

هـ) المرحلة الخامسة للتحريم للخمر (مرحلة المنع التام والتحريم التام):

حيث يقف عمر بن الخطاب رافعاً يديه إلى السماء طالباً الحق عز وجل أن يُريه في الخمر بياناً شافياً وينزل الله تعالى ﴿يَـأَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُـواْ إِنَّـمَا الْخَمْـرُ وَالْمَيْـسِرُ وَالأنصَابُ وَالأزلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيـدُ الـشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِّ وَعَنِ الـصَّلَوةِ فَهَـلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ﴾ المائدة/ ٩٠. ٩١.

هنا نصل إلى قمة التدرج في التشريع ونهايته القاطعة بتحريم الخمر تحريم قاطع، وبذلك ألقى المؤمنون مخزون الخمر في شوارع المدينة وهم يهتفون... انتهينا... انتهينا إلى تحريم الخمر... وهكذا كان التشريع في الإسلام على مراحل متدرجة رحمة بالناس، وتمشياً مع ظروفهم وحاجاتهم النفسية... وبعد قول القرآن

الكريم بتحريم الخمر لما لها من أثر سيئ وسريع على صحة الإنسان بأربعة عشر قرناً من الزمان (في القرن العشرين) فقد وصل العلم أخيراً إلى قرار جماعي اتفقت عليه كل جامعات بلاد العالم ومعاهدها وتوحدت جميع آراء الأطباء في العالم على أن الخمر سم قاتل، وأنها تصيب الكبد بالتليف والمعدة بالقرحة، والقلب والشرايين بالضعف وتؤدي إلى الشلل، وما الهلوسة التي تبدو على المخمور إلا العلامة الأكيدة على أن الإدمان لابد أن يؤدي إلى الجنون...

وفي أوائل عام ١٩٨٢ أعلن الباحثون في كلية الطب بجامعة فلوريدا أنهم اكتشفوا وجود مادة كيماوية في الخمر تعمل على تعطيل التنفس أثناء الليل مما يسبب نقصاً في كميات الأكسجين التي يحتاجها الجسم والتي تعتبر أهم مقومات حياة خلايا المخ، وأن هذه الخلايا وكل ما هو مثلها تضعف بذلك ويسرع إليها الوهن، ويدب فيها العجز، ولقد جاء تحريم الخمر من الله تدريجياً نظراً لأن السُكْرِ والإدمان كانا من العادات التي عمت المجتمع العربي منذ الجاهلية الأولى وبهذا النوع من التحريم يكون من الميسور الإقلاع عنها ومقاومتها لما فيها من رجس وخبث... ثم جاءت أحاديث الرسول (ﷺ) مفسرة وموضحة النهي عن الخمر والأضرار الناجمة عنها... ومن أحاديث الرسول (ﷺ) عن تحريم الخمر.

١- عن ابن عمر رضي الله عنه قال الرسول (ﷺ): "أتاني جبريل فقال يا محمد أن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وساقيها ومسقاها".

٢- وعن ابن عباس قال الرسول (ﷺ): "اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر".

٣- وعن ابن موسى رضي الله عنه عن الرسول (ﷺ): "أنهاكم عن قليل ما أسكر كثيره".

٤- وقال الرسول أيضا: "كل مسكر خمر وكل خمر حرام".

وعندما نتأمل الآيات السابقة عن تحريم الخمر تحريم تام في سورة المائدة/٩٠ حيث يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ

رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ...﴾ إلى آخر الآية فإننا نخرج بهذه الدلالات[١]:

١- تصدير الجملة المشتملة عل حكم الخمر بأنها الدالة على الرجس وعمل الشيطان... وما كان الشأن فيه ذلك فهو حرام.

٢- أن الله عز وجل سماها رجساً، وكلمة رجس تدل على منتهى القبح والخبث، لذلك أطلقت على الأوثان حيث قال تعالى: "فاجتنبوا الرجس من الأوثان"، وقال صاحب عون المعبود أن الرجس هو النجس وكل نجس حرام.

٣- أنها قُرِنتْ بالأنصاب والأزلام ومعلوم أن كلا من الأنصاب والأزلام من خرافات الشرك وتوابع الوثنية، وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم من هذه القرينة أن الخمر معادلة للشرك.

٤- أن هذه الآيات ذكرت أن الخمر من عمل الشيطان، ومعلوم أن الشيطان لا يصدر عنه إلا كل شر، فكذلك تكون سبيلاً إلى كل شر، ولذلك قال رسول الله (ﷺ): اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر.

٥- أن الله تعالى جعل الخمر سبيلاً إلى إثارة العداوة والبغضاء بين الناس حيث بعد أن يفقد الإنسان عقله يصير كالحيوان لا يفرق بين العدو والحبيب ولا بين القريب والبعيد.

٦- أنه تعالى أمر باجتناب الخمر... والاجتناب يعني البعد تماماً عن كل ما له علاقة بالخمر من أماكن شربها أو صناعتها أو بيعها...إلخ وكلمة الاجتناب أشد من كلمة التحريم في التشديد، كما أنه تعالى رتب على اجتنابها رجاء الفلاح بالدنيا بالتوفيق وبالآخرة الجنة.

٧- أنه تعالى ذكر الأمر بالانتهاء عنها بصيغة الاستفهام المقرون بفاء السببية "فهل أنتم منتهون" أي أننا تلونا عليكم فيما سقناه من الآيات الدالة على تحريم

---

(١) المسكرات آثارها وعلاجها في الشريعة الإسلامية للدكتور/ أحمد علي طه الريان.

الخمر ما هو كاف لمنعكم عن شربها فعل أنتم منتهون عنها أم ستظلون على ما كنتم عليه؟؟

٨- أنهى الله عز وجل هذه الآيات بالتهديد الشديد لمن خالف هذا التكليف بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ سورة التغابن/١٢، أي أن الحجة قد قامت عليكم وعلى الرسول بلغكم وقد أعذر من أنذر.

هذا وتحاول كافة الدول إتخاذ الإجراءات لمنع تداول الخمر والمخدرات بين الناس بما تسنه من قوانين وتحدده من عقوبات قد تصل في بعض الدول إلى حد الإعدام... ولكن لا تصل إلى بعض ما اتخذه القرآن الكريم والسنة الشريفة لمحاربة الخمر والمخدرات من تحريمها، واتخاذ تدابير وقائية بالأمر القاطع "باجتنابها" أي تحريم كل ما يمت بصلة للخمر وتجنبه من بداية تحريم صناعتها وتجارتها والعمل فيما يتصل بها... وحتى الجلوس على مائدتها..

ولقد قامت الولايات المتحدة الأمريكية بمنع تداول الخمور وحيازتها وشربها منذ عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٣٣م وقد فشلت أمريكا في تلك التجربة واضطرت إلى السماح بتناول الخمور مرة أخرى.

وفي المقابل فإن المجتمع المدني بقيادة الرسول محمد (ﷺ) استطاع أن يتغلب على مشكلة الخمور التي كانت منتشرة في الجاهلية بين العرب الذين كانوا يعتقدون أن الخمر غذاء ودواء وشفاء وأنها باعثة على الكرم حافزة على الشجاعة.

ومن ناحية الإعجاز الطبي في تحريم الخمر:

فإنه بالإضافة إلى ما سبق ذكره عن الخمر والمخدرات وتأثيرها على الإنسان وصحته فإننا نعود لنذكر أهم الآثار المدمرة للخمر والمخدرات على الإنسان وصحته فيما يلي:

١) **تأثير الخمر ضار على الناحية النفسية للإنسان** سواء في المراحل الأولى من تعاطيها أو في مرحلة الإدمان، حيث أن كلا من الإدمان والمرض النفسي على علاقة وثيقة ببعضها البعض وتتضح هذه العلاقة فيما يلي[1]:

١- قد ينشأ كل منهما (المرض النفسي والإدمان) من نفس الأسباب فترى أن الأسباب التي تدفع شخصاً بذاته إلى نوعية من المرض النفسي قد تدفع شخصاً آخر إلى الإدمان.

٢- الإدمان قد يكون محاوله من فرد للتغلب على الصعوبات التي تواجهه وذلك بالهروب منها.

٣- الإدمان قد يكون محاولة دفاعية من المدمن ضد المرض النفسي المهدد وكأنه بديل من المرض النفسي.

٤- الإدمان قد تصاحبه اضطرابات نفسية مختلفة نتيجة التسمم بالعقار.

٥- الإدمان قد ينتهي باضطرابات نفسية مختلفة (فقد أثبتت إحدى الدراسات أن مدمني المخدرات يعانون من نقص عنصر الليثيوم المسئول عن ثبات الحالة النفسية للإنسان مما يؤدي إلى إصابة متعاطي المخدرات بالاكتئاب النفسي).... لكل هذا فمن المتصور أن الإدمان نوع من المرض النفسي وأننا في مقاومته وعلاجه لابد أن نسير على هذا المفهوم.

٢) تأثير الخمر على الجهاز العصبي في الإنسان:

عموما تنقسم آثار الخمر على الجهاز العصبي إلى ثلاث مجموعات هي:

أ) الآثار السمية المباشرة للكحول على الجهاز العصبي تسبب ضمورا وتلفا بخلايا المخ والمخيخ وجذع الدماغ والعضلات: وتشمل الآثار السمية للكحول على المخ ما يلي:

---

(١) تصور الطب النفسي للدكتور عمر شاهين.

١- ضمور خلايا المخ يؤدي إلى اضطرابات في الشخصية تتسم بالإهمال والأنانية وسرعة الغضب وتقلب المزاج والانفعال... فتارة يقهقه ويمزح وتارة يثور ويغضب أو يبكي دون سبب منطقي لذلك، كما تشيع الهلاوس الحادة عند المدمنين فيرون أشباحا ويسمعون أصواتا ويشمون روائح لا وجود لها، كما يفقدون القدرة على القيام بعمليات حسابية بسيطة.

٢- ضمور خلايا المخيخ وتآكلها وفسادها فيصاب المدمن بالترنح ويفقد قدرته على الوقوف والمشي بثبات دون أن يتأرجح (وتسمى عدم الاتزان المخيخي) وتصاحبها اهتزاز سريع لمقلة العين عند النظر يمينا أو يسارا أو أعلى أو أسفل وتداخل الكلام وعسر التلفظ وارتعاش اليدين لدى استعمالهما في حركة دقيقة كحمل فنجان القهوة.

٣- تليف الكبد من الكحول الذي يؤدي إلى هذيان وارتعاش وفقدان الوعي نتيجة لازدياد المواد السامة بالدم ومرورها إلى المخ بعد أن فشل الكبد في إزالة هذه السموم من الجسم بسبب تليفه.

٤- إعتلال الأعصاب والعضلات الكحولي الذي يتميز بفقدان الحس في اليدين والقدمين وضمور عضلاتها ووهنها ومع تنمل وحرقة ونخر في الأطراف الأربعة نتيجة لالتهاب أعصابها، كما تصاب عضلة القلب أحيانا فتؤدي إلى هبوط القلب الذي ينتهي بالوفاة.

٥- التهاب العصب البصري وضموره الذي ينتهي بالعمى.

ب) الإدمان على الكحوليات بسبب الهذيان والارتعاش والصرع والتشنجات العصبية:

١- الهذيان والارتعاش والهلوسة: فعند الإفراط في تعاطي الخمر أو عند الوقف المفاجئ عنها تشيع هذه الحالة، حيث يعتري المصابون قلق شديد وفقدان الشهية وأرق وارتعاش اليدين والوجه واللسان وهلاوس بصرية في شكل أشباح مرعبة

وأصوات سمعية لا وجود لها، ويضطرب إدراكه للزمان والمكان ويعتريه اكتئاب سوداوي يحيل حياته إلى الجحيم.

٢- الصرع والتشنجات: نتيجة لتأثير الخمر على مادة كيماوية موجودة بالمخ تسمى (الجابا) وهي من خصائصها منع التشنج حيث يمنع الكحول تصنيعها وبالتالي يزداد هياج خلايا المخ ويضطرب نشاطها الكهربائي ولا تجد من يكبحها فتحدث نوبات الصرع، كما قد ينجم الصرع من تأثير مواد سامة موجودة في الخمر ذاتها فتهيج المخ وتزيد من نشاطها الكهربائي، كما قد يصاب مدمن الخمر بارتفاع شديد في درجة الحرارة وقلة مقاومة الجسم للكيماويات، وفشل كلوي وهبوط القلب واضطراب السوائل والأملاح في الجسم مما يؤدي بحياته.

جـ) الإدمان يؤدي إلى نقص فيتامين ب المركب مما يؤدي إلى كثير من الأمراض:

حيث ينتج عن نقص فيتامين ب المركب (خاصة فيتامين ب١، ب٦) وكذلك النياسين يسبب سوء التغذية المصاحب للإدمان (نتيجة لالتهاب قناة الهضم والقيئ المتكرر وسوء الامتصاص من الأمعاء الملتهبة وعسر الهضم الناجم عن التهاب الكبد وتليفه وفشل وظائفه)، كما أن الكحول ذاته يحتاج لكميات كبيرة من فيتامين ب١ في عمليات التمثيل الغذائي له وبالتالي يؤدي إلى نقص هذا الفيتامين.

وأهم أمراض الجهاز العصبي الناتجة عن نقص هذه الفيتامينات هي:[١]

١- شلل الأطراف الذي يبدأ في القدمين واليدين ويزحف على الساقين والساعدين مع فقدان الحس بها نتيجة لالتهاب أعصابها.

٢- شلل الأعصاب المحرك لمقلة العين مما يؤدي إلى الحول وازدواج الرؤيا واسترخاء الجفون وشلل العصب الوجهي (الذي يؤدي إلى عدم القدرة على إغماض العين) وشلل عضلات الوجه.

---

(١) أسرار المخ والأعصاب للدكتور عبد اللطيف موسى عثمان.

٣- شلل العصب البصري الذي يؤدي إلى العمى.

٤- شلل العصب الحائر وغيره من الأعصاب اللاإرادية مما يؤدي إلى اضطراب الجهاز الهضمي وهبوط ضغط الدم عند الانتصاب واقفا واضطراب النبض والخفقان.

٥- مرض البلاجرا الذي يتميز بالتهاب الأجزاء العارية من الجلد، والتهاب أعصاب الأطراف والتهاب النخاع الشوكي، والتهاب القناة الهضمية المصحوب بإسهال وتدهور عقلي واضطرابات نفسية قد تنتهي بالانتحار... ولا عجب بعد كل هذا أن يحرم الإسلام الخمر وينهي عن تعاطيها، ويدعو إلى تجنبها حماية للعقل والبدن.

٤) تأثير الخمر والمخدرات على الكبد:

الكبد من أهم الأعضاء الرئيسية في الجسم والتي عليها مدار الحياة، فهو يوزع ما تحتاج إليه جميع أجزاء الجسم من الجلوكوز (سكر العنب) حسب الحاجة، كما يقوم بتوزيع الحرارة في الجسم باستهلاك السكر وتوليد الطاقة الحرارية، ولقد ثبت أن تليف الكبد يعتمد مباشرة على كمية الكحول المتعاطاه وعلى المدة... فالاستمرار في تعاطي الكحول لمدة عشر سنوات يؤدي إلى إصابة شديدة بالكبد.

٥) تأثير الخمر والمخدرات على الأنف والأذن والحنجرة:

الغشاء المخاطي للأنف يحتوي على شبكة متشعبة جداً من الشعيرات الدموية مما يسهل الامتصاص للمواد المخدرة (خاصة الهيروين والكوكايين) عن طريق الأنف، ولذلك يلجأ المدمن إلى أخذ شمه واحدة في اليوم تجنباً لمشقة أخذ الحقن مرات، ولما يتوهم من توفر السرية، وتعاطي الهيروين والكوكايين يؤدي إلى ضمور وتآكل الغشاء المخاطي للأنف، ومع استمرار المدمن في تعاطي المخدرات يصاب "بثقب" في الحاجز الأنفي وتشوهات بالأنف مما يؤدي إلى تكوين قشور سميكة بالأنف عند محاولة التخلص منها، وينتج نزيف متكرر مما يؤدي إلى ضعف وذبول وهزال المدمن، كما أن جفاف وضمور الأغشية المخاطية يؤدي إلى فقد كامل

لحاسة الشم وما يتبعها من عدم القدرة على تذوق الطعام، كما يسبب تعاطي الهيروين احتقان أغشية (دهليز) الأنف وانتفاخ الحاجز الأنفي مما يسبب صعوبة واستحالة التنفس عن طريق الأنف، وفي كلتا الحالتين يفقد المدمن وظيفة الأنف كصمام أمان لوقاية الجهاز التنفسي، ولتكييف هواء التنفس من حيث الحرارة والرطوبة مما يعرض المدمن لالتهابات متكررة في الجهاز التنفسي، فيشعر بجفاف بالحلق والتهابات بالحنجرة وبحة بالصوت وسعال مستمر، وقد يؤدي إلى نزلات شعبية ربوية مع ضيق التنفس وطنين بالأذنين وتأثر الدورة الدموية لجهاز التوازن بالأذن الداخلية وكذلك إحساس بالغثيان والدوار وعدم القدرة على الاتزان خاصة أثناء المشي أو الحركة.

٦) تأثير المخدرات والخمر على النسل:

يجني شارب الخمر على ذريته جناية كبيرة يتضح ذلك فيما يلي:

أ) يؤدي تناول المخدرات للأم الحامل إلى الإجهاض للجنين قبل بلوغه كمال النمو الطبيعي، وقد تؤدي المخدرات إلى العقم.

ب) أن إفراط السيدات في تناول المخمور أثناء الحمل يؤدي في ٥٠% من هذه الحالات إلى ولادة طفل متخلف عقليا، بينما يؤدي في ٣٠% من الحالات إلى ولادة طفل مشوه بتشوهات خلقية.

جـ) أن أولاد المدمنين عرضه للتشنجات العصبية وسرعة التهيج، ويكونون عادة ضعيفي الجسم خائري القوى مما يجعلهم هدفا لشتى الأمراض (مثل النزلات المعوية والالتهابات الرئوية وغيرها)، إلى جانب فساد الأخلاق والميل إلى الإجرام، وفي بحث تم في مستشفى لويس أنجلوس بأمريكا أكد أن الأطفال تولد مدمنة لأن الأم مدمنة، وقد أثبتت التحاليل وجود رواسب كوكايين في البول عند الأطفال المولودين لأمهات مدمنات، ويصور التشخيص الطبي الطفل المولود مدمنا بأنه طفل لا يكف عن الصراخ منذ الساعات الأولى لولادته.

هذا وقد رأينا فيما سبق من استعراض تأثير الخمر والمخدرات حيث أنها تشترك فيما يلي:

١- أنها تؤثر على العقل فتغير أحواله بصورة أو بأخرى.

٢- أن الإنسان تحت تأثيرها (سواء المخدرات أو الخمور) يأتي بأفعال ويقول أقوالا تغاير المألوف من أقوال وأفعال نفس الشخص فيما لو لم يكن تحت تأثيرها، فقد تدفع الشخص إلى التشاجر مع صديق له أو مع زوجته أو أفراد أسرته فتخلق العداوة والبغضاء بين الناس.

٣- أنها تدفع الإنسان إلى ارتكاب المعاصي والآثام ومخالفة العرف والتقاليد والقانون وتعرض الإنسان للعقاب في الدنيا وسوء العاقبة في الآخرة.

٤- كما أن تعاطي المخدرات أو الخمور يضر بالصحة ضرراً بليغاً، فهي تتلف وتخرب أعضاء الجسم الهامة مثل المخ والأعصاب والكبد والرئة والجهاز الهضمي والجهاز التناسلي وهرمونات الجسم وخلافه من الأجهزة الهامة.

٥- أنها جميعاً تشترك في وضع الإنسان في موضع غير كريم في المجتمع فيصبح لائقة فيه من أهله ومن الناس... بل أنه يصبح شخصاً موبوءاً يتجنبه الأهل والعشيرة ويفر منه الناس إتقاء لشروره وتجنبا لآثامه فهو غير أمين وغير مأمون.

٦- أنها جميعاً تشترك في إظهار الإنسان بمظهر غير لائق وغير كريم فتخرجه عن احتشامه واحترامه وتفقده هيبته ووقاره.

٧- إنها جميعاً تشترك في أنها تحدث تغييرات ضارة في نفسية الإنسان فتجعله يشعر بالنقص والاحتقار الذاتي وعدم الرضا والقلق والاضطراب والهم.

٨- أنها جميعاً تشترك في أنها إسراف المال فيما لا يجدي ولا ينفع... بل هو إسراف فيما يضر ويؤذي.

٩- إنها جميعاً تشترك في أنها تلهي الإنسان عن عمله وتشغله عما ينفعه ويعود عليه وعلى مجتمعه بالنفع وقد تعرضه للفصل من وظيفته وإفلاس شركته أو متجره في الغالب.

١٠- أنها جميعا تشترك في أنها تحول الإنسان إلى مخلوق أناني يعيش لنفسه فقط فهو ينفق ماله على ملذاته وشهواته ويترك زوجته وأولاده دون رعاية أو عناية وهو إنسان غير متكامل مع المجتمع... فهو لا يزكى ولا يتصدق وهو عضو معطوب وضار في المجتمع.

١١- أنها جميعاً تشترك في تأثيرها الضار والمضعف للجهاز التناسلي والناحية الجنسية وعلى ذلك فإنها تؤدي إلى نشوب الخلافات الزوجية وهدم كيان الأسرة.

١٢- مما سبق تدرك أن الإنسان بتعاطي المخدرات أو الخمور يكون قد خسر دنياه وهو لآخرته أكثر خسرانا... فالمسطول أو السكران لا يؤدي فرائض ربه... فهو لا يصلي ولا يصوم وهو لا يفيق لكي يحضر مجالس العلم والتفقه في الدين... فهو إنسان خسر الدنيا وخسر الآخرة.

والنقاط التي ذكرت آنفا إنما هي بعض علة تحريم الخمر في الإسلام، وهي نفس ما يتأتى من مضار بسبب تعاطي المخدرات وعلى ذلك فإن المخدرات والخمر إنما يشترك جميعها في أفعالها وتأثيرها، ولهذا فإنه من البديهي أن ينطبق على أي منها ما ينطبق على الآخر من تحريم وتأثير.

والخمر في الإسلام ليست محرمة لذاتها... ولكنها محرمة لتأثيرها على العقل والصحة والأسباب التي سبق شرحها، والدليل على ذلك أن عصير الفواكه ليس محرماً، ولكنه يصبح محرماً إذا ترك للتخمر وأصبح مسكراً ومؤثراً على العقل، وعلى ذلك فإن المادة التي تؤثر على العقل وتسكره وتغيبه هي المقصودة بالتحريم والاجتناب أياما كانت هذه المادة سواء في ذلك الويسكي أو النبيذ أو الطلاء أو خلافه من الأنواع المختلفة من الخمور، فكلمة خمر لا تعني نوعاً معيناً من هذه الأنواع، وإنما هي كلمة تطلق على كل ما يسكر ويؤثر على العقل، فجاءت البلاغة القرآنية والإعجاز الطبي القرآني ليضع قاعدة شاملة وواضحة، فذكر الله كلمة الخمر ولم يذكر اسما لصنف أو نوع منها، وقد كان معروفاً وقت نزول القرآن عشرات الأنواع والأصناف من الخمور، ولكن إطلاق كلمة خمر عبرت في بلاغة رائعة أن

المقصود بالتحريم هو فعل المادة وليس اسمها، فالمقصود بالتحريم هو كل ما يخامر العقل ويسكره وليس المقصود هو اسم نوع معين ولا شكل معين، فكل ما يؤثر على العقل ويسكره فهو خمر، والآن فإننا نسأل هؤلاء الذين يشككون من حرمة الحشيش والأفيون وخلافه من تلك المواد التي تؤثر على العقل وتغير طبيعته ويقولون بأنها لم تذكر في القرآن..؟ ونقول لهؤلاء، وهل ذكر في القرآن تحريم نوع النبيذ؟؟ أو النقيع أو الطلاء أو الويسكي؟؟ إلى آخر مسميات تلك المواد التي تؤثر على العقل، وبعض هذه الأسماء هي أسماء خمور وكانت معروفة عند العرب وقت نزول القرآن (مثل النبيذ والنقيع والطلاء وغيرها). ومع ذلك فإن أيا من هذه الأسماء لم يذكر، فهل يستطيع أي مكابر أن يجادل في مدى تحريمها أو عدم تحريمها؟؟. والأهم من ذلك كله، هل كان يوجد في وقت نزول القرآن نوع من المواد المسكرة اسمه (خمر) بمعنى أن يذهب إنسان إلى بائع الخمور ويقول له أعطني زجاجة خمر...؟ كلا... لم يكن هناك نوع اسمه خمر.. تماما كما هو الحال الآن، فكلمة خمر ليس اسم صنف، ولكنها اسم جنس، فإذا أطلقت كان المفهوم أنها تشمل العديد من أسماء مواد تتشابه في فعلها وتأثيرها، ولكنها لا تتشابه في مصادر تحضيرها أو طريقة صنعها، لو ذكر الله نوعاً من المواد المسكرة التي كانت معروفة بدلاً من كلمة خمر لتغير المعنى والمدلول وانصب التحريم على صنف بذاته ولذاته، ولكن المقصود هو تحريم كل ما يسكر العقل ويغيبه ويؤثر عليه ويجعل الإنسان غير عالم بما يقل، وقد وضح هذا المعنى من قول الحق سبحانه وتعالى في سورة النساء عندما نهى عن الاقتراب من الصلاة أثناء السكر وعللها بقوله (**حتى تعلموا ما تقولون**).

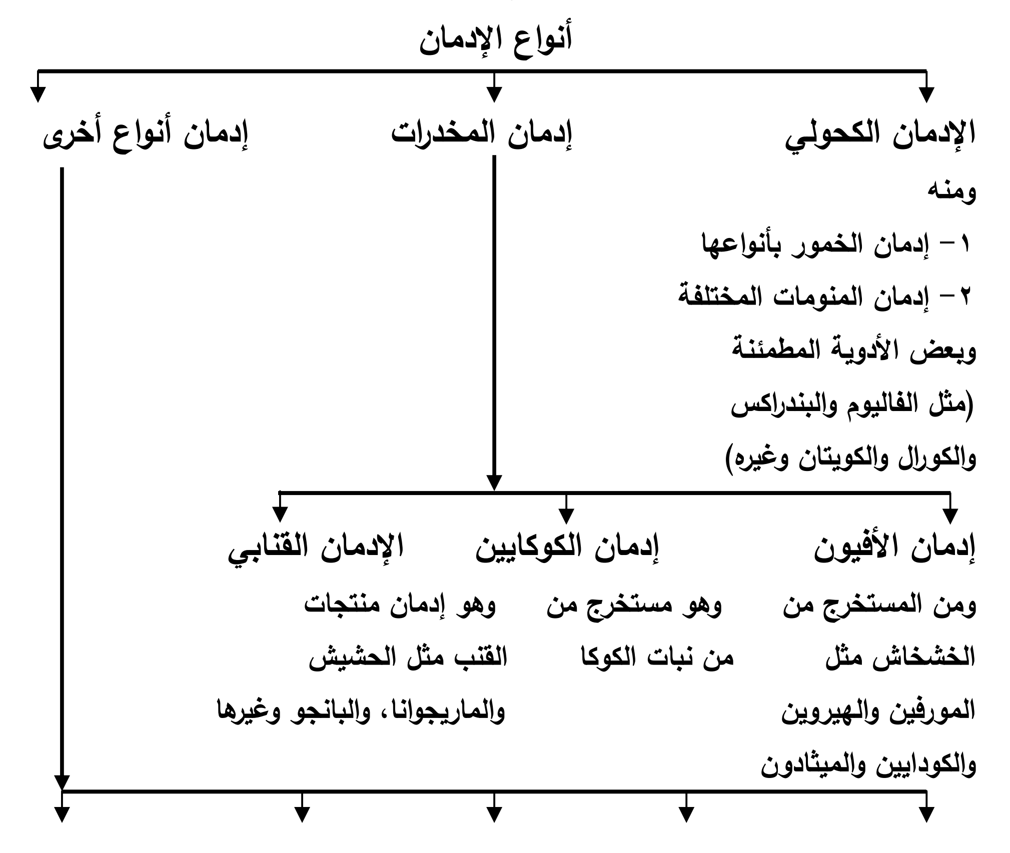
وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى في سورة البقرة رداً على سؤال المسلمين عن الخمر والميسر بقوله جل شأنه: (قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما)، والإثم هو الذنب وهو ارتكاب المعصية والوقوع في الخطيئة، وإطلاق كلمة إثم دون أداة التعريف يعني أن الخمر والميسر كل أنواع وصنوف الإثم... وبمعنى آخر فإن شارب الخمر يمكن أن يقترف أي نوع من أنواع الإثم، فالباب أمام من يشرب الخمر يصبح مفتوحاً للكثير من الذنوب والخطايا ومخالفة العرف المألوف،

فالخمر والإثم يقترفان دائماً فإذا ذكر أحدهما كان ذلك بديلا عن الآخر، وقد عبر الشاعر العربي عن ذلك بقوله:

شربت الإثم حتى ضل عقلي … كذاك الإثم تذهب بالعقول

وسوف يمتلئ جسده بالآثام وسوف تجري الآثام في عروقه مع دمائه تماماً ما تجري الخمر في العروق.

هذا والشكل التالي يوضح أغلب أنواع الإدمان المعروفة حاليا:



إدمان المنشطات	الإدمان الهلوسي	الإدمان القاتي	إدمان المذيبات الطيارة	إدمان النيكوتين
ويسمى إدمان الأمفيتامين ومنه الأمفيتامين والرتالين، وأدوية مسهرة وأدوية التخسيس، وفتح الشهية وغيره	ومنه عقار LSD، وأدوية الهلوسة الأخرى	حيث يمضع المدمن نبات القات	مثل الأسيتون والبنزين ورابع كلوريد الكربون والتربنتينا وأدوية السعال والكحة والديلوكسين والسوسيجون والاستادول وغيره	مثل تدخين السجائر من النباتات الدخان

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢٢٠)

الْيَتَامَى: اليتيم من فقد أباه.

قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ: أي إصلاحهم، وإصلاح أموالهم خير من مجانبتهم.

وَإِن تُخَالِطُوهُمْ: في الطعام والشراب، والمسكن وغيره.

فَإِخْوَانُكُمْ: فهم إخوانكم في الدين ومن حق الأخ أن يخالط أخاه.

لَأَعْنَتَكُمْ: لضيق عليكم ولم يبح لكم مخالطتهم.

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ : أي هو تعالى الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء، الحكيم فيما يشرع لعباده من الأحكام.

سبب نزول الآية:

لما نزلت آية ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾، الأنعام: ١٥٢، وآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ النساء: ١٠.

انطلق من عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، وذكروا ذلك للرسول، فأنزل الله تعالى هذه الآية (ويسألونك عن اليتامى...).

المعنى: ويسألونك يا محمد عن مخالطة اليتامى في أموالهم أيخالطونهم أم يعتزلونهم؟ فقل لهم: مداخلتهم على وجه الإصلاح خير من اعتزالهم، وإذا خلطتم أموالهم بأموالكم على وجه المصلحة لهم فهم إخوانكم في الدين، وإخوة الدين أقوى من إخوة النسب، ومن حقوق هذه الإخوة المخالطة، والإصلاح والنفع، والله تعالى أعلم وأدرى بمن يقصد بمخالطتهم الخيانة والإفساد لأموالهم، ويعلم كذلك من يقصد لهم الإصلاح فيجازى كلاً بعمله.

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٢٢١)

الْمُشْرِكَاتِ : جمع مشركة، وهي من ليس لها كتاب.

وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ: أي نكاح أمة مؤمنة أصلح وأفضل من نكاح حرة مشركة.

أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ: أي إلى الكفر المقضي إلى النار.

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ: بالتوحيد والعمل الصالح.

وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ: أي إلى غفران الذنوب بالتوبة بإذنه ومشيئته.

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ: أي لكي يتذكروا ويعملوا بما فيها، فيفوزوا بما دعوا إليه من الجنة والمغفرة.

سبب نزول الآية:

عندما أرسل رسول الله (ﷺ) رجلاً يقال له "مرثد بن أبي مرثد"، وكان حليفاً لبني هاشم، إلى مكة ليخرج جماعة من المسلمين أسرى بها، فلما قدمها قابل امرأة يقال لها "عناق" كانت خليلة له في الجاهلية، فلما أسلم أعرض عنها، وأبلغها أن الإسلام قد حال بينه وبينها وحرمه، ولكن إن شئت تزوجتك بعد استئذان الرسول، ولكنها استعانت عليه ببعض قومها فضربوه ضرباً وجيعاً، ثم خلوا سبيله، ولما رجع من مكة إلى المدينة حكى ذلك للرسول وما لاقاه وسأل الرسول: أيحل لي أن أتزوجها؟ فنزلت الآية.

المعنى: لا تتزوجوا أيها المسلمون بالمشركات (من غير أهل الكتاب) حتى يؤمن بالله واليوم الآخر، ولأمة مؤمنة خير وأفضل من حرة مشركة ولو أعجبتكم المشركة (بجمالها ومالها وسائر ما يوجب الرغبة فيها من حسب أو جاه أو سلطان وخلافه، ولا تزوجوا بناتكم من المشركين (سواء كانوا وثنيين أو أهل كتاب) حتى يؤمنوا بالله ورسوله، ولأن تزوجوهن من عبد مؤمن خير لكم من أن تزوجوهن من حر مشرك مهما أعجبكم (في الحسب والنسب والجمال وغيره)، فأولئك المذكورين من المشركين والمشركات (الذين حرمت عليكم مصاهرتهم ومناكحتهم يدعونكم إلى ما يوصلكم إلى النار (وهو الكفر والفسوق)، فحقكم ألا تتزوجوا منهم ولا تزوجوهم، والله تعالى يريد بكم الخير ويدعوكم إلى ما فيه سعادتكم، وهو العمل الذي يوجب الجنة ومغفرة الذنوب، ويوضح الله حججه وأدلته للناس ليتذكروا فيميز بين الخير والشر والخبيث والطيب.

استنباط: لا يصح التزوج من المرأة المشركة، أما الكتابية (كاليهودية أو المسيحية) فقد أباح الشرع التزوج بها، وقد فرق الإسلام بين زواج المسلم للمرأة الكتابية (حيث أجازه لأن الرجل قوام على المرأة فلا يتأثر بعقيدتها)، وبين نكاح الكتابي للمسلمة (حيث منعه الإسلام لأن الزواج فيه ولاية الزوج على الزوجة، وقوامته عليها، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٢٢٢)

الْمَحِيضِ: الحيض هو دم فاسد يخرج من رحم المرأة كل دورة شهرية.

أَذًى: ضرر.

فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ: فاجتنبوا مجامعتهن في المحيض (وهو أقله يوم وليله، وغالبه ست أو سبع أيام).

حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ: أي بانقطاع دم الحيض.

مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ: من المكان المأمور به، وهو القبل لا الدبر.

المعنى: ويسألونك يا محمد عن إتيان النساء في حالة الحيض أيحل أم يحرم؟ فقل لهم: إنه شيء مستقزر، ومعاشرتهن في هذه الحالة فيه أذى للزوجين، فاجتنبوا معاشرة النساء في حالة الحيض، ولا تجامعوهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن، والمراد التنبيه على أن الغرض عدم المعاشرة لا عدم القرب منهن وعدم مؤاكلتهن ومجالستهن، كما كان يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة، فإذا تطهرن بالماء، فأتوهن في المكان الذي أحله الله لكم (وهو مكان النسل والولد أي القبل لا الدبر)، وإن الله يحب التائبين من الذنوب، والمتنزهين عن الفواحش والأقذار.

توضيح لما في الآية من إعجاز علمي:

فقد قال الرسول (ﷺ) "أن اليهود إذا حاضت المرأة أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يجامعوها... فسأل أصحاب الرسول: ما يصنعون؟ فقال "اصنعوا كل شيء إلا النكاح".

وقد أثبت العلم الحديث "أن إدخال القضيب إلى الفرج والمهبل في أثناء الحيض، ليس إلا إدخال للميكروبات في وقت لا تستطيع فيه أجهزة الدفاع للأنثى أن تقاوم.

كما أن وجود الدم في المهبل والرحم يساعد على نمو تلك الميكروبات وتكاثرها، فمن المقرر علمياً أن على جلد القضيب ميكروبات عديدة... لكن المواد المطهرة والإفراز الحامضي للمهبل تقتلها أثناء الطهر للأنثى... أما أثناء الحيض فأجهزة الدفاع تكون مشلولة وغير قادرة على القيام بمهامها، بالإضافة إلى حدوث الأضرار التالية:

١- امتداد الالتهابات إلى قناتي الرحم فتسدهما، أو تؤثر على شعيراتها الداخلية التي لها دور كبير في دفع البويضة من المبيض إلى الرحم، مما يؤدي إلى العقم، أو إلى الحمل خارج الرحم... وهو أخطر أنواع الحمل على الإطلاق.

٢- امتداد الالتهاب إلى كل من قناة مجرى البول، فالمثانة، فالحالبين، فالكلى) مما يسبب أمراضاً خطيرة ومزمنة في الجهاز البولي.

٣- يصاحب الحيض آلام وأوجاع في أسفل الظهر وأسفل البطن، مما يجعل الجماع غير مناسب بالنسبة للمرأة.

٤- إصابة كثير من النساء بحالة من الكآبة والضيق أثناء الحيض، (وخاصة عند بدايته)، فتكون المرأة عادة متقلبة المزاج، وسريعة الاهتياج، وقليلة الاحتمال... وهذا يتنافى مع الحالة النفسية ينبغي أن تكون عليها المرأة أثناء الاتصال الجنسي... مما يقلل الرغبة الجنسية لدى المرأة والتي يجب مراعاتها من جانب الزوج.

٥- كما ينتقل الضرر إلى الرجل الذي وطئها أيضاً (حيث أن إدخال القضيب إلى المهبل المليء بالدماء يؤدي إلى تكاثر الميكروبات والتهاب قناة مجرى البول لدى الرجل.

٦- كما أن الجماع أثناء الحيض قد يكون أحد أسباب مرضى سرطان عنق الرحم، فضلاً عن الآلام المبرحة التي تنتج عن ذلك.

٧- كما تزداد شراسة الميكروبات في دم الحيض (وخاصة ميكروب السيلان)، وقد ينتقل الميكروب من البروستاتا إلى الحويصلات المنوية (وذلك مروراً من قناة مجرى البول بعد الاتصال الجنسي بالحائض).

ومن هذا وذاك يتبين لنا الإعجاز العلمي في الإسلام، سواء ما جاء به القرآن أو السنة الشريفة، من منعه للاتصال الجنسي في فترة الحيض، وإذا كان لابد من الاستمتاع بالزوجة أثناء فترة الحيض، فيشترط أن يكون ذلك فوق الأزار (إذا وثق الزوج من نفسه أنه لا يتعدى الحدود).

من ذلك يتجلى الإحساس النفسي للإسلام وواقعيته في معالجة لأدق الأمور التي نعترض الرجل والمرأة في حياتهما الجنسية... وهو ما قرره العلم الحديث بعد بحوثه التجريبية التي أجراها مؤخراً، بالإضافة إلى ما أكدته التقارير العلمية فيما يتصل بالأضرار العضوية والفسيولوجية.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢٢٣)

حَرْثٌ لَّكُمْ : الحرث هو موضع النبت (أي الأرض التي تستنبت)، وقد شبهت بها النساء لأنها منبت للولد كالأرض للنبات.

أَنَّىٰ شِئْتُمْ: أي كيف شئتم (من قيام، وقعود، واضطجاع، وإقبال وإدبار متى كان المأتى واحداً (وهو موضع الحرث أي موضع النسل وهو قبل المرأة).

وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ: أي اجعلوا في مقدمة الجماع ما يكون خيراً لكم، وهو التسمية والدعاء، والتمهيد للجماع.

وَاتَّقُوا اللَّهَ: واحذروا أن تأتوا مما نهاكم عنه الله.

المعنــى: نساؤكم مكان زرعكم وموضع نسلكم، وفي أرحامهن يتكون الولد، فأتوهن في موضع النسل والذرية ولا تتعدوه إلى غيره، وكيف شئتم (أي سواء المرأة قائمة أو قاعدة أو مضطجعة بعد أن يكون في مكان الحرث (وهو الفرج)، وذلك رد لقول اليهود إذا أتى الرجل امرأته في قبلها من دبرها جاء الولد أحول، وقدموا صالح الأعمال التي تكون لكم ذخرا في الآخرة، وخافوا الله (باجتناب معاصيه)، وأيقنوا بأن مصيركم إليه فيجازيكم بأعمالكم، وبشر المؤمنين بالفوز العظيم في جنات النعيم، ويسعدون بنعيم الدنيا والآخرة.

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢٢٤)

عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ: أي لا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً عن فعل الخير.

سبب نزول الآية: سبب نزول الآية أن أبا بكر حلف ألا ينفق على "مسطح" بعد أن خاض في قصة الإفك بافترائهم على عائشة، وقد كان من ذوي قرابته، وفيه نزل قوله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ... ﴾ سورة النور/٢٢.

المعنى: لا تجعلوا الحلف بالله مانعاً لما حلفتم على تركه من عمل البر (فتتركوه تعظيماً لاسمه)، فالله لا يرضى أن يكون اسمه حجاباً دون الخير والبر، حيث كثيراً ما يسرع الإنسان إلى الحلف بألا يفعل كذا ويكون خيرا، أو أن يفعل كذا ويكون شراً، فنهانا الله عن ذلك، وأمرنا بالتحري في وجوه الخير، فإذا حلفنا على تركها، فلنفعلها ولنكفر عن اليمين، وأن التصون عن كثرة الحلف باسم الله يؤدي إلى البر والتقوى، والقدرة على الإصلاح بين الناس (حيث يكون جليل القدر في أعين الناس موثوقاً به بينهم فيقبل قوله)، والله سميع لأيمانكم، وعليم بنياتكم، فيجازيكم على ما اقترفتم في الدنيا.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(٢٢٥)

بِاللَّغْوِ : اللغو ما يقع في حشو الكلام من الإيمان من غير قصد ولا نية ولا يقصد به عقد اليمين، فلا يؤاخذ الله به بفرض كفارة ولا بعقاب حتى لا يكون في ذلك حرج على المؤمنين.

المعنى: لا يؤاخذ الله بما يقع منكم من الإيمان في حشو الكلام دون أن تقصدوا به عقد اليمين، فلا يفرض عليكم فيه كفارة، ولا يعاقبكم به، ولكن يؤاخذكم بما نوت قلوبكم وقصدته من اليمين من عزم على إيقاع فعل أو عدم إيقاعه، حتى لا تجعلوا اسمه الكريم عرضة للابتذال أو مانعاً من صالح الأعمال.

والله غفور حيث لا يؤاخذكم باللغو في إيمانكم، وحليم من حيث يعالجكم بالعقوبة.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢٢٦)

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ: أي يحلفون على ألا يجامعوهن، والإيلاء هو أن يحلف الرجل على الامتناع من جماع زوجته لمدة معينة أو غير معينة.

والتربص: الانتظار.

فَاءُوا: أي رجعوا إلى نسائهم.

المعنى: الذين يحلفون ألا يقربوا نسائهم لمدة معينة أو غير معينة، وفي هذا امتهان للمرأة، وهضم لحقوقها وجفوة لها، والحلف على المرأة على هذا النهج، لا يرضاه الله ورسوله، لما فيه من الضرر اللاحق للزوجة وقطع التراحم بينهما.

ولمن يفعل ذلك انتظار أربعة أشهر فقط (لأنها أقصى مدة تستغنى فيها المرأة العفيفة عن زوجها)، فإن أتوا نسائهم في أثنائها، استمر الزواج وعليهم كفارة اليمين وغفر الله لهم، وتقبل الكفارة رحمة بهم.

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢٢٧)

عَزَمُوا الطَّلَاقَ: أي قصدوا ألا يعودوا إلى ملامسة المرأة.

المعنى: وإن لم يأتوا نسائهم في هذه المدة (أربعة أشهر) كان ذلك إضرارا بالمرأة وتقع الفرقة والطلاق بمضي تلك المدة، أو يرفع أمره إلى الحاكم، فإن الله سميع لحلفهم وطلاقهم، وعليم بنياتهم فليراقبوه فيما يفعلون.

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٢٢٨)

وَالْمُطَلَّقَاتُ: أي من أراد الدخول بهن من ذوات الحيض.

يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ: أي المطلقات من ذوات الحيض ينتظرن فلا يتزوجن ثلاثة حيضات استبراء للرحم وفسحة لاحتمال المراجعة.

وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ: ويجب لهن من الحق على الرجال (من المهر، والنفقة).

وَاللَّهُ عَزِيزٌ: أي يقدر على الانتقام ممن خالف الأحكام.

حَكِيمٌ: في جميع أفعاله وأحكامه.

المعنى: الواجب على المطلقات الحرائر المدخول بهن أن ينتظرن مدة ثلاث حيضات (أو ثلاثة أطهار) ثم تتزوج إن شاءت بعد انتهاء عدتها، أما غير المدخول بها فلا عدة عليها، ولا يباح للمطلقات أن يخفين ما في أرحامهن من حمل أو

حيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحق الزوج في الرجعة إن كن حقاً مؤمنات بالله ويخشين عقابه، وهذا تهديد لهن حتى يخبرن بالحق من غير زيادة ولا نقصان (لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن)، وأزواجهن أحق بهن في الرجعة من التزويج للأجانب إذا لم تنقضي عدتهن، وكان الغرض من الرجعة الإصلاح لا الإضرار وذلك في الطلاق الرجعي، فإذا قصد الزوج من المراجعة المضارة والمنع من التزوج حتى تكون المرأة كالمعلقة (فلا الزوج يعاشرها بالحسنى معاشرة الأزواج، ولا يمكنها من التزوج بغيره) فهو أثم بينه وبين ربه بهذه المراجعة.

وللرجل حقوق وعليه واجبات يؤديها للمرأة، وللمرأة مثل ذلك، والمراد بالمماثلة أن الحقوق بينهما متبادلة متكافئة، فهما متماثلان في الحقوق والأعمال، كما أنهما متساويان في الشعور والإحسان والعقل، فليس من العدل ولا من المصلحة أن يتحكم أحد الجنسين في الآخر ويستبد به، لأن الحياة المشتركة بينهما لا تكون سعيدة إلا بالاحترام المتبادل بين الزوجين.

من هنا يتضح أن الإسلام رفع النساء إلى درجة لم يرفعهن إليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع الماضية... بل لم تصل إليها أمة من الأمم التي بلغت القمة تقدماً وحضارة (فهي وإن بالغت في احترامهن وتعليمهن لا تزال قوانين بعضها تمنع المرأة من التصرف في مالها بغير إذن زوجها)، بينما منح الإسلام هذه الحقوق للمرأة منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان، أما قوله تعالى (وللرجال عليهن درجة)، فالدرجة هي القوامة للرجال عليهن والولاية والنفعة لهن، فهو تكليف للرجال أكثر من تكليفهن، أما تحديد الحقوق والواجبات فمتروك للعرف العام ما لم يحل حراماً أو يحرم حلالاً، فللمرأة واجبات تقتضيها طبيعتها، ولها حقوق كذلك توجها لطبيعتها، فليس من المعقول أن الرجل يتساوى مع المرأة في الخلقة والطبيعة... بل هي خلقت للبيت وتنشئة الأولاد، والرجل خلق للجهاد والعمل والكسب ليعول الزوجة والأولاد (الأسرة)... وهذا هو حكم النبي (ﷺ) بين علي وفاطمة (حيث جعل فاطمة في البيت تديره وترعاه، وعلياً خارج البيت يجاهد ويكافح من أجل الرزق).

وليس في هذا إهمال لشأن المرأة أو طعن في كفايتها وعقلها وعلمها (فكثيراً ما نقرأ أو نسمع عن نساء رائدات ومتفوقات في الدراسة وفي كافة الأعمال والتخصصات المختلفة عن الرجال)، ولكنه تشريف لها وتكريم (حيث تصان المرأة وتحفظ)... بل إن عملها خارج المنزل خطر، ومهمتها في المنزل شاقة (فعليها تربية الأولاد، وإعداد الطفل، وبناء الأسرة، وتكوين الأمة)، فالأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيبا الأعراق... واشتغالها ببعض الأعمال والوظائف (إذا اقتضت ضرورة العيش ذلك) فلا مانع بشرط مراعاة الدين والخلق وعدم الفتنة.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٢٢٩)

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ: حيث يصح للزوج أن يطلق زوجته ثم يراجعها مرتان فقط، ثم بعد ذلك عليه أحد أمرين... إما إمساكها بمعروف وحسن العشرة، وإما تسريحها (أي تطليقها) بإحسان ومن غير مضارة (وهي التطليقة الثالثة).

سبب نزول الآية:

كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، وهي امرأته إذا ارتجعها في العدة، وإن طلقها مائة مرة أو أكثر، فذهبت امرأة تشكو إلى الرسول (ﷺ) فسكت حتى نزلت الآية (**الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ**).

المعنى: الطلاق الشرعي الذي يثبت للزوج فيه حق المراجعة مرتان فقط، وبعدها إمساك للزوجة بمعروف ومعاشرتها بالحسنى، أو تسريح بإحسان (بمعنى تركها حتى

تتم العدة من الطلقة الثانية وعدم مراجعتها)، والإحسان في الآية المقصود منه أن ينفحها بجزء من المال جبراً لخاطرها (وهو ما يسمى بنفقة المتعة ومؤخر الصداق).

ومن آداب الطلاق (وحرصاً على مصلحة الزوجة)، وحدا من طغيان الرجل، أن يطلقها في الطهر لا في الحيض، وأن يكون مرة بعد مرة لا دفعة واحدة (وهذا هو القصد من التعبير بقوله مرتان لا اثنتان).

ولا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما أعطيتموهن شيئاً، إلا عند خشية عدم إقامة حقوق الزوجية (التي بينها الله سبحانه وتعالى وألزم بها)، فإن خفتم يا معشر المسلمين ألا يؤدي الزوجات حقوق الزوجية سليمة (كما بينها الله) فقد شرع للزوجة أن تقدم مالا في مقابل إفتراقها عن زوجها، وهذا هو قانون الخلع للمرأة (حيث تخلع المرأة بالتنازل عن مهرها أو بدفع مال لزوجها حتى يطلقها، ولا إثم على الزوج في أخذه ولا على الزوجة في بذله). وكان أول خلع في الإسلام لامرأة ثابت بن قيس تشكو زوجها فقال لها عليه السلام: أتردين عليه حديقته؟ قالت نعم، ففرق بينهما... هذه هي أحكام الله المقررة فلا تخالفوها وتتجاوزوها، لأن من يفعل ذلك فهو ظالم لنفسه وظالم للمجتمع الذي يعيش فيه.

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٢٣٠)

فَإِن طَلَّقَهَا: يعني الطلقة الثالثة.

فَلَا جُنَاحَ: أي على الزوج الأول والمرأة أن يتراجعا بعقد جديد بعد انقضاء عدتها من الزوج الثاني.

المعنى: فإن طلق الزوج امرأته مرة ثالثة (المعبر عنها فيما تقدم بقوله تعالى (أو تسريع بإحسان)، فلا يملك مراجعتها بعد ذلك إلا إذا تزوجت بزوج آخر زواجاً صحيحاً مقصوداً (مع غشيان الثاني لها كما بينته السنة)، والآية صريحة في أن

النكاح الذي تحل به المطلقة ثلاثا، ما كان زواجاً صحيحاً (عن رغبة مقصودة لذاتها)، فمن تزوج بامرأة بقصد إحلالها للزوج الأول كان زواجه غير صحيح، ولا تحل به المرأة للأول إذا طلقها الثاني، وهو معصية لعن الله فاعلها كما قال الرسول (ﷺ) "ألا أخبركم بالتيس المستعار؟ قالوا بلى يا رسول الله قال هو المحلل لعن الله المحلل والمحلل له.

فإن طلقها الزوج الثاني فلا بأس أن تعود إلى زوجها الأول بعد انقضاء العدة إذا كان ثمة دلائل تشير إلى الوفاق بينهما وحسن العشرة، وقد بينت هذه الحدود لمن يؤمن بالشرع الإسلامي ويريد العلم والعمل به.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٢٣١)

فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ: أي قاربن انقضاء عدتهن.

فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ: الإمساك المراجعة، والمعروف ما ألفته العقول واستحسنته النفوس شرعاً وعرفاً وعادة، والمراد بالتسريح ترك المراجعة حتى تنقضي عدتها.

ضِرَارًا : يقصد الإضرار بها.

آيَاتِ اللَّهِ: آيات أحكام الطلاق والرجعة والخلع ونحو ذلك.

سبب نزول هذه الآية:

نزلت في رجل من الأنصار يدعى ثابت بن يسار طلق امرأته حتى انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة، ثم راجعها، ثم طلقها مضارة لها لكي تطول العدة وإلحاق الضرر بها فتكون كالمعلقة.

المعنى: وإذا طلقتم النساء وقاربن انتهاء العدة، فالواجب عليكم أحد أمرين:

* إما إمساك بالمراجعة بقصد إقامة العدل وحسن المعاشرة وعدم المضارة.

* أو إطلاق سبيلها بالمعروف الذي شرع لكم من غير إلحاق ضرر بالمطلقة، ملاحظين المعاملة اللائقة عند الفراق من غير جفوة، ولا يجوز أن يكون القصد من المراجعة مضارة المرأة وتطويل عدتها لتلجئوهن إلى افتداء أنفسهن (كما كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية)، ومن يفعل ذلك الإمساك فقد ظلم نفسه في الدنيا بسلوك طريق الشر، ومناصبة المرأة وأسرتها العداء له، وعرض نفسه كذلك لتأنيب الضمير وعذاب الله وغضبه ونكاله، ولا تتهاونوا بحدود الله التي شرعها لكم في الأسرة وجاءت بها الآيات في القرآن الكريم والسنة المحمدية والعلوم النافعة التي بها تتعظون وتهتدون، واتخذوا بينكم بين نقمة الله وغضبه وقاية، وامتثلوا أوامره، واعلموا أن الله محيط بسركم وجهركم وأعمالكم، وهو مجازيكم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢٣٢)

فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ: أي لا تمنعوهن وتحبسوهن وتضيقوا عليهن.

أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ: أي الذين يرغبن فيهم ويصلحون لهن، والخطاب للأزواج الذين يمنعون نساءهم قرب انتهاء عدتهن ظلماً، ولا يتركونهن يتزوجن من شئن من الأزواج.

بِالْمَعْرُوفِ: بما وافق الشرع والمروءة.

أَزْكَىٰ لَكُمْ: أي أنفع لكم.

وَأَطْهَرُ: من دنس الآثام.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ: ما في ذلك من الزكاة والطهر.

المعنـى: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، إذا طلقتم النساء وانقضت عدتهن، وأراد أزواجهن أو غيرهم أن ينكحوهن، فلا تمنعوهن من الأزواج (إذا رضي كل من الرجل والمرأة زوجاً للآخر)، وكان التراضي في الخطبة (بما هو معروف شرعاً، وتوافرت الكفاءة بين الزوجين)، وذلك الذي تقدم من الأحكام والحدود يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فهم الذين يتقبلونه قبولاً حسناً ويمتثلونه، ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم من دنس الوقوع في المحرم وأنمى للشرف والكمال، وصوناً للأعراض والبيوت.

والله يعلم ما لكم في ذلك من النفع والصلاح (فهو العليم بوجوه الفائدة في هذه الأحكام، والسر فيما به أمر، وعنه نهى)، وأنتم لا تعلمون ذلك علماً صحيحاً خالياً من الأهواء.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٢٣٣)

حَوْلَيْنِ : أي سنتين.

الْمَوْلُودِ لَهُ : هو الوالد.

رِزْقُهُنَّ : نفقتهن على الرضاع.

بِالْمَعْرُوفِ: من غير إسراف ولا تقتير.

لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ: أي لا يكلف كل واحد منهما الآخر ما ليس في وسعه، ولا يضاره بسبب الولد.

فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا : أي إن أرادا فطاما، لأنه يفصل الولد عن أمه.

مَا آتَيْتُمْ : أي ما التزمت إيتاءه من الأجرة للمرضعة.

المعنـى: وعلـى الوالـدات أن يقمن بإرضـاع أولادهن مدة عـامين كـاملين (مراعـاة لمصلحة الطفل)، ويجب على الوالد (الذي ينسب إليه الابن)، أن ينفق عليهن (أي على الولد وأمه التي هي زوجته) بما فيه الكفاية (من طعام وشراب وكسوة) ليقمن بخدمته، ويحفظنه ويرعين شئونه، وأن يكون ذلك الإنفاق على حسب طاقته (بلا إسراف ولا تقتير)، ولا ينبغي أن تضار الوالدة بسبب ولدها (بأن يكون سبباً في إلحاق الضرر بها بأن يهضم الأب حقها في نفقتها أو حضانة ولدها)، كما لا ينبغي أن يكون سبباً في إلحاق الضرر بأبيه (بأن يكلف فوق طاقته، أو يحرم حقه في ولده، أو تستغل الأم عاطفة الأبوة فتفرط في شأن مطالب الولد).

وعلى الوارث (الذي يرث الأب) مثل ذلك من النفقة والكسوة، وقيل المراد تؤخذ النفقة من مال الصبي (فهو الوارث لأبيه)، فإذا لم يكن له مال تؤخذ ممن يرث الطفل لو مات (مثل الجد للطفل). وإذا اتفق الوالدان على أن يفطما ولدهما قبل عامين أو بعدهما فلا حرج في ذلك عليهما، إذا اقتضت الضرورة ومصلحة الطفل والمصلحة العامة هذا.

وإن أردتم أن تتخذوا مراضع لأولادكم (غير أمهاتهم) بسبب مرض أو حمل أو نحو ذلك، فلا حرج لكم في ذلك، بشرط أن تدفعوا إليهن أجورهن بالمعروف، وراقبوا الله في أعمالكم، واعلموا أنه مطلع عليها ومجازيكم بها.

توضيح علمي للآية وما فيه من إعجاز:

فقد ذكرت الآية "والوالدات يرضعن"، ولم يقل "الأمهات يرضعن"، قاصداً بذلك أن لبن الرضاعة المثالي هو لبن **الوالدة الأم** وليس لبن المرضعة الأم، حيث في الثلاثة أيام الأولى من الولادة يكون لبن الوالدة الأم قليلاً وسميكاً، ويحتوي على بروتينات خاصة تكسب الطفل مناعة ضد أي ميكروب، ولذلك فإن لبن الوالدة المرضع يجعل الطفل يشتد وينمو ويكبر باطراد ملحوظ وبشرط أن يكون بعيداً عن مصادر العدوى.

كما عدد القرآن فترة عامين كاملين لإرضاع الطفل، ثم بعدها فطامه، وذلك لأن هذه الفترة يكون قد وجب اعتماده على نفسه في الغذاء الخارجي... كما أن لبن الوالدة بعد تلك الفترة يصير مائعاً فاقداً الكثير من عناصره المغذية، والتي لم تعد قادرة على تغذية الطفل ونموه، ولا تفي بمتطلباته من الغذاء والنمو، ولذلك لابد من فطامه، وهذا يحدث في حالة الأم السليمة والمولود السليم العادي، أما إذا كان أحدهما (سواء الأم أم المولود) غير سليم (مثل الإصابة بالمرض)، فيكون الفطام قبل ذلك، ولا يجب الفطام قبل الشهر التاسع خشية تعرض الطفل لعواصف المرض الشديدة.

وهكذا تطابقت الآية الشريفة مع أحدث الأبحاث العلمية في التغذية السليمة للأطفال المولودين.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٢٣٤)

يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ: أي يتوفاهم الله.

بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ: أي انقضت عدتهن، والعدة ثلاث حيضات أو طهر، أما العدة للمتوفى عنها زوجها فتكون عدتها أربعة أشهر ما لم تكن حاملاً (فعدتها بوضع الحمل ولو بعد الوفاة بيوم واحد).

المعنى: والذين يتوفون منكم أيها الرجال ويتركون زوجات لهم غير حوامل فعليهن أن يمكثن في العدة أربعة أشهر وعشرة أيام حداداً على أزواجهن (أما الزوجة الحامل فعدتها وضع الحمل)، فإذا انتهت هذه المدة فلا تبعة عليكم أيها المسلمون أن تفعل المرأة ما كان محظوراً عليها قبل ذلك قبل هذه المدة (من التزين والتطيب والتعرض للخطاب وسائر ما حرم عليها للعدة)، فإن فعلن ذلك قبل انتهاء العدة كن قد أتين بمنكر، فيجب على أوليائهن وخيار المسلمين أن يمنعوهن، والله محيط

بدقائق أعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها، فإذا جعلتم نساءكم تسير على نهج الشرع وحدوده، صلحت أحوالكم وسعدتم في دنياكم، وأحسن الله جزاءكم في أخراكم، وإن أسأتم السيرة غضب الله عليكم فهو خبير بكل شيء وبما تعملون.

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾(٢٣٥)

عَرَّضْتُم: أي لوحتم وأشرتم.

مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ: من طلب نكاحهن قبل انقضاء عدتهن.

المعنى: ولا إثم عليكم أيها الرجال في التعريض بخطبة النساء المتوفى عنهن أزواجهن في العدة، بطريق التلميح لا التصريح (مثل قوله وددت أن الله يسر لي امرأة صالحة"، ولا إثم عليكم أيضاً فيما أخفيتموه في أنفسكم من رغبة الزواج بهن، فقد علم الله أنكم ستتذكرونهن في أنفسكم ولا تصبرون عنهن، فرفع عنكم الحرج، فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن بالنكاح سراً إلا بطريق التعريض والتلويح بالمعروف الذي أقره لكم الشرع.

واعلموا أن الله يعلم ما تنطوي عليه قلوبكم، فاخشوا غضبه، ولا تقدموا على ما نهاكم عنه، واعلموا أن الإنسان إذا تعدى حدود الله، وأراد التوبة يغفر له، وهو الحليم الذي لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل عباده حتى ينيبوا ويرجعوا تائبين له.

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾(٢٣٦)

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ: لا تبعة ولا مسئولية عليكم (كالتزام بمهر أو نحوه).

تَمَسُّوهُنَّ : تباشروهن، والمباشرة غشيان المرأة.

أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً: الفريضة المهر أو الصداق، وتفرضوا أي تسموا أو تعينوا.

وَمَتِّعُوهُنَّ: أي أعطوهن من مالكم ما يتمتعن به.

عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ: أي على الغني قدر استطاعته، وكذلك على الفقير قدر طاقته.

الْمُحْسِنِينَ : الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الطاعة والإذعان.

المعنى: لا تبعة عليكم (كالتزام بصداق أو نحوه) عند طلاقكم للنساء قبل الدخول بهن، وقبل أن تقدروا لهن مهرا، وأعطوا المطلقات شيئاً من مالكم يتمتعن به لتخف آلام نفوسهن، ولتكن عن رضا وطيب خاطر، وليدفعها الغني على قدر سعته، والفقير بقدر طاقته وحاله. وهذه العطية من أعمال البر التي يلتزمها ذوو المروءة الذين يسارعون إلى طاعة ربهم وامتثال أوامره.

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٢٣٧)

وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً : أي سميتم وعينتم لهن صداقا.

فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ: أي فلهن نصف المهر المسمى.

إِلَّا أَن يَعْفُونَ : إلا أن تترك النساء نصيبهن من الصداق، فتهبه للأزواج، فيعود جميع الصداق إليهم.

أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ: أو يعفو الزوج فيعطي المرأة الصداق كاملاً.

وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ: أي ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض.

المعنى: وإذا طلقتم النساء قبل الدخول بهن وقد عينتم لهن صداقا، فيجب لهن النصف يأخذونه ويرجع النصف الثاني للأزواج، وذلك إلا إذا تنازلت الزوجة عنه، كما إنهن يعطين أكثر من النصف إذا سمحت نفس الزوج بذلك فأعطاها المهر كله، وسماحة كلا من الزوجين أكرم وأرضى عند الله.

ولا تنسوا التفضل بينكم بالإحسان، كما لا تنسوا مودة أهل البيت الذين كانوا أصهارا لكم، وعاملوهم بالتي هي أحسن ولا تكيدوا لهم. فإن العفو خير لكم جميعاً، والله بما تعملون بصير فيجازي كلاً على حسب نيته.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾(٢٣٨)

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ: حافظ على الشيء داوم عليه، وحفظ الصلاة بالإتيان بها كاملة الشروط والأركان وبالخشوع القلبي.

وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى: المتوسطة، والمراد بها صلاة العصر.

قَانِتِينَ: القنوت هو الانصراف عن شئون الدنيا إلى مناجاة الله والتوجه إليه بالدعاء والذكر والطاعة.

المعنى: واظبوا أيها المؤمنون وداوموا على أداء الصلوات في أوقاتها، وخاصة صلاة العصر فإن الملائكة تشهدها، وداوموا على العبادة والطاعة بالخشوع، وذلك لأن الصلاة عماد الدين، والركن الأساسي الذي يرتكز عليه صرح الإيمان، لما لها من أثر فعال في تطهير النفس، وصفاء الروح، وحافظوا على الصلاة مطلقاً تحفظكم من الفحشاء والمنكر والبغي، خاصة الصلاة الوسطى (وهي صلاة العصر)، وقوموا لله خاشعين، واذكروه مخلصين، وأدعوه منيبين، واضرعوا له طائعين.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾(٢٣٩)

فَإِنْ خِفْتُمْ: من عدو أو غيره.

فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا : فصلوا مشاة على أرجلكم، أو راكعين على دوابكم مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وهذا في وقت الحرب.

فَإِذَا أَمِنتُمْ: أي زال خوفكم.

فَاذْكُرُوا اللَّهَ: فصلوا صلاة الأمن.

المعنى: فإذا أدركتم الصلاة وأنتم خائفون من عدو أو غيره، فلا تتركوها بل صلوا على أي كيفية سواء سائرين على الأقدام أو راكبين أو واقفين (وعلى أي وضع كان)، وإذا زال الخوف وأمنتم فاشكروه على الأمن، واذكروه بالصلاة والعبادة، كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع والأحكام على لسان نبيه كيف تصلون حين الأمن وحين الخوف.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٢٤٠)

وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا: يتركون زوجات بعد وفاتهم.

وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم: وصية من الله لأزواجهم.

مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ: جعل الله لهن ذلك متاعاً إلى الحول.

غَيْرَ إِخْرَاجٍ: لهن ذلك المتاع وهن مقيمات في البيت غير مخرجات منه، ولا ممنوعات من السكن فيه.

المعنى: والذين يتوفون منكم ويتركون زوجات بعدهم، فليوصوا لهن بوصيته قبل وفاتهم، وليمتعوهن متاعاً إلى آخر الحول، كما أوصى الله أن يقمن في بيت الزوجية عاماً كاملاً (مواساة لهن وإزالة لوحشتهن، ولا يحق لأحد أن يخرجهن)، فإن خرجن بأنفسهن في أثناء العام، فلا حرج عليكم أيها الأولياء أن تتركوهن يتصرفن

في أنفسهن بما لا ينكره الشرع الحنيف عليهم (كالتعرف للخطاب بعد العدة، والتزوج)، حيث لا ولاية لكم عليهن، فهن حرائر لا يمنعن إلا من المنكر، والله عزيز غالب على أمره، وحكيم في تصرفاته.

وكان هذا الحكم في ابتداء الإسلام، فكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام العام، وكانت نفقتها وسكناها واجبتين في مال زوجها تلك السنة وليس لها من الميراث شيء، ولكنها تكون مخيرة، فإن شاءت اعتدت في بيت زوجها (ولها النفقة والسكنى)، وإن شاءت خرجت قبل تمام الحول (وليس لها نفقة ولا سكنى)... ثم إن الله نسخ هذين الحكمين.... أما الوصية بالنفقة والسكنى، فنسخت بآية الميراث فجعل لها الربع أو الثمن عوضاً عن النفقة والسكنى، ونسخت عدة الحول بأربعة أشهر وعشرا.

ومن عزة الله وقدرته أن يحول الأمم من عادات ضارة إلى عادات نافعة تقتضيها المصلحة، كتحويل العرب من عاداتهم في العدة والحداد (حيث كانوا يجعلون المرأة أسيرة ذليلة مقهورة في عقر دارها سنة كاملة)، إلى ما هو خير من ذلك، وهو إكرامها في بيت زوجها المتوفى (بين أهله)، وعدم الحجر على حريتها إذا أرادت الخروج منه، مادامت في حظيرة الشرع وآدابه.

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾(٢٤١)

الْمُتَّقِينَ: الذين يخشون عذاب الله.

المعنى: وشرعت المتعة لكل مطلقة جبراً لخاطرها، يدفع إليها بالحسنى (على قدر غنى الزوج أو فقره)، لأن ذلك مما توجبه تقوى الله ويلزم به أهل الإيمان.

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٢٤٢)

المعنى: بمثل هذه التشريعات يبين الله (سبحانه وتعالى) آياته المحكمة الواضحة المحققة للمصلحة لتتدبروها وتعملوا بما فيها من الخير، "فكما بينت لكم ما يلزمكم

لأزواجكم، ويلزم أزواجكم لكم أيها المؤمنون، وعرفتكم أحكامي، والحق الواجب لبعضكم على بعض في هذه الآيات، فكذلك أبين لكم سائر الأحكام في آياتي أنزلتها على نبيي محمد في هذا الكتاب، لتعقلوا أيها المؤمنون بي وبرسولي وحدودي، فتفهموا اللازم لكم من فرائض، وتعرفوا بذلك ما فيه صلاح دينكم ودنياكم، وعاجلكم وآجلكم، فتعملوا به، ليصبح ذات بينكم وتنالوا به الجزيل من ثوابي في معادكم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾(٢٤٣)

أَلَمْ تَرَ : استفهام تعجب وتشويق، إذ الاستفهام الحقيقي محال على الله.

حَذَرَ الْمَوْتِ: خوف الموت.

المعنى: ألم يصل إلى سمعك يا محمد (أو أيها المخاطب) حال أولئك القوم الذين خرجوا من وطنهم وهم ألوف خوفاً من الموت وفرارا منه، (والغرض من الاستفهام التعجب والتشويق إلى سماع قصتهم)، وكانوا سبعين ألفاً فأماتهم الله ثم أحياهم، وهم قوم بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خوفاً من الموت، فأماتهم الله ثمانية أيام، ثم أحياهم بدعوة نبيهم "حزقيل"، فعاشوا بعد ذلك دهراً، وقيل: هربوا من الطاعون فأماتهم الله، قال ابن كثير "وفي هذه القصة عبرة على أنه **لا يغني حذر من قدر**، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢٤٤)

المعنى: وإذا علمتم أن الفرار من الموت لا ينجي منه، فجاهدوا في سبيل الله، لا في طاعة الشيطان، وقاتلوا لتأمين دعوة الإسلام، ورفع منارة الدين، ولا تجبنوا من لقاء العدو... فهذا أمر للمؤمنين بأن يتحلوا بالشجاعة، وأن يعدوا ما استطاعوا

من قوة، ليخشى العدو بأسهم، ويرهب جانبهم، وليعلم المؤمنون علماً يقينياً أن الله سميع لما يقولون، وعليم بما يفعلون، فيجازي بالخير خيراً، وبالشر شراً.

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢٤٥)

يُقْرِضُ اللَّهَ: أي يتصدق لوجه الله، وسمي المنفق مقرضاً للحث على الإنفاق والترغيب فيه، وتأكيد الجزاء المضاعف في الدنيا والآخرة.

وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ: يقبض أي يقتر ويضيق، ويبسط أي يوسع.

المعنى: تشير الآية الكريمة إلى أن موت الأمم له سببان هما: الأول بسبب الجبن وضعف العزيمة، والثاني البخل وعدم الإنفاق، ولذا قرن الله (سبحانه وتعالى) الآية السابقة (التي تدعو وتحرض على القتال في سبيل الله)، وبهذه الآية (التي ترغب وتحبب في الإنفاق في سبيل الله)، وقد عبر الإنفاق والبذل في سبيل الله بالقرض فقال: من ذا الذي يقرض الله (الذي له خزائن السموات والأرض)، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، والله سبحانه وتعالى يوسع في الرزق لمن يشاء (مهما أنفق في سبيل الله) فإن الله يخلف عليه ويجزيه أضعاف ما أنفق، كما أن الله تعالى يضيق في الرزق على من يشاء (مهما أمسك عن الإنفاق)، فأمر المال وعرض الدنيا في قبضة يد الله، وإليه المرجع والمصير يوم القيامة حيث الحساب والجزاء، أو المرجع في هذه الحياة إلى الله (أي إلى سننه الحكيمة بالبذل في سبيل نصرة الدين وإعلاء كلمة الحق واليقين)، فإن ذلك سبيل النصر والغلبة، كما أن الإمساك والبخل من أسباب الخزلان والهزيمة والذلة والهوان بمقتضى سننه، فالرجوع إلى سنن الله أحرى بالمؤمنين.

وعلى المؤمنين ألا يهملوا الأسباب، وأن يعلموا أن الله جعل لكل شيء سببا، فالغنى بمقتضى سنة الله يكون بالعمل والسعي، مع توفيق الله وتذليل الصعاب التي تعترض العاملين.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾(٢٤٦)

الْمَلَإِ: أشراف القوم.

لِنَبِيٍّ لَّهُمُ: وهو شمويل (أو شمعون)، وهو من نسل هارون.

عسى: كلمة تفيد توقع الحصول وقرب تحققه.

وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا: وذلك أن جالوت ومن معه من العمالقة كانوا يسكنون ساحل بحر الروم (بين مصر وفلسطين) فظهروا على بني إسرائيل، فأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم.

تَوَلَّوْا: أي أعرضوا عن الجهاد.

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ: أي والله محيط بالذين ظلموا أنفسهم لمخالفتهم أمر الله بالإعراض.

المعنى: ألم ينته إلى علمك يا محمد قصة هؤلاء الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى (في عصر داود عليه السلام)، إذ قالوا لنبيهم (شمويل) أقم علينا أميرا أو حاكماً يجمع شملنا، ويوحد كلمتنا، ويقودنا تحت لوائه إعلاء لكلمة الله، واسترداداً لعزتنا واستقلالنا، فسألهم نبيهم (ليستوثق من جدهم في الأمر): هل أتوقع منكم الإحجام عن القتال والجبن عن الجهاد إن فرض عليكم القتال؟ فقالوا: أي سبب يدعونا إلى ترك القتال وقد تعرضنا لما يوجبه إيجاباً قوياً، فقد أخرجنا من ديارنا وأوطاننا، وحيل بيننا وبين أولادنا (بافتراقنا عنهم وبعد الشقة بيننا وبينهم)، فكيف لا نقدم على القتال استرداداً لما فقدناه، وانتصاراً لكرامتنا؟، فلما فرض عليهم القتال (كما طلبوا)، لم تكن نفوسهم طاهرة صادقة، ولم تكن أرواحهم أشربت نورا وإيمانا، فأعرضوا عن القتال إلا قليلاً منهم، وانتحلوا الأعذار الواهية، وهكذا شأن الأمم المتخلفة

المتخاذلة التي ترضى بالهوان وتستكين للذلة والاستعباد، ويجري الله عليهم سننه التي لا تتبدل ولا تتغير، فيحل بهم الضعف والخذلان جزاء وفاقا على ظلمهم لأنفسهم، ورضاهم بالمذلة، وقعودهم عن القتال، انتصاراً للحق ودفعاً للعار عن أنفسهم.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢٤٧)

طَالُوتَ: كان رجلاً دباغاً، وكان من سبط بنيامين بن يعقوب، واسم طالوت بالسريانية شاؤول.

المعنى: وقال لهم نبيهم شمويل: إن الله تعالى قد استجاب لكم فاختار طالوت (من سبط بنيامين بن يعقوب) ملكاً عليكم ليكونوا تحت إمرته في تدبير الحرب، قالوا معترضين على نبيهم كيف يكون ملكاً علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال وفينا من هو من أولاد الملوك فكيف يكون ملكاً علينا؟، فأجاب نبيهم بأن الله اختاره عليكم وهو أعلم بالصالح منكم، لأنه قد خصه الله تعالى بحظ وافر في أمرين مهمين لاختيار الملك، وهما العلم (ليتمكن به من معرفة أمور السياسة)، وقوة البدن (ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الشدائد)، وهو قد جمع بينهما، وأن الله تعالى يعطي الملك لمن يشاء من عباده من غير إرث أو مال، فالله واسع الفضل وعليم بمن هو أهل له فيعطيه إياه.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٢٤٨)

آيَةَ مُلْكِهِ: أي علامة ملك طالوت.

التَّابُوتُ: صندوق وضعت فيه التوراة.

فِيهِ سَكِينَةٌ : كان موسى إذا قاتل قدم التابوت، فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون.

وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ: أي قطع الألواح، وعصا موسى، وعمامة هارون.

تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ: أي تحرسه الملائكة.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً: أي أنه في مجيء التابوت لعلامة ودلالة على صدقي فيما أخبرتكم به من أن الله بعث لكم طالوت ملكا.

المعنى: كانت حرب بين الفلسطينيين وبني إسرائيل على عهد "عالي" الكاهن، وقد انتصر فيها الفلسطينيين، وأخذوا التابوت من بني إسرايل، ونكلوا بهم، فمات عالي كمداً، وكان شمويل قاضياً لبني إسرايل من بعده، وهو نبيهم الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً ففعل، وجعل رجوع التابوت إليهم آية لملك طالوت.

وقال لهم نبيهم شمويل أن من علامة عناية الله بطالوت وتوفيقه له عودة التابوت إليكم، وفي إحضاره تسكن نفوسكم وتطمئن قلوبكم، وفيه بعض الآثار، وقطع الألواح، وعصا موسى وثيابه، وعمامة هارون، وشيء من التوراة، وأشياء توارثها العلماء من أتباع موسى وهارون، حيث يأتيكم هذا التابوت تحرسه الملائكة تشريفاً وتكريماً له، وإن في ذلك لدليلاً يدفعكم إلى إتباع طالوت والرضا به إن كنتم مؤمنين.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(٢٤٩)

مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ: مختبركم بنهر كان بين فلسطين والأردن ليتبين طاعتكم.

فَلَيْسَ مِنِّي: فليس من أتباعي.

يَطْعَمْهُ: يذقه.

إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ: معناه الرخصة في اغتراف الغرفة باليد دون الشرب بالفم.

قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ: أي لا طاقة لهم بقتال جالوت وجنوده (لكثرة عددهم وجالوت أشهر أبطال الفلسطينيين أعداء لبني إسرائيل).

الفئة: جماعة من الناس.

المعنى: فلما خرج طالوت بالجيش وجاوز بيت المقدس (وكانوا ثمانين ألفا) أخذ بهم في أرض صحراء (قفره) فأصابهم حر وعطش شديد، وقال لهم إن الله مختبركم بنهر (وهو نهر الشريعة المشهور بين الأردن وفلسطين)، فمن شرب منه فلا يصحبني (وأراد بذلك أن يختبر إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوض بهم غمار الحرب)، ومن لم يشرب منه ولم يذقه فإنه من جندي الذين يقاتلون معي، إلا من اغترف قليلاً من الماء ليبل عطشه فلا بأس بذلك، فأذن لهم برشفة من الماء باليد تذهب بالعطش دون الشرب بالفم مباشرة) فشرب الجيش منه إلا فئة قليلة صبرت على العطش (حيث شرب منه ستة وسبعون ألفا وتبقى معه أربعة آلاف فقط)، ولما اجتاز طالوت النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب، ورأوا كثرة عدوهم اعتراهم الخوف فقال فريق منهم: لا قدرة لنا على قتال الأعداء مع قائد جيشهم جالوت، فنحن قلة وهم كثرة، فقال الذين يعتقدون بلقاء الله (وهم الصفوة الأخيار والعلماء الأبرار من أتباع طالوت): كثيراً ما غلبت الجماعة القليلة الجماعة الكثيرة بإرادة الله ومشيئته، فليس النصر عن كثرة العدد... وإنما النصر من عند الله، وهو معهم بالحفظ والرعاية والتأييد، ومن كان الله معه فهو منصور بعون الله.

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(٢٥٠)

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ: أي خرجوا لقتالهم.

أَفْرِغْ عَلَيْنَا: الإفراغ إخلاء الإناء بما فيه بصبه.

وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا: ثبات القدم أي عدم التزلزل عند المقاومة.

المعنى: ولما ظهر جالوت ومن معه من المؤمنين لأعدائه الفلسطينيين (جالوت وجنوده)، وشاهدوا ما هم عليه من كثرة العدد والتدريب على القتال، اتجهوا إلى الله، ضارعين إليه بثلاث دعوات تفيد إدراك أسباب النصر، فقالوا أولاً: ربنا أفضي علينا صبراً يعمنا في جمعنا وفي خاصة نفوسنا لنقوى على قتال أعدائك، والدعوة الثانية قولهم ياربنا ثبتنا في ميدان الحرب ولا تجعل للفرار سبيلاً إلى قلوبنا، والدعوة الثالثة: أنصرنا على من كفر بك وكذل رسلك (وهم جالوت وجنوده).

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾(٢٥١)

وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ: كان "**إيشا**" أبو داود في عسكر طالوت مع ستة من بنيه، وكان داود سابعهم، وهو أصغرهم، وكان يرعى الغنم، فأوحى الله إلى نبيهم (شمويل) أنه الذي يقتل جالوت، فطلبه من أبيه فجاء وقد مر في طريقه بثلاثة أحجار، فحملها في مخلاته، ورمى بها جالوت فقتله، وزوجه طالوت ابنته.

وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ: أي أعطى الله داود ملك بني إسرائيل.

وَالْحِكْمَةَ: أي النبوة.

وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ: كصنعة الدروع وكلام الدواب والطير.

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ: أي لولا أن الله تعالى يدفع بعض الناس ببعض، ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها من الحرث والنسل.

كِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ: وذلك بالدفع وإزالة الفساد.

المعنى: فاستجاب الله دعاءهم، فصبروا وثبتوا، فهزموا أعداءهم بإذن الله تعالى، وقتل داود (وهو أحد جنود طالوت) جالوت (قائد جيش الأعداء الكفار، جبار الفلسطينيين)، وقد طلب المبارزة فلم يجرؤ أحد من بني إسرائيل على مبارزته، حتى جعل طالوت مكافئة لمن يقتله أن يزوجه ابنته، ويحكمه في ملكه، فبرز له داود (وكان صغير السن، ولم يلبس درعاً، ولم يحمل سلاحاً بل حمل حجارته ومقلاعه الذي كان من عادته أن يقاتل به الذئب والأسد)، فسخر منه جالوت وقال: ما خرجت إلا كما تخرج إلى الكلب بالمقلاع والحجارة، لأبددن لحمك ولأطعمنه اليوم للطير والسباع، فرماه داود بمقلاعه فأصاب الحجر رأسه، فصرعه، ودنا منه داود فاجتز رأسه، وجاء به فألقاه بين يدي طالوت، وانهزم من كان مع جالوت... وبذلك اشتهر داود بين الناس وكان ملء السمع والبصر، وأصبح له من الشهرة والصيت ما ورث به ملك بني إسرائيل، وآتاه الله النبوة، وأنزل عليه الزبور، وعلمه صنعة الدروع، كما علمه منطق الطير، وعلوم الدين وفصل الخصومات، ولم يجتمع الملك والنبوة لأحد من قبله، حيث كان من شأنهم أن يبعث الله نبياً لهم، ويملك عليهم ملكاً يأتمر بأمر ذلك النبي، وكان نبي هذا العصر (شمويل)، وكان الملك طالوت، فلما توفيا صار لداود الملك والنبوة.

وقد بين سبحانه وتعالى: الحكمة في الأمر بالقتال الذي يستفاد من الآيات السابقة، فقال مبينا سنته في خلقه أن ينصر الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون... ولولا أن الله تعالى يسلط جنوده على المفسدين لمحو فسادهم، ويسلط الأشرار بعضهم على بعض، لما عمرت الأرض، ولكن الله دائم الإحسان والفضل

على العالمين من عباده، فكلما ظهر ظالم قيض الله له من يفتك به... وهكذا ينصر الله رسله ويؤيد المؤمنين.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢٥٢)

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ: إشارة إلى القصص التي قصها من أنباء الأولين السابقين من الألوف، وشأن إماته الله لهم ثم إحيائهم، وتمليك طالوت، وإتيان التابوت، وانهزام الجبابرة، وقتل داود جالوت.

المعنى: ما قصصنا عليك يا محمد من الأمور الغريبة والقصص العجيبة (التي وقعت في بني إسرايل) هي من آيات الله وإخباره الغيبية التي أوحاها إليك بالحق بواسطة جبريل الأمين، وذلك من حديث الألوف الذين خرجوا من ديارهم، وتمليك طالوت، وإتيان التابوت، وانهزام الجبابرة، وقتل داود جالوت، هي آيات الله نقصها عليك يا محمد على وجه لا يشك فيه أهل الكتاب (فيه يجدونه مطابقاً لما جاء في كتبهم) وإنك يا محمد لمن المرسلين (كما دلت عليه هذه الآيات) وهي دليل صدق رسالتك، ولتعلم أننا سننصرك كما نصرنا من المرسلين، وإنك رسول الله حقاً وخاتم النبيين.

الجزء الثالث

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(٢٥٣)

تِلْكَ الرُّسُلُ: إشارة إلى الرسل الذين وردت أسماؤهم وأبناءهم في القرآن.

فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ: أي فضلنا بعضهم على بعض بالخصائص والمعجزات.

مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ: وهو موسى (عليه السلام) كلمة الله في الطور بسيناء.

وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ: وهو محمد (صلوات الله وسلامه عليه).

الْبَيِّنَاتِ: أي المعجزات الظاهرة (مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك).

وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ: وقويناه بالروح المقدسة، والمراد جبريل.

مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ: المعجزات الواضحة.

المعنى: هؤلاء الرسل (الذين وردت أسماؤهم وأنباؤهم في القرآن) فضلنا بعضهم على بعض في مراتب الكمال، وقد سوى الله بينهم في الرسالة، وهم جديرون أن يقتدي بهم ويهتدي بهديهم (فكلهم سواء في هداية الخلق والعصمة من الزلل فلا ينطقون عن هوى، وإنما يقولون ويفعلون بوحي يوحى إليهم من الله)، لكن الله فضل بعضهم على بعض بالخصائص والمعجزات، وجعلهم متفاوتين بخصائص في أنفسهم وفي شرائعهم وأممهم، فجعل منهم أولى العزم من الرسل الذين ثبتوا وصبروا على أمر الله فيما عهد إليهم فيه (وهم نوح وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام)، كما اتخذ الله إبراهيم خليلا، ورفع إدريس مكاناً علياً، وكلم موسى (عليه السلام) في الطور بسيناء من غير سفير، ورفع محمد (ﷺ) على سائر الرسل (المتفاوتين في معارج الفضل) درجات عالية، فختم به النبيين، وأرسله رحمة للعالمين، وأنزل عليه القرآن المعجزة الباقية الخالدة على مر الزمان حتى قيام الساعة، ودون سائر المعجزات والبينات، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

كما خص عيسى (عليه السلام) بالمعجزات الظاهرة (مثل كلامه في المهد، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص، والإخبار بما يأكل الناس وما يدخرون، وقواه بجبريل روح القدس تأييداً لرسالته، وإنما خص عيسى بهذه الأوصاف

لاختلاف اليهود والنصارى فيه... فاليهود حطت من شأنه واتهمت أمه بما لا يليق، والنصارى رفعته إلى درجة الألوهية، ولقد أرسل الله الرسل إلى الأمم بالبينات والمعجزات الدالة على صدق رسالتهم، فاختلفت الأمم في إتباعهم، ولو شاء الله عدم اختلاف الأمم ما اختلفوا (بأن جعلهم متفقين على إتباع الرسل الذين جاءوا بالحق من ربهم)، بيد أن الخلاف استشرى بينهم... فمنهم من آمن بما جاء به الرسل... ومنهم من كفر بذلك كفرانا لا أمل معه في هداية.

ولو أراد الله لهدى الناس جميعاً إلى إتباع الرسل (فلم يختلفوا ولم يقتتلوا)، ولكن إرادته اقتضت (لحكمه يعلمها هو في نظام الكون) أن يختلفوا بمشيئته هو في أمر الرسل، فلم يجتمع لأحد منهم طاعة جميع أمته، فمنهم من آمن بما جاء به الرسل، وعمل بموجبه، ومنهم من خالفه كفراً وطغياناً، والله غالب على أمره لا راد لقضائه، فإن أراد التوفيق لبعض عباده أمن به وأطاعه، وإن أراد الخذلان لبعض آخر كفر به وعصاه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٢٥٤)

أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ : المراد بهذا الإنفاق الزكاة الواجبة.

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ: المراد يوم القيامة.

خُلَّةٌ: صداقة.

شَفَاعَةٌ: وسيلة لجلب خير أو دفع ضرر.

وَالْكَافِرُونَ: المراد بهم تاركو الزكاة.

هُمُ الظَّالِمُونَ: هم الذين وضعوا المال في غير موضعه وصرفوه في غير وجهه.

المعنى: ينادي الله عباده المؤمنين آمرا لهم بالإنفاق مما رزقهم، لأن الإنفاق في سبيل البر هو الذي ينجيكم يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا ينجي فيه الأشحة البخلاء من عذاب الله فداء يفتدون به أنفسهم، ولا توجد شفاعة يؤثر بها الشفيع فيما

أراده الله، فبادروا إلى الإنفاق في سبيل الله مما تناله أيديكم ابتغاء مرضاة الله وطلباً لرضوانه قبل أن يأتيكم يوم الحساب والجزاء، يوم لا ينفعهم فيه مال ولا بنون، ولا يستدركون فيه ما فاتهم ببيع أو شراء، ولا تجدى صداقة الأصدقاء، أو خلة الأخلاء، أو شفاعة الشافعين لمن يبخلون، فكل امرئ بما كسب رهين.

والتاركون للزكاة هم الذين ظلموا أنفسهم (حيث وضعوا المال في غير موضعه وصرفوه في غير مصرفه)، والكافرون بنعم الله الجاحدون حقوق المال المشروعة هم الظالمون لأنفسهم، وهم الذين يمهدون للأفكار الخبيثة والمذاهب الهدامة، ولا ينفقون في سبيل الله، حيث قال الرسول (ﷺ) "حصنوا أموالكم بالزكاة". وفي الآية حث للمسلمين على بذل المال والنفس دفاعاً عن الدين والوطن.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾(٢٥٥)

الْحَيُّ: الباقي الذي لا يموت.

الْقَيُّومُ: الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه.

سِنَةٌ: هي فتور يتقدم النوم ويسمى نعاساً.

مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ: ليس لأحد أن يشفع عنده إلا بإذنه.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ: يعلم ما حدث قبلهم وما حدث بعدهم، أو يعلم أمور الدنيا وأمور الآخرة، أو يعلم ما فعلوه وما هم فاعلوه.

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ: هذا تمثيل لعظمة شأنه وسعة سلطانه، وكمال علمه وقدرته.

وَلَا يَئُودُهُ: لا يثقله ولا يشق عليه.

حِفْظُهُمَا: حفظ السموات والأرض.

وَهُوَ الْعَلِيُّ: المتعالي عن الأنداد والأشباه.

الْعَظِيمُ: ذو العظمة والكبرياء الذي لا شيء أعظم منه.

المعنى: الله جل جلاله هو الواحد الأحد الفرد الصمد، ذو الحياة الكاملة، الباقي الدائم الذي لا يموت، والقائم على تدبير شئون الخلق بالرعاية والحفظ والتدبير، ولا يأخذه نعاس ولا نوم، وجميع ما في السموات والأرض ملكه وعبيده وتحت قهره وسلطانه، ولا أحد يستطيع أن يشفع لأحد إلا إذا أذن له الله تعالى، وهذا بيان لعظمته وجلاله وكبريائه بحيث لا يتجاسر أحد على الشفاعة إلا بإذن المولى، وأمره لمن اصطفاهم من عباده (من الملائكة والرسل والأولياء الصالحين) لأن علمه الواسع أحاط بكل شيء.

وهو سبحانه يعلم أمور الدنيا التي خلفوها، وأمور الآخرة التي يستقبلونها ووسع ملكه وعلمه وقدرته جميع السموات والأرض، فقام على تدبيرها بسلطان وحكمة وقوة، ونسبة الكرسي له تعالى، تصوير لعظمة ملكه وعلمه وقدرته، كما أن كرسي الملك رمز السلطان والحكم والقوة، وقيل هو من المتشابه الذي يفوض العلم فيه إلى الله تعالى، مع كمال تنزيهه تعالى عن الجسمية.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢٥٦)

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ: لا إكراه في دخول الإسلام، ولا يقهر الناس على اعتناقه.

قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ: قد ظهر الإيمان من الكفر واستبان الهدى من الضلال.

بِالطَّاغُوتِ: بالشيطان أو بالأصنام، والطاغوت من الطغيان، وهو مجاوزة الحد في الشيء.

بِالْعُرْوَةِ: بالمقبض الذي يمسك به أو الشيء الذي يتعلق به.

الْوُثْقَى: الوثيقة أو المتينة.

لَا انفِصَامَ لَهَا: لا انقطاع لها.

سبب نزول الآية:

كان رجل من الأنصار (من بني سالم بن عوف) يقال له الحصين وكان له إبنان تنصرا على أيدي تجار قدموا من الشام يحملون زبيباً، فلما عزما على الذهاب معهم، أراد أبوهما أن يستكرههما ليعودا إلى الإسلام وطلب ذلك من الرسول فنزلت هذه الآية.

المعنى: لا إجبار ولا إكراه لأحد على الدخول في دين الإسلام، فقد بان ووضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وبراهينه لا تحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره، ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها، ومن خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان (من عبادة كل ما يعبد من دون الله)، ووحد الله فعبده وحده، وشهد أن لا إله إلا هو فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنقسم (وهي في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوى شديد)، والله سميع لأقوال عباده، وعليم بأفعالهم.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٢٥٧)

وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا: معينهم ومتولي أمورهم.

الظُّلُمَاتِ: المعاصي والكفر والشبه.

النُّورِ: نور الهداية والطاعة والحق.

أَصْحَابُ النَّارِ: الملازمون للنار بسبب ما اقترفوا من جرائم.

المعنـى: الله ناصر المؤمنين وحافظهم ومتولي أمورهم، يخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهداية، وأما الكافرون فأولياؤهم الشياطين يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك والضلال، وهم الملازمون للنار يكتوون بحرها ويتلظون بسعيرها وهم فيها خالدون.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(٢٥٨)

الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ: أي الذي جادل إبراهيم وعارضه في ربوبية الله، وهو النمرود بن كنعان الذي كان ملكاً.

أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ: بأن جعله الله ملكا فاستكبر وبطر.

المعنى: ألم ينته إلى علمك يا محمد أمر النمرود بن كنعان الذي ركبه البطر والطغيان بعد أن أعطاه الله الملك والسلطان، كيف تصدى لإضلال الناس، وإخراجهم من النور إلى الظلمات؟، وكيف أنه جادل إبراهيم في ربوبية الله ضلالاً وكفرا؟ وكيف أنه لما عرف أن إبراهيم كسر الأصنام سجنه، ثم أخرجه من السجن ليحرقه؟ فسأله: من ربك الذي تدعو إليه؟ فقال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت (أي يخلق الحياة وينزعها من الأجساد) فهو المتصرف فيك وفي أشباهك، بما لا تقدر عليه أنت ولا أشباهك، فقال الملك: أنا مثل ربك في ذلك، ودعا برجلين، فقتل أحدهما وأطلق الآخر وقال هاأنذا أحيي وأميت، فلما عرف إبراهيم حماقته وضلاله، أراد أن يفحمه بدليل لا يقبل الجدل والتمويه، وتحول من مثال خفي إلى مثال جلي فقال: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب إن كان لك مثل قدرة الله، فأفحمه إبراهيم وقطع عليه حجته، وبهت الذي كفر ولم يستطع أن يقول: أنا

آتي بها من المغرب (كما قال أنا أحيي وأميت، لأن أصحاب العقول يكذبونه)، أوضح الله كيف وفق إبراهيم في قضيته وتولاه بولايته إلى الحجج الواضحة (التي أزال بها تلك الشبهات) التي عرضها عليه خصمه حتى فاز عليه وأبطل دعواه، وأن الذي حاجه كيف عمى عن نور الحق وتردى في مهاوى الهلاك.

والله لا يهدي من أعرض عن قبول الهداية، ولا ينظر في الدلال التي توصل إلى معرفة الحق ويستسلم للشيطان وأولياء الباطل، ويترك ما أعطاه الله من الفهم والإدراك السليم، إتباعاً لهواه وشهواته التي تزين له ما هو فيه، وهو ظالم لنفسه.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢٥٩)

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ: هو عزير بن شرخيا أراد أن يعاين أحياء الموتى ليزداد بصيره (كما طلبه إبراهيم عليه السلام)، والقرية هي بيت المقدس حين خربه بختنصر، وقيل هي التي أهلك أهلها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف.

خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا: أي خالية وساقطة حيطانها على سقوفها.

أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا: كيف يحيى الله أهل هذه القرية ويعيد لها العمران بعد موتها وخرابها.

ثُمَّ بَعَثَهُ: أي ثم أحياه.

قَالَ كَمْ لَبِثْتَ: قال له ملك من عند الله: كم سنة مكثت ميتا؟

لَمْ يَتَسَنَّهْ: لم تغيره السنون ويفسد.

وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ: ولتعتبر أنت، ولتكون آية للناس على البعث ودليلاً على قدرة الله.

وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ: عظام حماره.

كَيْفَ نُنشِزُهَا: أي نرفع بعضها غلى بعض ونردها إلى أماكنها من الجسد.

فَلَمَّا تَبَيَّنَ: فلما ظهرت له قدرة الله على أنه يحيي ويميت.

قصة عزير:

هذه القصة مثل أخر لمن أراد الله هدايته، فلما جاوز بنو إسرائيل الحد في الفساد والبغي سلط عليهم "بختنصر" ملك بابل فسار إليهم في جيش كبير ودخل بيت المقدس وخربه سنة ٥٨٦ قبل الميلاد، وقتل منهم جمعاً كبيراً، وأسر وشرد حشودا عظيمة، وكان عزير (وهو رجل صالح) فيمن شردوا، وعاد إلى بيت المقدس بعد خرابها، ومر عليها راكباً حماره ومعه طعامه (من التين والعنب والعصير مما يسري عليه الفساد سريعا)، فلما رآها على هذا النحو من الخراب (وهي خاوية على عروشها، ساقطة حيطانها على سقوفها)، فقال متحسراً: أنى يحيى الله أهل هذه القرية ويعيد لها العمران بعد خرابها؟... فضرب الله له المثل في نفسه ليعاين قدرته على كل شيء، فأماته الله مائة عام، وأمات حماره، وأبقى طعامه بجواره، وفي أثناء موته وجه الله ملكاً عظيماً من ملوك فارس إلى بيت المقدس، فأعاد عمارتها وبناءها (بعد أن استمرت خراباً سبعين سنة)، وأعاد إليها سكانها المشردين، ودبت فيها الحياة والعمران، فلما انقضت المائة سنة من موت عزير بعثه الله وأحياه كهيئة يوم موته، ووجه إليه ملكا، فسأله (ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشئونه تعالى): كم لبثت؟... فقال عزير على التخمين والظن: مكثت يوما، ثم نظر فوجد أن الشمس لم تغرب فقال: أو بعض يوم، فقال له الملك: بل لبثت مائة عام في موتك، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتغير شيء فيهما طول هذه الفترة الزمنية الطويلة، وهذا حمارك انظر كيف نخرت عظامه، وتفرقت أجزاءه ليتضح لك المكث الطويل، لتعتبر في نفسك، ولنجعلك عبرة وآية للناس من قومك (حين ترجع إليهم في بيت المقدس)، ثم انظر إلى عظام حمارك (التي أريناكها نخره بالية) كيف نجمع أمامك أوصالها،

ونردها إلى أماكنها من الجسد، ثم نكسوها لحما، ثم نعيد إليه الحياة أمامك، لتشاهد بعينيك كيف نقدر على إحياء غيرك، كما علمت كيف أعدنا الحياة إليك بعد موتك؟... فلما تجلت له قدرة الله، وتبين له كيف أعاد الله الحياة لميت أمامه قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير، لا يشق عليه أمر، ولا يستعصى عليه شأن.

وروى أنه ركب حماره، وأتى محلته، فأنكر الناس، وأنكره الناس حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة (قد أدركت زمن عزير) فقال لها: يا هذه، أهذا منزل عزير؟ قالت: نعم، وأين عزير لقد فقدناه وأنا في شرخ الصبا، فقال لها: أنا عزير فأنكرت عليه قوله، وقالت: إن عزير كان مستجاب الدعاء، فإن كنت عزيرا هذا فادع الله أن يرد بصري، فدعا ربه، ومسح على عينيها، فارتدت بصيرة، ورأت عزيرا كما فارقها منذ مائة عام، وأخذ بيدها وقال لها: قومي بإذن الله، فقامت صحيحة معافاة فأسرعت إلى بني إسرائيل، وأخبرتهم خبره، فاجتمعوا إليه، وقرأ عليهم التوراة عن ظهر قلب،... فضلوا وقالوا: عزير ابن الله... تنزه الله عما يقولون.... وهذه القصة تدل أيضاً على البعث والنشور.

المعنى: أرأيت يا محمد مثل الذي مر على قرية (وهي خاوية على عروشها)، فتعجب منها (لأن حالها بلغت من الغرابة حداً كبيرا)، فقال: متشوقاً لعمارتها "كيف يعمر الله هذه القرية بعد خرابها وتشرد أهلها وتفرقهم؟... فربط حماره بجواره ونام... فأماته الله مائة عام، ثم بعثه (حتى كأنه كان نائماً ثم استيقظ) وقيل له كم وقتا لبثته؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم (على سبيل الظن والتخمين)، فقيل له: بل لبثت مائة عام فانظر لترى دلائل قدرتنا... انظر إلى طعامك وشرابك (من التين والعنب والعصير) الذي بقى مائة عام لم يتغير ولم يفسد (مع سرعة قابليته للفساد)، وانظر إلى حمارك كيف نخرت عظامه وتقطعت أوصاله لترى كيف تطاول الزمن عليك وعليه وأنت نائم.

والقصد من السؤال إظهار عجز عزير عن الإحاطة بشئون الله القادر على كل شيء، وليطلع أثناء ذلك على بدائع قدرته بإبقاء الطعام والشراب (الذي حصنه الله)

فلم يتطرق إليه الفساد مع المكث الطويل، وليعلمه أن إحياءه كان بعد زمن طويل، وبذا يزول من نفسه الاستبعاد الذي خطر على باله أولا.... فعلنا ذلك لتعاين آثار قدرة الله من الإحياء، ولنجعلك آية دالة على تمام قدرتنا على البعث يوم القيامة... وانظر إلى عظام حمارك النخرة كيف نجمعها ونرفع بعضها إلى بعض ونردها إلى أماكنها من الجسد، ثم لنحكم ربطها وتركيبها، ثم نكسوها لحما ونعيد لها الحياة... فلما تبين له أن الله (سبحانه وتعالى) قد أعاد الحياة إلى القرية وإلى حماره، وبعثه بعد أن أماته مائة عام، وحفظ طعامه (دون أن يتسنه أو يتطرق إليه الفساد)، تيقن أن القادر على هذا قادر على الإحياء والبعث والنشور، وأنه سيبعث الموتى يوم القيامة، وأنه (سبحانه) على كل شيء قدير، لا يستعصى عليه أمر من الأمور.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢٦٠)

فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ: أي ضمهن إليك.

سَعْيًا: مسرعات طيرانا ومشيا.

عَزِيزٌ: قوي أو غالب على أمره.

حَكِيمٌ: أي جعل أن الإعادة وفق حكمة التكوين.

المعنى: هذه هي القصة الثالثة وفيها الدليل الحسي على الإعادة بعد الفناء، فقد كان إبراهيم (عليه السلام) مؤمنا بوحدانية الله وقدرته، وعلى يقين بأن الله يحيي ويميت فلم يسأل عن الإحياء والإماتة (لأن إيمانه بهما مقرر ومؤكد به)، لكنه سأل عن كيفية الإحياء، فسأل الله (تعالى) أن يريه ذلك عياناً ليتأيد اليقين بالعيان ويظاهر الاطمئنان الإيمان... ولا غرابة في ذلك... فكثير منا على علم بكثير من الابتكارات الحديثة (كالصاروخ، وسفينة الفضاء وتفتت الذرة وخلافه)، وتتطلع نفسه

إلى كيفية عمل هذه المبتكرات وكيفية تركيبها... أليس مما يشتاق إليه إبراهيم (عليه السلام) وقد اتخذه الله خليلا، أن يسأل الله أن يريه آية من قدرته ليظاهر الاطمئنان الإيمان ويقرن اليقين بالعيان...؟... فبعد أن طلب إبراهيم من ربه أن يطلعه على كيفية إحياء الموتى، أمره ربه أن يأخذ أربعة من الطير قيل (طاووس، وغراب، وحمامة، وديكا)، فيقطعن أجزاء، ثم يفرقها على عدة جبال، ثم يدعوها فتجيبه مسرعة (حيث الطير أشد الحيوانات نفورا وخوفا من الإنسان غالبا)، وقد فعل إبراهيم ذلك فأتين إليه ساعيات كما كانت.... وهكذا يحيي الله الموتى... وإعلم أن الله عزيز غالب على أمره، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، حكيم فيما يفعل وفيما يذر.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢٦١)

فِي سَبِيلِ اللَّهِ: في أنواع الخبر والجهاد وما يوصل إلى مرضاة الله تعالى.

أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ : أي أخرجت ساقا تشعب منها سبعة أفرع وبكل فرع سنبلة.

وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ: أي يزيد أضعافا من الخير والثواب لمن يشاء على حسب إخلاصه ونيته.

وَاسِعٌ: أي يزيد من يشاء من خلقه المنفقين في سبيله على أضعاف السبعمائة.

عَلِيمٌ: بمن يستحق منهم الزيادة.

سبب نزول الآية:

نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف في غزوة تبوك، حيث جهز عثمان ألف بعير بأحلاسها وأقتابها، ووضع بين الرسول (ﷺ) ألف دينار، فصار الرسول يقلبها ويقول: "ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم"، وأتى عبد الرحمن بن عوف الرسول بأربعة آلاف درهم فقال يا رسول الله: كانت عندي ثمانية

آلاف درهم فأمسكت منها لنفسي ولعيالي أربعة آلاف وأربعة آلاف أقرضتها ربي، فقال له الرسول "بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت"، وسمي جيش غزوة تبوك هذه **جيش العسرة** لأن النبي ندب الناس إلى الغزو في شدة القيظ، وكان وقت إيناع الثمر وطيب الظلال فعسر ذلك عليهم وشق أن يتركوا جني الثمار ويذهبوا إلى الجهاد والحرب، فنزلت هذه الآية.

المعنى: مثل الذين ينفقون المال في سبيل الخير والجهاد والصالح العام وكل ما يوصل إلى مرضاة الله وحسن مثوبته، كمن يزرع حبة (مثل القمح) فتنبت سبع سنابل (حيث تخرج ساقا تتشعب منه سبع فروع، وفي كل فرع سنبلة) وفي كل سنبلة مائة حبة، فتكون الحبة الوحدة التي زرعت قد أغلت سبعمائة حبة، وكذلك الحسنة بعشر أمثالها وإلى سبعمائة ضعف وهذا تصوير وتمثيل للمضاعفة والإضافة في الزيادة والأجر، فيضاعف الله هذه المضاعفة أو أكثر منها لأنه هو الواسع الفضل الغني بذاته العليم بكل شيء، لا يغرب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢٦٢)

مَنًّا: المن أن يعتد على المنعم عليه بالعطاء، ويفخر عليه بالإحسان، ويستوجب بذلك حقاً عليه.

وَلا أَذًى: الأذى أن يتطاول عليه بسبب إحسانه إليه.

وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ: لا يخافون في الدنيا والآخرة.

وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ: لا يشعرون بالحزن على فوات أي مطلب فاتهم من مطالب الدنيا والآخرة.

المعنى: الذين ينفقون أموالهم في وجوه الخبر والمصلحة العامة يبتغون بذلك مرضاة ربهم ولا ينتظرون ممن أحسنوا إليهم جزاء، ولا يبتغون الإنفاق منا عليهم أو ضرراً بهم، فلا يتطاولون عليهم بسبب الإحسان إليهم، هؤلاء المنفقون في سبيل الله

(الذين لم يمنعوا ولم يؤذوا أحدا) لهم الجزاء الأوفى عند ربهم، ولا هم يحزنون وقت أن يحزن الباخلون ويندمون على إمساكهم، فيقول الواحد منهم حينما يأتيه الموت ﴿رَبِّ لولا أخرتني إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصالحين﴾ سورة المنافقون/١٠.

وقد شرع الدين الإسلامي الصدقات لتقوية الصلات بين الناس، والحد من التفاوت في الدخول والثروات، وتخفيف حدة الحقد والحسد بين الطبقات، والمن والأذى يخرجها عن وضعها الصحيح.

﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾(٢٦٣)

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ: كلام حسن ورد جميل على الفقير السائل.

وَمَغْفِرَةٌ: وعفو وستر لما وقع من السائل مما ينقل على المسئول.

خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى: أي رد السائل بالتي هي أحسن والصفح عن إلحاحه خير عند الله وأفضل من إعطائه ثم إيذائه أو تعييره بذل السؤال.

المعنى: إن كلمة طيبة ورد حسن وجميل على الفقير السائل، وستر لما وقع منه من الإلحاف في السؤال... هذا الرد الجميل مع عدم الإعطاء للسائل، هو خير عند الله وله جزاء وثواب، أما الصدقة التي يتبعها أذى فهي مشوبة بضرر ما يتبعها من الإيذاء، ومن أذى فقد بغض نفسه إلى الناس، وقد قررت هذه الآية مبدأً عاماً في الشريعة وهو "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح"، فقد دلت على أن الخير لا يكون طريقاً إلى الشر، وعلى أن الأعمال الصالحة يجب أن تكون خالية من الشوائب التي تفسدها وتذهب بفائدتها كلها أو بعضها، وعلى أن من عجز عن نوع من أنواع البر فعليه أن يجتهد في إحسان عمل آخر يؤدي إلى مثل غايته، فمن شق عليه أن يتصدق ولا يمن ولا يؤذي، فعليه أن يسر قلب الفقير بقول معروف، ويهون عليه ذل السؤال بكلمة طيبة.

والله سبحانه وتعالى غني عن صدقة يتبعها أذى أو تعيير، لأنه لا يقبل إلا الطيبات، وهو جل شأنه حليم فلا يعجل بالعقوبة لمن عصاه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٢٦٤)

لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم: لا تحبطوا أجرها ولا تضيعوا ثوابها.

رِئَاءَ النَّاسِ: مراءاه وسمعه.

صَفْوَانٍ: حجر كبير أملس.

وَابِلٌ : مطر شديد.

صَلْدًا: أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلا.

لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا: لا ينتفعون بشيء مما أنفقوا رياء ونفاقا، ولا يجدون له ثوابا.

وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ: أي والله لا يوفق الكافرين إلى سبيل الإرشاد.

المعنى: يا أيها الذين آمنوا لا تحبطوا أجر صدقاتكم بالمن والأذى مثل المرائي الذي يبطل إنفاقه بالرياء، ولا يصدق بلقاء الله ليرجو ثوابا أو يخشى عقابا، فمثل ذلك المرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب يظنه الظان أرضا طيبة منبتة للزرع، فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراث فيظهر على حقيقته صلداً أملس ليس عليه شيء من التراث أصلا، كذلك هذا المنافق يظن أن له أعمالاً صالحة، فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت ولا يجد لها ثوابا في الآخرة، ولا ينتفع بشيء منها أصلا.... والله لا يهدي هؤلاء إلى طريق الخير والرشاد، وإذ يفتقرون إلى الإيمان الذي يهدي قلوبهم إلى الإخلاص.

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٢٦٥)

وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ: أي وأنفسهم موقنة ومصدقة لوعد الله بالثواب.

كَمَثَلِ جَنَّةٍ: مثل إنفاق هؤلاء كمثل بستان.

وَابِلٌ: مطر غزير.

فَطَلٌّ: المطر الخفيف، وهو الماء المترسب من بخار الماء في الجو بدرجة أقل من المطر.

المعنى: لما بين الله (سبحانه وتعالى) مثل المنفقين رياء وسمعة، أتبعه بمثل المنفقين إخلاصاً لله فقال: مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتصديقاً بلقائه وتحقيقا للثواب عليه، كمثل بستان كثير الشجر بمكان مرتفع من الأرض، فإذا أصابها مطر غزير أخرجت ثمارها ضعفي ثمر غيرها من الأرض، وإن لم ينزل عليها المطر الغزير، فيكفيها المطر الخفيف أو الندى (لجودتها ولطافة هوائها) فهي تنتج على كل حال، والله لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد.

توضيح علمي لهذه الآية: هذه الآية تشير إلى عدة حقائق علمية وهي:

١- **اختيار موضع إنشاء الحديقة:** حيث تشير إلى مراعاة اختيار إنشاء الحديقة على مكان مرتفع من سطح الأرض (بربوة)، وذلك لضمان انخفاض مستوى الماء الأرضي بها، ووجود تهوية جيدة وإضاءة للحصول على إنتاج مرتفع.

٢- **زيادة خصوبة الأراضي ذات مستوى الماء الأرضي المنخفض:** حيث يشجع ذلك النباتات والأشجار على زيادة نمو شعيراتها الجذرية وتشعبها وعمقها في التربة، مما تعطي الحديقة إنتاج مضاعف.

٣- استخدام طريقة الري بالرش (الطريقة الحديثة للري في الزراعة) فقد أوردت الآية طريقة الري للأرض من الأمطار مباشرة، سواء بالمطر الغزير (الوابل)، أو بالمطر الخفيف (الرذاذ أو الطل أو الندى)، ولقد كشف لنا العلم الحديث إلى أنه يوجد بالجو بعض العناصر (مثل النتروجين وخلافه) التي يحتاجها النبات في غذائه، والتي تذوب في مياه الأمطار أثناء سقوطها (وبخاصة المطر الغزير الوابل) الذي يذيب جزئيات دقيقة من الحديد لتكوين الكلوروفيل في النبات، كما يحتوي المطر على محتويات نشادرية وأحماض النيتريك والنيتروز والفوسفوريك ومجموعات أخرى (بالإضافة إلى النتروجين والأكسجين بصفة خاصة)، ومما يستفيد منها النبات والأشجار وتعطي إنتاج مضاعف (بعكس لو كان يروي من الأنهار والترع أو ري بالغمر) كانت المياه تذيب هذه العناصر وتتسرب إلى أسفل التربة فلا يستفيد منها النبات والأشجار، علاوة على أن المطر الغزير (الوابل) يغسل الأشجار وينظفها من الأتربة وخلافه.

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢٦٦)

إِعْصَارٌ: الإعصار هو الريح الشديدة التي تهب على الأرض وتكون على درجة مرتفعة من الحرارة والسرعة بحيث تبيد النبات والحرث وتسبب الدمار السريع الخاطف.

المعنى: في هذه الآية يضرب الله مثلا لمن ينفق في سبيل الشيطان ومرضاة لنفسه وهواه، وذلك كمثل شيخ كبير له بستان فيه من كل الثمرات (مثل أشجار النخل والعنب وخلافه)، وتجري من تحت أشجارها الأنهار فتسقيها ماء غدقا (أي ري بالراحة، وبدون تعب)، وقد علق بها آماله، ورجى أن ينتفع بها عياله، وقد أصابه الكبر وأقعده عن العمل والسعي، وله أولاد صغار لا قدرة لهم على الكسب

ولا مورد لهم غير هذا البستان،... وبينما هو على تلك الحال إذا ببستانه قد أصابه إعصار شديد فأحرقه (بما فيه من نار)، وبقى هو وأولاده لا يدرون ماذا يفعلون.

وهكذا حال من يتصدق ويتبع صدقته بالمن والأذى، يبطل الله عمله ويأتي يوم القيامة وهو أشد ما يكون حاجة إلى ثواب ما بذل، لكنه يجد إعصار الرياء والتعبير والإيذاء قد أبطل ما فعل من بر، وما تقدم من خير، وجعله هباء منثورا، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق رياء نادما متحسرا.

توضيح علمي لهذه الآية:

هذه الآية أشارت إلى:

١- أهمية اختيار موقع إنشاء الحديقة في مكان مرتفع نوعا، وأن الأنهار تجري من تحتها (أي الأنهار منخفضة عن الحديقة حيث مستوى الماء الأرضي بها منخفض)، وبذلك تكون هذه الحديقة جيدة الصرف، بالإضافة إلى أن الموقع جيد التهوية، ويحمي الأشجار من الرياح وخلافه، فتعطي الحديقة إنتاجاً مضاعفاً.

٢- كما تحدثت الآية الشريفة عن نخيل البلح، فقد يكون البلح ناضجاْ أو رطباً أو تمرا، وقد يؤكل كما هو، أو في شكل عجزة (منزوع منها النواة)، أما البلح الجاف فقد يؤكل كما هو، أو ينقع مع الزبيب والسكر ويؤكل كخشاف لذيذ، وتعم فائدته بإضافة الحليب إليه، وعموماً أهم الفوائد الغذائية والصحية للبلح ما يلي:

أ - البلح مغذ للناقهين والنساء والحوامل والأطفال والعمال، كما أنه ينشط ومقو للجهاز الهضمي، ومرطب للأمعاء، ومانع للكسل والتراخي خصوصاً عند الصائمين.

ب - مقو للرؤية، ويحفظ رطوبة العين وبريقها، ويمنع الدوخة وزغللة العين.

جـ - مقو للعضلات والأعصاب، وملين للأوعية الدموية، ومؤخر لمرض الشيخوخة، ومنشط للغدة الدرقية، ومهدئ للأعصاب، ومدر للبول وملين.

د – يستعمل مغلياً في علاج الالتهابات، ويوقف النزيف الدموي الذي يتسبب عن البواسير والتهاب اللثة. هذا مع مراعاة عدم أكل البلح الرطب لمرضى القولون.

٣– كما تحدثت الآية الشريفة عن العنب، وهو فاكهة محببة عند الجميع، لذيذة الطعم وحلوة المذاق، وله دور فعال في بناء الجسم وتقويته وترميم أنسجته، وعلاج الكثير من أمراضه، ومن أهم فوائده:

أ – مفيد في تنقية الدم ومرطب ومنشط لعملية الهضم.

ب – يساعد على تنشيط الحركة الدورية للأمعاء، فيتخلص الجسم من النفايات، وبذلك يقي الجسم من البواسير وحالات سوء الهضم.

جـ – منشط للأعصاب والعضلات، ومجدد للخلايا، ومفيد في حالات نقص الغذاء وفقر الدم، والإرهاق والهزال وضعف العظام.

د – مفيد في علاج الأمراض الصدرية والبرد والسعال، ومخفف لاضطرابات الكبد والطحال.

هـ – يقلل من ارتفاع ضغط الدم، كما يقلل من الحصوات البولية، ويعالج النقرس وخلافه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(٢٦٧)

طَيِّبَاتِ: الطيب هو الجيد المستطاب.

وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ: ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحب والثمرات والمعادن وخلافه.

وَلَا تَيَمَّمُوا: ولا تقصدوا.

وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ: بقابليه.

إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ: تغمضوا أي تتساهلوا وتتسامحوا (من قولهم فلان أغمض عن بعض حقه إذا غض بصره).

أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ: الله غني إنفاقكم، وإنما يأمركم به لانتفاعكم.

حَمِيدٌ: مستحق الحمد على نعمه وآلائه، وهو محمود في أفعاله.

سبب نزول الآية:

روى أن بعض المسلمين كان يجيء بسباطة بلح النخل ويعلقه في المسجد ليأكل منه المحتاج، وكان في بعض السباطة يوجد بها حشف وشيص (أي بلح غير جيد)، وبلح ردئ، وهم يرون أن ذلك جائز، وأن صدقتهم مقبوله، فنزلت هذه الآية.

المعنى: يأمركم الله (سبحانه وتعالى) أيها المؤمنون أن تخرجوا صدقاتكم من أجود ما كسبتموه من حلال، ومن خير ما تخرجونه من الأرض (من الحبوب، والثمار والمعادن، ومن السلع بأنواعها المختلفة)، وينهاكم الله أن تنفقوا رديء ما عندكم، وخبيث ما لديكم، فإنكم لا تقبلون أن تأخذوا هذا الرديء في حقوقكم، أو ديونكم التي لكم عند الناس... فلستم ترضون مثل هذا الرديء لأنفسكم إلا أن تتساهلوا فيه تساهل من أغمض عينيه لم ير العيب فيه، ولن يرضى ذلك أحد لنفسه إلا وهو يرى أنه مغبون الحق... ألا تعلموا أن الله وسع عليكم من فضله غنى عن صدقاتكم التي تقدمونها من الرديء الخبيث، ولن يقبلها الله منكم للفقراء، وهو سبحانه مستحق للحمد والثناء على آلائه وأفعاله، فعليكم أن تعترفوا بفضله عليكم فتنفقوا مما تحبون.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢٦٨)

يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ: أي يخوفكم من الفقر في الإنفاق.

وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ: ويغريكم بالبخل.

مَّغْفِرَةً: الصفح عن الذنب.

وَفَضْلًا: الفضل (الكثير من المال والخير والرزق وخلافه).

وَاسِعٌ عَلِيمٌ: واسع الفضل لمن أنفق وعليم بإنفاقه.

المعنـى: إن الشيطان يخوفكم من الفقر إن تصدقتم، ويغريكم بالبخل ومنع الزكاة، والله سبحانه وتعالى يعدكم على إنفاقكم في سبيله مغفرة للذنوب وخلفا لما أنفقتموه زائدا عن الأصل، والله واسع الفضل والعطاء عليم بمن يستحق الثناء.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(٢٦٩)

الْحِكْمَةَ : العلم النافع، والفقه في الدين.

يَذَّكَّرُ: يتعظ.

أُولُو الْأَلْبَابِ: أي ذوو العقول السليمة.

المعنى: الله يهب الهداية والعقل السليم والعلم النافع المصرف للإرادة لمن يشاء له الفوز في الدنيا والآخرة من عباده المخلصين، الذين يدركون الأشياء بأدلتها، وفهم الأمور على حقيقتها، ومن أوتي ذلك ميز بين وعد الرحمن ووعد الشيطان، ومن يوفقه الله لهذه الحكمة فقد هداه إلى خيري الدنيا والآخرة، ومن ثم لا يستسلم لوساوس الشيطان، ولا يقضي مضجعه ما يصيبه من مكدرات الحياة، ولا ما تسوقه إليه من محنها وجوائحها، يقينا منه أن كل شيء بقضاء الله وقدره، ولا يتعظ بالعلم النافع ويتأثر به إلا ذوو العقول السليمة.

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(٢٧٠)

نَذَرْتُمْ : النذر في اللغة العزم على التزام شيء خاص فعلا أو تركا، وفي الشرع طاعة تقربا إلى الله تعالى.

وَمَا لِلظَّالِمِينَ : الذين ينفقون في المعاصي أو ينذرون فيها، أو يمنعون الصدقات، ولا يوفون بالنذور.

مِنْ أَنْصَارٍ: ينصرونهم من الله ويدفعون عنهم عذابه.

المعنى: وما أنفقتم من نفقة (سواء كانت في سبيل الله أم في سبيل الشيطان، وسواء كانت كثيرة أم قليلة، وسواء أتبعت بمن أو أذى أو لم تتبع، أو نذرتم من نذر قربة لله أو في معصية يعلم الله مقصدكم فيها)، فيثيبكم على ما أنفقتم في سبيله، وما نذرتم في طاعته، ويعاقبكم على ما أنفقتم في سبيل الشيطان والسمعة والرياء والمن والإيذاء، وما نذرتم في معصية الله.

وليس للظالمين الذين ظلموا أنفسهم ولم يطهروها من رذيلة البخل أو يذكوها من رذيلة المن والأذى، وظلموا الفقراء والمستحقين بمنع ما أوجبه الله لهم، وظلموا الأمة (بترك الإنفاق في مرافقها العامة)، ليس لهؤلاء الظالمين من أعوان ينصرونهم يوم القيامة ويدفعون عنهم العذاب الأليم.

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٢٧١)

إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ: أي تظهروها.

فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ: أي إخفاء الصدقة للفقراء خير لكم، لأنه يرفع عنكم مظنة التظاهر.

وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ: والصدقة التي تقدموها تكفر عنكم بعض سيئاتكم.

بِمَا تَعْمَلُونَ: أي بما تعملون (سواء إخفاء الصدقة أو إظهارها).

خَبِيرٌ: أي عليم بما خفي وما ظهر من كل ما تعملون.

المعنى: إن تظهروا الصدقات فنعم عملا إظهارها إذا خلصت نياتكم وتجردت نفوسكم من الفخر والرياء، واستهدفتم الخير، وكان قصدكم غاية البر (لما في ذلك من

الأسوة الحسنة فيقتدي بالمتصدق كثير من الناس)، بالإضافة إلى أن الصدقة من شعائر الإسلام لتوهم منعها، وأن الناس في حاجة إلى مرشدين عمليين يتقدمون الصفوف ويفعلون الخير، وفي هذا قدوة طيبة للناس وبث لروح التسابق في سبيل البر.

وإن تخفوا الصدقات وتؤتوها للفقراء (إبعادا لكم عن مظنة الرياء أو إبقاء على تعفف الفقراء وحفظاً لكرامتهم)، فإن إخفاءها خير لكم لأنه يرفع عنكم مظنة الفخر والسمعة والمن، ولا تؤذي شعور الفقراء فتطيب بها نفوسهم، ويمحو الله عنكم بعض ذنوبكم (لأن الصدقة لا تكفر جميع الذنوب)، والله بما تعملونه (من إبداء الصدقات وإخفائها) محيط ومجازيكم عليه.

وعن ابن عباس قوله "جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفا، وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها. وروى البخاري: أن من السبعة الذين يظلهم بظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(٢٧٢)

لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ: لا يجب عليك أن تجعل الناس مهتدين، وإنما عليك البلاغ والإرشاد.

يَهْدِي مَن يَشَاءُ: يوفق الله من يشاء إلى سلوك طريق الهداية إذا كان هناك استعداد لسلوكه.

مِنْ خَيْرٍ: أي من مال حلال.

فَلِأَنفُسِكُمْ: فثوابه عائد على أنفسكم.

وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ: وما تنفقوا إلا طلبا لمرضاة الله وابتغاء ثوابه.

يُوَفَّ: يعطوا أجره إضعافاً مضاعفة.

لَا تُظْلَمُونَ: لا تبخسون ولا تنقصون شيئاً من ثوابه.

سبب نزول الآية:

كان المسلمون يتصدقون على فقراء أهل الذمة من بني قريظة والنضير بالمدينة لصلة قرابة بعضهم، فلما كثر فقراء المسلمين قال الرسول (ﷺ) "لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم"، فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام.

المعنى: يرشدنا الله في هذه الآية إلى عدم التحرج في إعطاء غير المسلمين من الصدقة بحجة عدم الاهتداء إلى الدين فإن الهداية من الله، والشفقة تقتضي إعطاء الإنسان المحتاج مطلقاً بغض النظر عن دينه.

فليس عليك يا محمد أن تهدي الناس فإنك لست بمؤاخذ بجريرة من لم يهتدي، إنما أنت ملزم بتبليغهم فحسب، والله يهدي من يشاء من عباده إلى الإسلام، وأي شيء تنفقونه من المال فهو لأنفسكم، ولا ينتفع به غيركم، لأن ثوابه لكم، فلا تجعلوا إنفاقكم إلا لوجه الله لا لغرض دنيوي، فإن أجره وثوابه أضعافاً مضاعفة تنالونه أنتم ولا تنقصون شيئاً من حسناتكم في الآخرة.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(٢٧٣)

الَّذِينَ أُحْصِرُوا : أي الذين حبسوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله، أو تعلم علم.

لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ: أي لا يستطيعون الكسب والتجارة، وذلك لانشغالهم بالجهاد في سبيل الله.

تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ: أي تعرفهم بما يظهر عليهم من الضعف، وصفرة الوجه ورثاثة الحال.

سبب نزول الآية:

نزلت هذه الآية في أهل الصفة وهم فقراء المهاجرين الذين هاجروا مع رسول الله وتركوا مالهم، وكأن عددهم أربعمائة رجل، ولم يكن لهم مأوى أو عشائر أو أزواج أو أولاد، فأقامهم الرسول في الصفة (وهي سقيفة في المسجد أمر ببنائها لهم)، فكانوا يكرسون حياتهم للعبادة وحفظ القرآن، والتفقه فيه، ومدارسة السنة، والدين، والجهاد في سبيل الله (حيث كانوا يخرجون في كل سرية بعثها الرسول)، ومن كان من المسلمين لديه فضل من طعام أو تمر أتاهم به إذا أمسى حتى لا يراه أحد، فيظن به رياء وتظاهرا، ولا يراهم أحد فتتأذى نفوسهم وقد قال عنهم الرسول (ﷺ) "أبشروا يا أصحاب الصفة فمن بقى من أمتي على النعت الذي أنتم عليه راضياً بما فيه فإنه من رفقائي".

المعنى: اجعلوا ما تنفقونه للفقراء الذين حبسوا أنفسهم للجهاد والغزو في سبيل الله، ولا يستطيعون بسبب الجهاد السفر في الأرض للتجارة والكسب، ويظنهم الذي لا يعرف حالهم بأنهم أغنياء موسرين من شدة تعففهم، وتعرف حالهم أيها المخاطب بعلامتهم من التواضع وأثر الجهد، وهم مع ذلك لا يسألون الناس شيئا، فلا يقع منهم إلحاح أو إن سألوا سألوا بلطف ولم يلحوا، وما أنفقتموه في وجوه الخير فإن الله يجازيكم عليه أحسن الجزاء.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢٧٤)

بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ: أي في كل وقت.

سِرًّا وَعَلانِيَةً: في جميع الأحوال.

سبب نزول الآية:

نزلت الآية في أبي بكر الصديق، إذ أنفق أربعين ألف دينار (عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة بالسر، وعشرة بالعلانية).

المعنى: الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ابتغاء مرضاته في جميع الأوقات (من ليل أو نهار)، وفي جميع الأحوال (من سر وجهر) فلهم ثواب ما أنفقوا، ولا خوف عليهم يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا.

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٢٧٥)

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا: الربا الزيادة، أي الذين يأخذون الربا ويتصرفون فيه بسائر أنواع التصرفات.

يَتَخَبَّطُهُ: الخبط هو السير على غير هدى وبصيرة.

الْمَسِّ: الجنون.

مَوْعِظَةٌ : الموعظة هي العظة والزجر.

المعنى: الذين يأخذون الربا ويستحلونه من غير وجه شرعي، ويأكلون أموال الناس بالباطل، قد ركبهم شيطان الجشع، فتراهم في قيامهم وتصرفاتهم يتخبطون خبط عشواء (كالصرعى الذين مسهم الجن)، وإنما خص القيام لأنه من أبرز مظاهر النشاط في العمل، كما جعلوا البيع كالربا، وقد أحل الله البيع (حيث فيه معاوضة وسلعة قد يرتفع ثمنها في المستقبل، وما زيد في الثمن إنما هو في مقابلة شيء مستنفع به في الأكل أو اللباس أو غيرهما)، وحرم الربا (حيث لا معاوضة فيه، والزيادة ليست في مقابل شيء)... بل كانوا إذا حل أجل الدين تعين على المدين أن يدفع، وإلا أجل الدائن في نظير زيادة الدين (فأخذ هذه الزيادة ظلماً وإثماً)، فمن جاءه وعظ من ربه يتضمن تحريم الربا لمصلحة المجتمع فانتهى عما

كان يفعله، فله ما سلف أخذه في الجاهلية، وأمره يوم القيامة إلى الله، والله يجازيه على ما أخذه بعد التحريم، أما ما قبله فقد عفا الله عنه.

ومن عاد إلى ما كان يأخذ من الربا المحرم (بعد تحريمه) فذلك الذي لن يتعظ بموعظة من ربه، وهو من الملازمين للنار أبد الآبدين. والتعامل بالربا من الكبائر، وقد ورد في الحديث عن الرسول (ﷺ) "لعن الله أكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده".

﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾(٢٧٦)

يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا: المحق نقص الشيء حالا بعد حال (كمحاق القمر)، والمعنى يذهب بركة الربا.

وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ: أي يضاعف ثوابها، ويبارك فيما أخرجت منه.

أَثِيمٍ: متماد في الإثم يأكله.

المعنى: يذهب الله بركة الربا، ويهلك المال الذي يدخل فيه، فلا ينتفع به أحد من بعده، ويضاعف ثواب الصدقات، ويبارك في المال الذي أخرجت منه، وينميه في الدنيا، ويضاعف لصاحبه الثواب في الآخرة، والله لا يرضى عن المستحل للربا، المقيم على الإثم المبالغ فيه.

وقد قال الرسول (ﷺ): "إن الربا وإن كثر فعاقبته إلى قل".

وقال (ﷺ): "من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله تعالى إلا طيباً، فإن الله تعالى يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل).

ويقول العلماء والفقهاء:

١- أن الربا هو الزيادة يأخذها المقرض من المقترض.

٢- أن أخذه هذه الزيادة محظور، فالحكم ينصب أولا على المقرض، فهو الذي تخاطبه آيات الربا.

٣- أن علة تحريم أكل الربا هي تنقية العلاقات البشرية من الاستغلال.

٤- أن التشريع في هذه المسألة له أثر رجعي، ولكن له أثر مباشر، فلا يكلف المقرضون برد ما أخذوه من الربا قبل التحريم.

٥- أن تحريم الربا مسألة تهم الدولة وحكومتها، فيجب أن تضرب الحكومة بشدة على أيدي المرابين.

٦- أن للمدين المعسر الحق في تأجيله دينه إلى ميسرته، وتأخذ التشريعات الحديثة بهذا التيسير، فالقانون المدني أباح للقاضي أن يؤجل سداد الدين للمدين بقدر طاقته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢٧٧)

المعنى: إن الذين صدقوا ما جاءهم من ربهم، وامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، وعملوا صالح الأعمال (كمواساة البائسين، والرحمة بالمحتاجين، والمساعدة في المشروعات الخيرية، والبذل في سبيل الله وغيره)، وداوموا على إقامة الصلاة، وأتوا الزكاة (التي تزكي النفوس وتطهر الأموال)، (وقد اقتصر في هذه الآية على ذكر الصلاة والزكاة، لأنهما أقوى أركان الإسلام، وعمود الدين، وأعظم ركائز العبادات، ورأس الأعمال الصالحة في النفس والمال والبدن، فمن مارسهما مارس بالطبع بقية أركان الإسلام)... هؤلاء لهم ثواب مدخر عند الله يوم القيامة، ولا يحزنون على ما فات، ولا يخافون مما هو آت.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٢٧٨)

اتَّقُوا اللَّهَ: أي إخشوا الله وراقبوه فيما تفعلون.

وَذَرُوا: أي اتركوا.

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ: أي إن كنتم كاملي الإيمان.

المعنـى: يا أيها الذين آمنوا صدقوا الله فيما أمر به ونهى عنه، واخشوا عقابه وذلك بالإنابة إلى الله، والعمل على طاعته، وإتباع أوامره، واتركوا ما بقى لكم من الربا عند الناس، واقطعوا المعاملة به حالاً، إن كنتم مؤمنين حقاً، لأنه لا إيمان مع العاصي وخاصة المتعامل مع الربا.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾(٢٧٩)

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا : فإن لم تتقوا الله وتتركوا ما بقي من الربا.

فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ: فاعلموا بحرب من الله أي بغضب من الله وعذاب منه تعالى.

وَإِن تُبْتُمْ: وإن كففتم وندمتم على الربا.

فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ: فخذوا أموالكم التي أعطيتموها بلا زيادة عليها.

لَا تَظْلِمُونَ: لا تطلبون من المدينين زيادة على رءوس أموالكم فتظلموهم.

وَلَا تُظْلَمُونَ: ينقص شيء من رأس المال.

سبب نزول الآية:

كانت ثقيف قد صالحت الرسول (ﷺ)، فلما كان فتح مكة وكان بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من المغيرة (وكان بنو المغيرة يربون لهم في الجاهلية)، فجاء الإسلام ولهم عليهم مال كثير، فآتاهم عمرو يطلبون رباهم، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عتاب بن أسيد (وكان استعمل على مكة) والذي رفعه إلى الرسول فنزلت هذه الآية، وقال له الرسول: "إن رضوا وإلا فأذنهم بحرب".

المعنـى: ينذر الله المتعاملين بالربا ويتوعدهم بأشد أنواع الغضب والعقاب، وليعلموا أنهم في حرب معه ورسوله، إذا خرجوا عن شريعته، ولم يمتثلوا أوامره، ولم

يذعنوا لأحكامه، ونبذوا ما جاء به رسوله عنه، أما إذا راجعوا عن الربا، وكفوا أيديهم عن أخذه، وندموا على فعله خضوعاً لأوامر الدين، فلهم أن يأخذوا رءوس أموالهم ولا يأخذوا عليها شيئاً من الغرماء فيظلموهم، ولا يماطلهم المدينون أو ينقصون شيئاً من ديونهم فيظلموهم.

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٢٨٠)

ذُو عُسْرَةٍ : العسر يكون بفقد المال أو كساد المتاع.

فَنَظِرَةٌ: أي الانتظار.

المعنى: وإن كان الذي عليه الحق من غرمائكم معسرا، فواجب عليكم أن تمهلوهم إلى وقت يسارهم حتى يتمكنوا من أداء الدين، وإن تصدقتم على المعسرين (من المدينين) بإبرائهم من الدين (كلاً أو بعضاً)، فهو خير لكم من انتظارهم وأكثر ثواباً عند الله منه، إن كنتم تعلمون ما فيه من الثناء الجميل في الدنيا، والأجر الجزيل في الآخرة.

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾(٢٨١)

المعنى: واحذروا يوم القيامة واخشوا عذاب ربكم حينما ترجعون إليه، وتقفون بين يديه، ثم يجازيكم على ما اقترفت أيديكم إن خيرا فخير، وإن شراً فشر، وأنتم لا تنقصون من ثوابكم، فلا ظلم لأحد بنقصان حسناته، أو زيادة سيئاته، إنما الجزاء من جنس العمل، وهذه الآية آخر ما نزل من القرآن العظيم، وقد عاش النبي (ﷺ) بعد نزولها تسع ليال، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٢٨٢)

إِذَا تَدَايَنتُم: إذا داين بعضكم بعضا.

إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى: أي إلى مدة معلومة.

فَاكْتُبُوهُ: فاثبتوه بالكتابة لأنه أوثق.

كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ: أي مثل كتابة الوثائق.

وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ: أي وليكن المملي على الكاتب هو المدين (لأنه المشهود عليه) فلابد أن يكون هو المفسر.

وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ: وليخشى الله المملي فلا يمتنع عن الكتابة.

وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا: ولا ينقص المملي من الدين الذي عليه شيئا.

سَفِيهًا: أي ناقص العقل سيئ التصرف في المال.

أَوْ ضَعِيفًا: أي ضعيف العقل (بأن يكون صبيا أو شيخا مختلا).

أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ: أي أخرس أو جاهل باللغة.

فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ: فليملل الذي يلي أمره ويقوم مقامه (من وكيل أو مترجم).

مِمَّن تَرْضَوْنَ: أي ممن تعرفون عدالتهم.

أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا: لأجل أن إحداهما قد ضلت الشهادة (بأن نسيتها كلها أو نسيت بعضها).

وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ: ولا يمتنعوا.

إِذَا مَا دُعُوا: لأداء الشهادة أو لتحملها.

وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ: ولا تملوا أن تكتبوا عقد الدين وأجله لكثرة مداينات‍كم.

أَقْسَطُ: أي أعدل وأصوب.

وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا: وأقرب ألا تشكو في قدر الدين وأجله وشهوده.

إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً: إلا أن تتبايعوا بيعا ناجزا ببدلين حاضرين.

وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ: وإن تفعلوا ذلك فإنه معصية وخروج عن الأمر.

وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ: ويعلمكم الله الأحكام المتضمنة لحقوقكم.

المعنى:

١- يا من اتصفتم بالإيمان إذا تعاملتم بالدين المؤجل في الذمة (بيعاً أو سلما أو قرضا أخذا أو إعطاء) إلى وقت مسمى معلوم، إذا تداينتم بدين كهذا يتعين عليكم أن تثبتوه كتابة محافظة على مصالحكم، وصيانة للحقوق بينكم، وتبينوا نوعه، ومقداره، وشهوده، وأجله الذي سميتموه بينكم.

٢- وليكن فيكم كاتب للديون، عادل في كتابته، لا يميل ولا يحيد عن الحق، وبشرط أن يكون عالما بشروط الكتابة وملما بأصولها، وأن يكون الكاتب غير المتداينين، ولا يثبت لصاحب الحق أكثر مما له أو أقل مما يستحقه، ولا يجوز أن

يمتنع كاتب الوثائق عن الكتابة إذا طلبه صاحب الدين وأعطاه أجره ولم يوجد كاتب غيره، أو وجد ولكنه غير موثوق به، وذلك لأن امتناعه عن الكتابة يضر بصاحب الدين.

٣- وليكتب كتابه (كما علمه الله)، فلا يزيد ولا ينقص، ولا يضر أحدا وليحسن كما أحسن الله إليه.

٤- وليملل الذي عليه الحق، وليلق على الكاتب ما يكتبه المدين ليكون إملائه حجة عليه تحفظها الكتابة.

٥- وليخش الذي عليه الحق غضب الله ونكاله في الإملال بأن يذكر ما عليه كاملاً ولا ينقص من الدين شيئاً (حيث ربما يستخفه طبعه إلى نقص شيء من الحق أو الإيهام في الإقرار الذي يمليه على الكاتب تمهيداً للمماطلة والمجادلة).

٦- فإن كان المدين ضعيف العقل، أو صبياً، أو هرماً، أو جاهلاً، أو أخرس فعلى من يتولى أمره ويقوم مقامه (من وكيل أو مترجم) أن يملي بالعدل بلا زيادة أو نقص.

٧- واستشهدوا شهيدين من رجالكم ممن حضروا ذلك بشرط البلوغ والعقل والإسلام والحرية، لأن الاستشهاد على المداينة من وسائل التوثيق للحقوق وقطع المنازعات.

٨- فإن لم يكونا رجلين، فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فقد أمرنا الله تعالى أن نطلب لأداء الشهادة على المداينات وقت إجرائها بيننا شاهدين، إما رجلين، أو رجل وامرأتين من المسلمين الذي نرتضي سيرتهم وأخلاقهم ودينهم وعدالتهم، هذا إذا كانت المداينة بين المسلمين، أما إذا كانت المتداينات أو كان الذي عليه الحق غير مسلم فتجوز شهادة غير المسلمين.

٩- (ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا) أي لا ينبغي للشهود أن يمتنعوا عن أداء الشهادة حين الحاجة، فإن كتمانها معصية، ومن يكتمها فإنه أثم قلبه، إذ بالشهادة العادلة تتضح الحقوق ويمنع الظلم والجور.

١٠- (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله) أي لا تملوا من كتابة الدين مهما كان صغيراً أو كبيراً حتى يقطع النزاع والشقاق وموضحين بذلك أجله المسمى، وفي هذا إيماء إلى أن للشاهد أن يطلب وثيقة العقد المكتوب ليتذكر ما كان من الأحوال حين كتابتها وإملائها.

١١- ما تقدم في المبايعات المؤجلة، وفي الديون والسلم، أما في التجارة الحاضرة (التي تدار بين المتعاملين بالتعاطي بأن يأخذ المشتري المبيع والبائع الثمن)، فلا حرج حينئذ في ترك الكتابة، ولا إثم في ذلك، (حيث لا يترتب عليه شيء من التنازع والتخاصم).

وفي هذا إشارة إلى ما يجب على المرء في ضبط أمواله، وإحصاء ما يرد إليه، وما يصدر عنه، وهذا منتهى الضبط الداخلي الحسابي هدى إليه الإسلام قبل أن يعرفه العالم المعاصر من أربعة عشر قرنا.

١٢- (وأشهدوا إذا تبايعتم) أي وأشهدوا في التبايع في التجارة الحاضرة، إذ قد يحصل التنازع والخلاف في بعض العقود الحاضرة بعد تمام العقد فاكتفى بالإشهاد.

أما الديون المؤجلة فربما يقع التنازع فيها بعد موت الشهود (إذ هي مما يطول زمنه) ومن ثم وجبت كتابتها.

١٣- (ولا يضار كاتب ولا شهيد): أي ولا ينبغي لكاتب أو شاهد أن يضر أحدا من المتعاملين (بزيادة أو نقص)، ولا يليق بالمتعاملين أن يضروا كاتبا أو شهيدا بأي نوع من أنواع الضرر، إذ الدين الإسلامي دين سلام وأمن وعدل.

١٤- (وأن تفعلوا فإنه فسوق بكم): أي وإن تفعلوا ما نهيتم عنه من الضرر فإن هذا الفعل خروج من طاعة الله إلى معصيته.

١٥- (واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم): أي واتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه، والله يعلمكم ما به تحفظون أنفسكم وأموالكم وتقوون رابطتكم، فشرعه شرع الحكيم الخبير العليم البصير... وهذه أطول آية في القرآن وأبينها أحكاما.

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾(٢٨٣)

أَمَانَتَهُ: دينه، وسمي أمانة لائتمانه عليه بدون ارتهان أو كتابة.

وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ: وليخشى الله ربه فلا يخن الأمانة.

وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ: ومن يخف الشهادة ويحبسها فإن قلبه (الذي أخفاها) يأثم.

المعنى: وإن كنتم مسافرين وخلافه، ولم تجدوا كاتبا يكتب وثيقة الدين، أو لم تجدوا أدوات الكتابة فاستوثقوا برهن تقبضونه (أي يعطي المدين الدائن رهنا يساوي قيمة الدين أو أكثر (وقد توفي الرسول عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير لأهله)، فإن أمن الدائن المدين (لحسن ظنه به)، فيجب على المدين أن يؤدي دينه، وليكن عند ظن الدائن به، وليتق الله ربه فلا يخون الأمانة (بحجة عدم وجود شهود عليه أو عدم وجود إيصال عليه)، فالله خير الشاهدين، وقد توعد الله كاتم الشهادة (سواء كان شاهداً أو مديناً) بإثم يتمكن من قلبه ويغلفه بغلافات من الظلمة والسواد، ومن أثام القلب سوء القصد، وفساد النية والحسد، والآية تشير إلى أن الإنسان يعاقب على ترك المعروف، كما يعاقب على فعل المنكر، لأن الترك في الشهادة فعل للنفس يترتب عليه آثار تضر غيرها.

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢٨٤)

لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ: أي لله ما في السموات والأرض خلقا وملكا وتدبيرا.

وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ: يعني من السوء.

يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ: يكافئكم ويجازيكم عليه.

المعنى: لله ما في السموات والأرض (ملكا وخلقا وتصريفا وعلما فهو العليم بكل شيء)، وأن تظهروا ما في قلوبكم من السوء والعزم عليه (سواء بالقول أو الفعل)، أو تكتموه عن الناس ولا تظهروه يجازيكم الله به يوم القيامة، لأن الإبداء والإخفاء سيان عند الله، ولأنه تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)، فالمعول عليه في مرضاته تزكية النفوس وتطهير السرائر، لا لوك اللسان، وحركات أبدان، والخواطر والهواجس قد تأتي بغير إرادة الإنسان ولا يكون لها أثر في نفسه ولا ينتج عنها فعل يكون مترتبا عليها لا يحاسب عليها، أما إذا استرسل فيها حسبت عليه، وكانت من أعماله، وإن شغل نفسه بغيرها وطردها لم تحسب عليه.

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(٢٨٥)

كُلٌّ آمَنَ: كلهم آمن (أي الرسول والمؤمنون).

المعنى: آمن الرسول (ﷺ)، وصدق المؤمنون بما جاء به الوحي من العقائد والأحكام تصديق يقيني وكذلك ما ذكر عن الرسل الكرام، كل منهم آمن بوجود الله، ووحدانيته، وتمام حكمته في نظام خليقته، وبوجود الملائكة وسفارتهم بين الله والرسل ينزلون بوحيه على قلوب أنبيائه، ويقولون أن الرسل في الرسالة والتشريع سواء لا يختلف واحد عن آخر (باعتبار تقدمه في الزمن أو تأخره، أو كثرة أتباعه أو قلتهم)، مع إيمانهم بأن الله فضل بعض الرسل على بعض، والدعوة إلى التوحيد وإثبات البعث عامة عند الجميع، كما سبق في قوله تعالى ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إنما هو في مزايا أخرى فوق الرسالة.

وفي هذا إشارة إلى فضيلة المؤمنين على غيرهم من أهل الكتاب (الذين يفرقون بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض)، وقالوا بلغنا الرسول فسمعنا القول سماع فهم وتدبر، وأطعنا ما فيه من الأوامر والنواهي (طاعة إذعان وانقياد)، وهذا مما يبعث النفس إلى العمل به (إلا إذا عرض لها مانع منعها منه)، ويسألون الله تعالى أن يغفر لهم ما عساهم يقعون فيه فيعوقهم عن الرقي في معارج الكمال ومدارج الإيمان، فهم يقولون "غفرانك" أي استر لنا ذنوبنا بعدم الفضيحة عليها في الدنيا، وترك الجزاء عليها في الآخرة.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(٢٨٦)

إِلَّا وُسْعَهَا: الوسع ما تسعه قدرة الإنسان من غير حرج ولا ضيق.

لَهَا مَا كَسَبَتْ: أي تثاب بما عملت من خير.

وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ: أي تعاقب بما اقترفت من شر.

لَا تُؤَاخِذْنَا: أي لا تعاقبنا.

إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا: أي إن تركنا أمرا من أوامرك سهوا أو خطأ (بغير قصد).

إِصْرًا: أي عبئاً ثقيلاً (مثل التكاليف الشاقة).

كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا: المراد به ما كلف به بنو إسرائيل (كقتل النفس بالتوبة، وقطع موضع النجاسة، وخمسين صلاة في اليوم والليلة، وصرف ربع المال في الزكاة وغير ذلك).

وَاعْفُ عَنَّا: وأمح ذنوبنا.

وَاغْفِرْ لَنَا: أي واستر عيوبنا ولا تفضحنا.

وَارْحَمْنَا: وتلطف بنا وتفضل علينا.

أَنتَ مَوْلَانَا: أنت سيدنا وناصرنا ومتولي أمرنا.

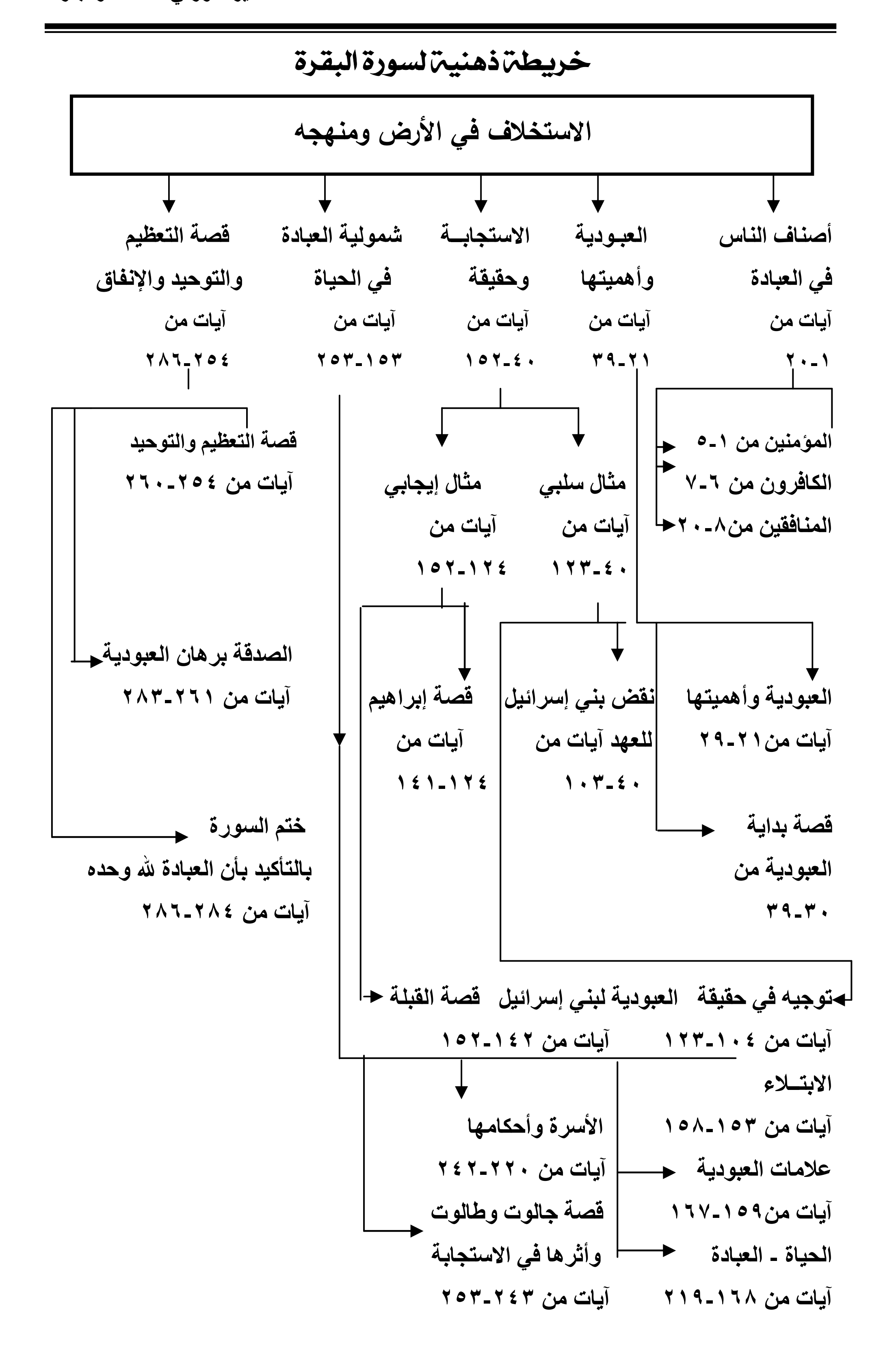
المعنى: لا يكلف الله أحدا إلا ما يتسع له جهده وطاقته من غير حرج أو ضيق، لأنه (سبحانه وتعالى) يريد لعباده اليسر ولا يريد لهم العسر، وكل نفس ستجزى بما عملت من خير وما اقترفت من ذنب، وستحاسب على ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقد علمنا الله أن ندعوه ألا يعاقبنا بالنسيان والخطأ، وهذا يذكرنا بما ينبغي من العناية والاحتياط والتفكير والتذكر (لعلنا نسلم من الخطأ والنسيان، وإن وقع بعد ذلك منا شيء غفره لنا وستره ولم يفضحنا).

وعن رسول الله (ﷺ) "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".

ولقد كان بنو إسرائيل (لفرط عنادهم وشدة طغيانهم)، تكاليفهم شاقة، فتوبتهم بقتل التائب، وإزالة النجاسة بقطع موضعها من الثوب إذا تنجس، ودفع ربع مال الزكاة... فعلمنا الله أن ندعوه بألا يكلفنا بالأعمال الشاقة، والأعباء الثقيلة (كما فعل مع بني إسرائيل) وأن ندعو: ربنا ولا تحملنا ما لا قدرة لنا عليه من العقوبة والفتن، وأعف عنا فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا، واغفر لنا فيما بيننا وبين عبادك (فلا تظهرهم على عيوبنا وأعمالنا)، وارحمنا (أي وتفضل علينا بتوفيقك إيانا للسير على سننك التي جعلتها وسيلة لسعادة الدارين)، أنت مالكنا ومتولي أمورنا وناصرنا، فانصرنا بإقامة الحجة على القوم الكافرين، وامنحنا الغلبة والقهر عليهم.

خريطة ذهنية لسورة البقرة



فضل سورة البقرة :

١- أن الشياطين تفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة، وأنها نافعة في الوقاية من السحر، وفي علاجه، خصوصاً الآيتين الأخيرتين منها.

٢- يلاحظ أن عدد آيات سورة البقرة ٢٨٦ آية حيث أن:

أ - فإذا حذفنا رقم ٦ يكون العدد ٢٨ = عدد السور المدنية في القرآن.

ب - وإذا حذفنا العدد ٢ يكون العدد ٨٦ = عدد السور المكية في القرآن.

جـ - ولو جمعنا عدد السور المكية والمدنية في القرآن = ٨٦ + ٢٨ = ١١٤ وهي عدد سور القرآن.

د - ولو قسمنا الرقم ٢٨٦ على ٢ = ٢٨٦ ÷ ٢ = ١٤٣ وهو رقم نصف عدد آيات سورة البقرة (وهو رقم آية وسطى للسورة) قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...﴾ سورة البقرة (١٤٣)... فهل هناك إعجاز أكثر من ذلك؟؟؟

خاتمــة

قال "حكيم" منذ أن عرفت الله ما أتاني خير إلا وتوضأت وصليت شكراً... وما أصـابني ضـر إلا وتوضـأت وطلبـت صـبرا.... ومـا حـارني أمـر إلا وتوضـأت واستخرت خيرا..... وهكذا تتقلب حياتي بين شكر وصبر ودعاء.

وقيل ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال إبراهيم بن أدهم: لأن قلوبكم ماتت بعشر أشياء هي:

١- عرفتم الله ولم تؤدوا حقه.

٢- وزعمتم أنكم تحبون رسول الله، وتركتم سنته.

٣- وقرأتم القرآن ولم تعملوا به.

٤- وأكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها.

٥- وقلتم أن الشيطان عدو لكم ولم تخالفوه.

٦- وقلتم أن الجنة حق ولم تعملوا لها.

٧- وقلتم أن النار حق ولم تهربوا منها.

٨- وقلتم أن الموت حق ولم تستعدوا له.

٩- وانتهيتم من النوم فاشتغلتم بعيوب الناس ونسيتم عيوبكم.

١٠- ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم.

فيارب إذا كان عفوك يمحو الذنوب فكيف ودك؟

وإذا كان ودك يضيء القلوب فكيف حبك؟

وإذا كان حبك يدهش العقول فكيف قربك؟

وإذا كان قربك يزيل الهموم فكيف النظر إلى وجهك الكريم؟

اللهم إنا نسألك عفوك، وودك، وحبك، وقربك، ولذة النظر إلى وجهك الكريم يارب العالمين.

وبعد،،،

إلى اللقاء مع الجزء الثاني من التفسير العصري (تفسير سور آل عمران والنساء والمائدة).

والله الموفق،،،

دكتور محمد السيد أرناؤوط

أهم المراجع

١- التفسير الفريد للقرآن المجيد للدكتور/ محمد عبد المنعم الجمال.
٢- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن لأبي محمد عبد الله القرطبي.
٣- تفسير ابن كثير.
٤- صفوة التفاسير (تفسير القرآن الكريم) للشيخ محمد علي الصابوني.
٥- الأساس في التفسير لسعيد حوي.
٦- تفسير الشعراوي (خواطر الشيخ محمد متولي الشعراوي حول القرآن الكريم).
٧- صحيح البخاري.
٨- إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي.
٩- سنن الله الكونية، محمد أحمد الغمراوي.
١٠- معجزة القرآن، حنفي أحمد.
١١- روائع القرآن للدكتور/ محمد سعيد البوطي.
١٢- لسان العرب لابن منظور.
١٣- الجديد في المنظور العلمي للقرآن المجيد للدكتور/ إسلام الشبراوي.
١٤- كلمات القرآن تفسير وبيان، للشيخ حسنين محمد مخلوف.
١٥- البرهان العلمي للإسلام، هارون نبيل عبد السلام.
١٦- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.
١٧- مجالات الإعجاز في القرآن الكريم للدكتور/ محمد السيد أرناؤوط.
١٨- الإعجاز في خلق السموات والأرض للدكتور/ محمد السيد أرناؤوط.
١٩- القرآن والسنة وقاية وعلاج من الأمراض للدكتور/ محمد السيد أرناؤوط.
٢٠- إعجاز النبات في القرآن الكريم للدكتور/ محمد السيد أرناؤوط.
٢١- الأراضي الزراعية والمياه قبسات من نور القرآن الكريم للدكتور/ محمد السيد أرناؤوط.
٢٢- المخدرات والمسكرات بين الطب والقرآن والسنة للدكتور/ محمد السيد أرناؤوط.
٢٣- إعجاز القرآن للباقلاني.

٢٤- جامع البيان عن تأويل أي القرآن للإمام الطبري.

٢٥- المفردات للراغب الأصفهاني.

٢٦- إعجاز القرآن للدكتور/ السيد محمد الحكيم.

٢٧- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للدكتور/ عبد الله عبد العزيز مصلح.

٢٨- مجموعة صفوة التفاسير للخازن.

٢٩- علوم القرآن، محمد حسن شمس.

٣٠- الإتقان في علوم الدين، جلال الدين السيوطي.

٣١- إعجاز القرآن للدكتور عبد الله شحاته.

٣٢- تاريخ علم التفسير ومناهج المفسرين، للدكتور/ علي حسن العريضي.

٣٣- القرآن محاولة لفهم عصري، للدكتور/ مصطفى محمود.

٣٤- المعجزة العلمية في القرآن والسنة، للشيخ عبد المجيد الزنداني، مؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، إسلام أباد، باكستان، ١٩٨٧.

٣٥- موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي للدكتور/ أحمد شوقي إبراهيم.

٣٦- القرآن دواء فيه وقاية وشفاء، عبد الرزاق نوفل.

٣٧- المختار في التفسير القرآني للدكتور/ محمد رجب البيومي.

٣٨- مباحث علوم القرآن، للشيخ مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٣٩- القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم.

٤٠- مخ الإنسان الأساسي في أمعائه، تحقيق محمد فهمي، مجلة العلم، أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، القاهرة، العدد ٥١٩، يناير ٢٠٢٠م.